موسوعة الكتب النادرة

(٨)

دكانة الكتب

رحلة إلى جزر التراث!

محمد خير رمضان يوسف



دار ابن حزم

موسوعة الكتب النّادرة

(٨)

دكانة الكتب

رحلة إلى جزر التّراث!

محمّد خير رمضان يوسف

دار ابن حزم

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ـ لو لم يظهر الكتابُ لاعتللت!

هذا ما قلتهُ لبعضِ إخواني عن كتابٍ صدرَ لي بفضلِ الله.

وكان الاهتمامُ به كبيراً، وجمعُ شتاتِ مادتهِ مرهقاً، والحرصُ على أن يأخذَ طريقه للنشرِ هاجساً، مع همِّ المسؤولية مذ كان فكرة؛ وذلك لمزيد الحاجةِ إليه، وخلوِّ الساحةِ من أمثاله أو ندرته.. وصاحبَ كلَّ ذلك قلقٌ وتوتُّر، وخوفٌ من أن لا يكتملَ العمل، أو لا يرغبَ فيه ناشرٌ فلا يرى النور؛ فيضيعُ الجهد، ويبقى الهمّ..!

إنه باختصار.. خوفٌ وترقُّب قبل إصابةِ الهدف.. أو قبيل إعلان النتيجة!

أما هذه السلسلة ـ سلسلة الكتب النادرة ـ فكان أولُ كتابٍ فيها هوايةً أخذتْ بمجامع نفسي، وسيطرتْ على جُلِّ اهتماماتي.

كنتُ أريدُ من خلالهِ أن أخترق حُجبَ الثقافاتِ العادية، والمطالعاتِ المتكرِّرة، والشواهدِ المعروفة..

وأن أمدَّ يدي إلى عناقيدَ شهيَّةٍ جميلةٍ في أشكالٍ غريبة، وثمارٍ مختلفةٍ تقدَّمُ على مائدةٍ أثرية، بطعمٍ جديد، لم يألفْهُ اللسان، أو لم يتذوَّقْهُ أكثرُ القرّاء.

فوجدتُ بُغْيتي في بعضِ الكتب الغريبة، أو النادرة، التي تحملُ

بين طيّاتها بعضَ ما حلمت. . أقتطفُ منها ما هو غريب، أو عزيز، أو مفيد، أو جميعُها معاً!

وكانت هذه النوعيةُ من الكتب ـ أيضاً ـ عزيزة، نادرة. فلم أقدر على الحصولِ على ما أريد منها في جميع محتويات كلِّ سلسلة. . فكان أن اتجهتُ إلى البحثِ عن الأخبارِ والأقوالِ النادرة ضمن الكتب الجامعة، أو ما يعرف الآن بكتبِ الثقافة العامة. . فكنتُ أطَّلعُ على موضوعات الكتاب؛ لأنتقي منها ما يوائمُ الهدفَ الذي ارتأيته لهذه السلسلة، وإن غلبَ على كثيرٍ منها ـ من بعد ـ نوعُ الفائدة، مع التشويق.

وبعد أن مضيتُ قدماً في هذه السلسلة، رأيتُ نفسي مدفوعاً إلى البحثِ والتقصِّي عن أمثال هذه الكتب، مع الحرصِ على عدمِ تكرير الموضوعات المتشابهة، واستبعاد الكتب الكبيرة، ذات الأجزاء.

وهكذا تمثَّل أمامي هذا العملُ «موسوعة»، وليس مجرَّدَ «سلسلة»!

وتوضَّحَ أمامي الهدفُ والغاية بعد إنجازِ عددٍ لا بأس به من أعداده، وبعد أن لمستُ فائدته بنفسي، وكذا غيري من المهتمين التربويين.

حيث أردتُ جمع شتات الأخبار والأقوال والحكايات والموضوعات النادرة في هذه الموسوعة، مع التشويق والفائدة، واستبعاد ما هو ضارّ، لتكونَ ثقافةً أدبيةً تربويةً إسلاميةً عامرةً ناضجة، يستطيعُ الأبُ أن يزيِّنَ بها مكتبته المنزلية، ويضعها بين أيدي أولاده وهو لا يخشىٰ من ورائها أيةَ آثار سلبية، بل يتمنَّى أن تبدو آثارها الإيجابية، وتتفتَّح من خلالها مواهبهم الخفيَّة.

كما يحرصُ على اقتنائها العالمُ لتكونَ محطَّةَ راحةٍ لرحلته الفكرية المتتابعة، وينصحَ بها طلابه وتلاميذه، لتقدحَ ذكاءهم،

وتهذِّبَ نفوسَهم ـ التي لا شكَّ يعتريها الملل ـ وتنوِّعَ ثقافتهم؛ فلا تكونُ مقتصرةً على علومٍ معينة؛ فهي طريقٌ مختصرة، ونافذةٌ مفتوحةٌ على علومٍ متنوعة، وفنونٍ متعدِّدة.

وتقتنيها المكتبات مع اختلاف تخصُّصاتها، وهي حريصةٌ على جمعِ المفيد النافع..

وهي رحلةٌ مشوِّقة، مذلَّلة، لأيِّ شخصٍ يحبُّ ارتيادَ التراثِ الإسلامي، ومعرفةَ أسراره.

ومن أسبابِ امتدادِ هذه السلسلة: رغبتي في أن يشاركني القارىءُ فيما أعرف.. فلا تكادُ تمرُّ بي فقرةٌ تعجبني إلا وأقيِّدها لأنقلها بدوري إلى القارىء. وهذا ما أدَّى إلى أن لا تتحمَّلَ هذه الموسوعة الطموحات الكبيرة، من خلال المطالعات المستمرة، حيث تمرُّ بي أقوالٌ وأخبارٌ نادرة من كتبٍ أخرى لا تنتظم في سمطِ هذه الموسوعة، لكن قد أجدُ في كتابٍ ما، يجدرُ نقلُ خبرٍ أو خبرين منه؛ مما دعاني إلى تخصيصِ كتبٍ أخرى نافعة لأجلِ ما ذكرت، مثل «الكشكول اللطيف: فوائد وغرائب» و «الكشكول المفيد» و «نوادر الشوارد: فوائد في التحقيق والتدقيق».

وليس في جعبتي أكثرُ من عددٍ آخر لهذه الموسوعة ـ وعنوانه «صيدُ الكتب» ـ ليكونَ الكتابَ التاسعَ إن شاء الله. فإذا جاءَ يومٌ ينتظم فيه عَقْدٌ من الأعداد، تحقَّقت أمنيةٌ كنتُ أقولُ فيها: عسىٰ ولعلّ!

واللَّهُ هو المعين، وعليه التكلان.

محمد خير يوسف

١٦/١٢/١٤١٧هـ

الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة(*)

لابن شمس الخلافة

قال جعفر الصادق: من لم يستحي من العيب، ويرعوي عند الشيب، ويخشى الله بظهر الغيب؛ فلا خير فيه.

(*) . . . الآداب/ لجعفر بن شمس الخلافة مجد الملك ـ القاهرة: مكتبة الخانجي: مطبعة السعادة؛ بغداد: المكتبة العربية، ١٣٤٩هـ، ١٥٨ص.

يقول في مقدمة كتابه: ألطف الكلام موقعاً، وأشرفه موضعاً، كلمة حكمة يقتدي الإنسان بسناها فيهتدي، ويتبع هداها فيرتدع، ومثلٌ سائرٌ يُغني بإيراده في المحافل عن ألفاظٍ يؤلِّفها. . . وقد جمعتُ في كتابي هذا ما يَصقلُ الخواطر الصديَّة، ويُجِدُّ القرائح الكالَّة، ويبعث الأفهام اللاغية، ويقود القلوب الجامحة، وصنفتُه في خمسة أبواب: باب الحكمة من النثر، باب الفصول القصار من الحكمة، باب الحكمة من الشعر، باب أبيات الأمثال المفردة، باب أعجاز الأبيات.

وقد قدَّم المؤلف كتابه هذا، أو أهداه للقاضي الفاضل عبدالرحيم ابن القاضي الأشرف بهاءالدين، المعروف بالقاضي الفاضل، المقلب مجيرالدين. وكان وزيراً للسلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، الذي عرف بغزارة إنتاجه في إنشاء الرسائل، وقيل إن مسودات رسائله تبلغ إذا جمعت نحواً من مائة مجلد!

والمؤلد هو جعفر بن محمد (شمس الخلافة) ابن مختار الأفضلي، أبو الفضل، المقلب مجد الملك. أديب شاعر من أهل مصر، نسبته إلى الأفضل (أمير الجيوش بمصر). له ـ بالإضافة إلى هذا الكتاب ـ ديوان شعر. ت ٦٢٢هـ.

ومن باب الفائدة للمكتبيين فإن هذا الكتاب هو أول ما أصدره محمد أمين الخانجي، صاحب مكتبة الخانجي بالقاهرة.

• وقال علي بن الحسن: هلك من ليس له حكيم يُرشده، وذَلَّ من ليس له سفيه يَعْضُده!

• قال أفلاطون: إذا قامت حجتك على كريم في المناظرة أكرمك وعظمك، وإذا قامت على لئيم عاداك واصطنعها عليك.

• وقال: إذا أردت أن تعرف كيف شكر الرجل على المزيد، فانظر كيف صبره على النقص.

• عيَّر رجلٌ سقراطَ بجنسه، فقال له سقراط: إن كان جنسي عاراً عليَّ فإنك عارٌ على جنسك!

• قال حكيم: أطول الناس سفراً من كان في طلب صديق يرضاه!

• قال أعرابي لعبد الله بن جعفر: لا ابتلاك الله بمعصيةٍ يعجز عنها صبرك، وأنعم عليك نعمةً يعجز عنها شكرك.

• إذا رأيت رجلاً يتناول أعراض الناس، فاجهد أن لا يعرفك، فإنَّ أشقى الأعراض به أعراض معارفه!

• قيل للأحنف بن قيس: ما أحلمك! قال: لست بحليم ولكني أتحالم، والله إنِّي لأسمع الكلمة فأحمُّ لها ثلاثاً، ما يمنعني من الجواب عنها إلا خوفي من أن أسمع شراً منها!

• ومن أقواله: أكرموا سفهاءكم؛ فإنَّهم يقونكم العار والنار!

• وقال آخر: النفسُ غير فارغة أبداً، فإن شغلتَها بما يُصلحها، وإلا شغلتك بما يُفسدك.

• قال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يقول: أقبحُ أعمال المقتدرين الانتقام، وما استُنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكِبْر!

• وقال المنتصر بالله: والله ما ذلَّ ذو حقٍّ ولو اتفق العالم عليه، ولا عزَّ ذو باطلٍ ولو طلع القمرُ في جبينه!

• قيل لأحدهم: متى يُحمد الكذب؟ قال: إذا جُمع به بين متقاطعين. قيل: فمتى يذمُّ الصدق؟ قال: إذا كان غيبةً. قيل: فمتى يكون الصمتُ خيراً من النطق؟ قال: عند المراء.

• إذا رغبت الملوك عن العدل، رغبت الرعية عن الطاعة.

• يضطغنُ على السلطان رجلان: رجلٌ أحسنَ مع محسنين فأثيبوا وحرم، ورجلٌ أساء مع مسيئين فعوقب وعُفي عنهم.

• كان كسرى يقول: عاملوا الأحرار بمحض المودة، وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة، وعاملوا السفلة بالمخافة محضاً.

• سمع عليُّ بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ رجلاً يغتاب آخر فقال: إياك والغيبة، فإنها إدامُ كلابِ الناس.

• وقال محمد بن السمّاك: تجنَّب غيبة أخيك لخصلتين، أما الواحدة فلعلك أن تغتابه بشيء هو فيك، وأما الأخرى فاشكر الله إذ عافاك مما ابتلاه به.

• قال الأحنف بن قيس: من حق الصديق أن يُحتمل له ثلاث: ظلم الغضب، وظلم الوالد، وظلم الهفوة.

• التواضع مع البخل والجهل، أحسن من التكبر مع البذل والعقل، فأعظم بحسنةٍ غطت على سيئتين، وأقبح بسيئة عفت على حسنتين.

• أصبح النجاشيُّ يوماً جالساً على الأرض وعلى رأسه التاج، فأعظم ذلك كبراءُ دولته. وسألوه عن السبب الموجب له فقال: إني وجدت فيما أنزل الله تعالى على المسيح عليه السلام: إذا أنعمتُ على عبدي نعمةً فتواضعَ فيها أتممتُها عليه، وإنه وُلد لي في هذه

الليلة ولد ذكر، فتواضعتُ شكراً لله تعالى.

● قال بعضهم: دعوتان، أرجو إحداهما، كما أخاف الأخرى: دعوةُ مظلومٍ أَعَنْتُه، ودعوةُ ضعيفٍ ظلمتُه.

●قال الأحنف بن قيس: مهما كان عندي من أناةٍ فلا أناة عندي في ثلاث: الصلاة إذا حضرت أن أؤديها في وقتها، والميت إذا مات أن أواريه، والمرأة إذا حضر كفؤها أن أزوِّجها.

● قال المأمون: ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يُقدم عليها: شربُ السمِّ للتجربة، وإفشاء السرِّ إلى ذي القرابة الحاسد، وركوب البحر وإن ظنَّ فيه الغنى.

● وقال آخر: أكمل الخصال ثلاث: وقار بلا مهابة، وحلم بلا ذل، وسماح بلا طلب مكافأة.

● ثلاثة أشياء قليلها كثير: المرض، والنار، والعداوة.

● ابذل أربعة لأربعة: لصديقك مالك، ولعدوِّك عدلك، ولمعرفتك رفدك، وللعامة بِشْرك.

● قال بعض الحكماء: من استطاع أن يمنع نفسه من أربع فهو خليق أن لا ينزل به المكروه: العجلة، واللجاج، والتواني، والعجب.

● وقال المأمون: الناس بين أربع طبقات: إمارة، وتجارة، وصناعة، وزراعة. فمن لم يكن من هؤلاء كان كَلاًّ علينا.

● قال جعفر الصادق رحمه الله: إن خير العباد من يجتمع فيه خمس خصال: إذا أحسن استبشر، وإذا أساء استغفر، وإذا أعطي شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا ظُلم غَفَر.

● ست خصال لا يُطيقها إلا من كانت نفسه شريفة: الثباتُ

عند حدوث النعمة الجسيمة، والصبر عند نزول المصيبة العظيمة، وجذب النفس إلى العقل عند دواعي الشهوة، وكتمان السر، والصبر على الجوع، واحتمال الجار.

● أصعب ما على الإنسان ستة أشياء: أن يعرف نفسه، ويعرف عيبه، ويكتم سرَّه، ويهجر هواه، ويخالف شهوته، ويمسك عن القول فيما لا يعنيه.

● قال شريك بن عبد الله: سبع من عجائب الدنيا: عمياء متنقبة، وسوداء مختضبة، وخصيٌّ له امرأة، ومخنَّث يؤمُّ قوماً، وأشعري شيعي، وحنفي مرجىء، وعربي أشقر!

● ثمانية لا تملّ: خبز البر، ولحم الضأن، والماء البارد، والثوب اللين، والفراش الوطيء، والرائحة الطيبة، والنظر إلى كلِّ حسن، ومحادثة الإخوان.

● العشق داء لا يعرض إلا للقلوب الفارغة!

● المنيَّة تضحك من الأمنية!

● أصاب متأنٍّ أو كاد، وأخطأ مستعجل أو كاد.

● الإنسان بالإخوان كالسلطان بالأعوان.

● أقرب ما يكون العبدُ من غضب الله إذا غضب!

● من التعذيب تهذيب الذيب.

● حِلْمُكَ عن السفيه يُكثر أنصارك عليه.

● كلُّ شيء يحتاج إلى العقل، والعقل يحتاج إلى التجارب.

● يوم العدل على الظالم أشدُّ من يوم الجور على المظلوم.

● استغنِ عن الناس يحتاجوا إليك.

- خفِّف طعامك تأمن أسقامك.
- انصح ولا تفضح.
- إذا وجدت حاجتك في السوق فلا تطلبها من أخيك.
- من استغنى بالله افتقر إليه الناس.
- من كان عبداً للحق فهو حر.
- لو كانت الدنيا لقمة في يد الكريم لوضعها في فم ضيفه.
- لولا الشعير ما نهقت الحمير.
- قال بعض الأعراب:

وإنّي لأغضي مقلتيَّ على القذى ... وألبسُ ثوب الصبر أبيض أبلجا
وإنّي لأدعو الله والأمر ضيِّقٌ ... عليَّ فما ينفكُّ أن يتفرَّجا
وكم من فتى ضاقت عليه وجوهه ... أصاب لها في دعوة الله مخرجا

- وقال آخر:

واصِلْ أخاك وإن أتاك بمنكرٍ ... فخلوصُ شيءٍ قلما يتمكَّنُ
ولكلِّ شيءٍ آفةٌ موجودةٌ ... إن السِّراج على سَناهُ يدخنُ

- قال أبو عطاء السندي:

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه ... شكا الفقرَ أو لامَ الصديق فأكثرا
فسِرْ في بلاد الله والتمس الغنى ... تعشْ ذا يسارٍ أو تموتُ فتُعذرا
ولا ترضَ من عيشٍ بدونٍ ولا تنمْ ... وكيف ينامُ الليلَ من كان معسرا

- وقال دعبل الخزاعي:

ما أكثر الناسَ لا بل ما أقلَّهم ... الله يعلمُ أني لم أقلْ فَنَدا
إني لأفتحُ عيني حين أفتحها ... على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا

● قال بعضهم:

لا تـوردنَّ عـلـى الـصـديـق | مـن الـدعـابـة مـا يُـغـمُّـه
واحـذر بـوادر طـيـشـه | يـومـاً إذا مـا غـاب حـلـمـه
فـالـعِـجْـلُ تـنـطـحـهُ عـلـى | إدمـانِ مـصِّ الـضـرعِ أُمُّـه

● وقال المتوكل الليثي:

وكـم مـن لـئيـم وَدَّ أني شتـمتُـه | وإن كان شتمي فيه صابٌ وعلقمُ
ولـلكفُّ عن شتـم اللئيم تكرُّماً | أضرُّ لـه من شتـمه حيـن يُشتـمَ

● ولمنصور الفقيه:

يـا مـن تـولّـى فـأبـدىٰ | لـنـا الـجـفـا وتـبـدَّلْ
ألـيـس مـنـك سـمـعـنـا: | مـن لـم يـمـتْ فـسـيُـعـزل؟

● ولأبي الأسود الدؤلي يخاطب زوجته:

خذي العفو مني تستديمي مودَّتي | ولا تنطقي في سَوْرتي حين أغضبُ
فإني رأيتُ الحبَّ في الصدر والأذى | إذا اجتمعا لم يلبث الحبُّ يذهبُ

● وقال أبو الفتح البستي:

من شاء عيشاً رخيّاً يستفيدُ به | فـي ديـنـه ثـم فـي دنـيـاه إقـبـالا
فـلـيـنـظـرنَّ إلـى مـا فـوقـه أدبـاً | ولـيـنـظـرنَّ إلـى مَـنْ دونـه مـالا

● ولآخر:

إذا مـا أهـان امـرؤٌ نـفـسـه | فـلا أكـرم مـنْ يَـكْـرِمُـه

● ولغيره:

والـعـاقـل الـنـحـريـر مـحـتـاجٌ إلـى | أن يـسـتـعـيـن بـجـاهـلٍ مـعـتـوه!

● وقال آخر:

أتـت الـبـشـارة والـنـعـيُّ مـعـاً يـا قـربَ مـأتـمـنـا مـن الـعـرس!

● ولغيره:

وأنت شريكُ الذئب في أكل شاته وإن وثب الراعي وثبتَ مع الراعي!

● ولغيره:

شكوتُ وما الشكوى لمثلي عادةٌ ولكن تفيضُ العينُ عند امتلائها

● ولآخر:

والـعـمـرُ مـثـل الـكـأسِ يَـرْ سُـبُ فـي أواخـره الـقـذىٰ

● وقال غيره:

ويُعرفُ فضلُ الشمس عند مغيبها والحُرُّ يَصْبِرُ ـ خوف العارِ ـ للنار

كتاب الأصنام(*)

لابن الكلبي

كان الذي دعا أهل مكة إلى عبادة الأوثان، أنه كان لا يرتحل من مكة ظاعنٌ إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلُّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم

(*) ... الأصنام/عن أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي؛ بتحقيق أحمد زكي. ـ القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ٤٠، ١١١ص. ـ (مصور من طبعة دار الكتب، ١٣٤٣هـ).

ويعني الأصنام التي اتخذها العرب آلهة في الجاهلية، فيتحدث عن أول من أدخل هذه الأصنام إلى مكة، ثم انتشارها في جزيرة العرب، وتخصص كل قوم بصنم لهم، وأنواع تقربهم إليها، وقصصهم وأشعارهم في مدحها أو ذمِّها.. ثم ما أكرم الله به هذه الأمة فبعث إليهم رسولاً من أنفسهم، فهدم تلك الأصنام... وانتشر الإسلام.

وذكر المحقق أن هناك آخرين صنفوا في الأصنام، منهم الكاتب أبو الحسن علي بن الحسين بن فضيل بن مروان (وأصله فارسي) له كتاب «الأصنام» وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبارك اسمه.

وللجاحظ كتاب في هذا الموضوع سماه «كتاب الأصنام»، وقد أبدع في كتابه هذا كما يقول الآلوسي.

ثم جاء أبو زيد البلخي الفيلسوف فألف كتاباً في الرد على عبدة الأصنام...

وكتاب ابن الكلبي هذا كان له حظ وافر من عناية العلماء المحققين، حيث تدارسوه وتناقلوه وضبطوا رواياته وعلقوا عليه كثيراً من الحواشي والتفاصيل. =

بالكعبة.. وهم بعدُ يعظِّمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون..

ثم سلخ ذلك بهم أن عبدوا ما استحبُّوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيرَه. فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم..

وكانوا يوحِّدون الله بالتلبية، ويُدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده، فكانت نزار تقول إذا ما أهلَّت: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكٌ هو لك، تملكه وما ملك.

وأنزل الله تعالى على نبيِّه ﷺ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

● كان أول من غيَّر دين إسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان، وسيَّبَ السائبة.. عمرو بن لُحَيّ، وهو أبو خزاعة... فقد مرض مرضاً شديداً، فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حَمَّةً إن أتيتها برأت. فأتاها، فاستحمَّ بها، فبرأ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ قالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة.

● وكان أول من اتخذ تلك الأصنام هذيل بن مدركة.

اتخذوا «سُواعاً» في أرض ينبُع على طريق المدينة.

= والمؤلف راوية معروف، مؤرخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها كأبيه. من أهل الكوفة. وهو على الرغم من تبحره وسعة علمه كان يكذب، ولذلك لم يعتدَّ به المحدثون، وهو بنفسه اعترف ببعض ما كذب به! وهو كثير التصانيف، له أكثر من مائة وخمسين كتاباً! منها: جمهرة الأنساب، نسب الخيل، بيوتات قريش، ملوك كندة، تاريخ أجناد الخلفاء، كتاب الأقاليم، أسواق العرب... ت ٢٠٤هـ.

واتخذت كلب «وَدّاً» بدومة الجندل.

واتخذت مَذْحِج «يغوث».

واتخذت خَيْوان «يعوق» بقرية يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة.

واتخذت حِمْيَر «نَسْراً» فعبدوه بأرض يقال لها بلخع.

وكان لحمير أيضاً بيت بصنعاء يقال له «رِيام» يعظِّمونه ويتقرّبون عنده بالذبائح.

● ولما صنع عمرو بن لُحي ذلك، دانت العرب للأصنام وعبدوها واتخذوها.

فكان أقدمها كلِّها «مناة»، وقد كانت العرب تُسمَّى عبد مناة وزيد مناة. وكان منصوباً على ساحل البحر بين المدينة ومكة. ولم يكن أحدٌ أشدَّ إعظاماً له من الأوس والخزرج. ومناة هذه التي ذكرها الله عز وجل فقال: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾، وكانت لهذيل وخزاعة. وكانت قريش وجميع العرب تعظِّمه، فلم يزل على ذلك حتى خرج رسول الله ﷺ من المدينة سنة ثمان من الهجرة، وهو عامٌ فتح الله عليه، فلما سار من المدينة أربع ليال أو خمس ليال، بعث علياً إليها، فهدمها وأخذ ما كان لها.

● ثم اتخذوا «الّلات». واللات بالطائف، وهي أحدثُ من مناة، وكانت صخرة مربعة. وسدنتها من ثقيف هم بنو عتّاب بن مالك. وكانت قريش وجميع العرب تعظِّمها. فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرَّقها بالنار.

● ثم اتخذوا «العُزَّى». وهي أحدث من اللات ومناة. وعبد العُزَّى بن كعب من أقدم ما سمَّت به العرب. وكان الذي اتخذ

العُزَّى ظالم بن أسعد. وكانت بوادٍ من نخلة الشامية يقال له حُراض، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة. وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويُهدون لها ويتقرَّبون عندها بالذبائح.

● وكان لقريش مَنْحَر ينحرون فيه هداياها يقال له «الغَبْغَب».

● لما مرض أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية مرضه الذي مات فيه، دخل عليه أبو لهب يعوده، فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك يا أبا أحيحة؟ أمن الموت تبكي ولا بدَّ منه؟

قال: لا، ولكني أخاف أن لا تُعْبَد العزَّى بعدي!

قال أبو لهب: والله ما عُبِدَت العُزَّى في حياتك لأجلك، ولا تُترك عبادتُها بعدك لموتك!

فقال أبو أحيحة: الآن علمتُ أن لي خليفةً!

● قال المؤلف: ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يُعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزَّى، ثم اللات، ثم مناة.

● وكانت لقريش أصنامٌ في جوف الكعبة وحولها.

وكان أعظمها عندهم «هُبَل». وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب!

وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يقال له: هُبل خزيمة. وكان في جوف الكعبة قدّامه سبعة أقدح، مكتوبٌ في أولها «صريح»، والآخر «ملصق».. فكانوا يستقسمون بها.

● ولهم «إساف» و «نائلة» لما مُسخا حجرين وُضعا عند الكعبة ليتعظ الناسُ بهما، فلما طال مكثهما وعُبدت الأصنام عُبدا معها.

● ويذكر المؤلف أن العرب كانت تُسمَّى بأسماء فيها «عبد»، قال: لا أدري أعبَّدوها للأصنام أم لا، منها: عبد ياليل، وعبد غَنْم، وعبد كُلال، وعبد رُضَى.

● ولما ظهر رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، دخل المسجد والأصنام منصوبة حول الكعبة، فجعل يطعن بسِية قوسه في عيونها ووجوهها ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾. ثم أمر بها فكُفِئت على وجوهها، ثم أخرجت من المسجد فحُرِّقت. فقال في ذلك راشد بن عبد الله السُّلَمي:

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يأبىٰ الإلٰهُ عليك والإسلامُ

أَوَما رأيتَ محمداً وقبيله ... بالفتح حين تُكَسَّرُ الأصنامُ

لرأيتِ نورَ الله أضحى ساطعاً ... والشركُ يغشىٰ وجْهَهُ الإظلامُ

● وكان لهم أيضاً «مناف»، فبه كانت تسمى قريش «عبد مناف».

● ولم تكن الحُيَّضُ من النساء تدنو من أصنامهم ولا تَمَسَّحُ بها، إنما كانت تقف ناحية منها.

● وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه. فإذا أراد أحدهم السفر، كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسَّح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسَّح به أيضاً!

● وكانت بنو مُليح من خزاعة يعبدون الجنَّ، وفيهم نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾.

● ومن تلك الأصنام «ذو الخَلَصة». وكان مروةً بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكانت بين مكة واليمن، على مسيرة سبع ليال من مكة.

● وكان لمالكٍ ومِلْكان ـ ابني كنانة ـ بساحل جُدَّة وتلك الناحية صنم يقال له «سَعْد». وكان صخرة طويلة. فأقبل رجلٌ منهم بإبل له ليقفها عليه. يتبرَّك بذلك فيها، فلما أدناها منه نفرت منه، فذهبت في كل وجه وتفرَّقت عليه. وأَسِفَ، فتناول حجراً فرماه به وقال: لا بارك الله فيك إلهاً! أَنْفَرْتَ عليَّ إبلي. ثم خرج في طلبها حتى جمعها، وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا ... فشتَّتنا سعْدُ، فلا نحنُ من سعد
وهل سعدٌ إلا صخرةٌ بتنوفةٍ ... من الأرضِ، لا يُدْعىٰ لغيٍّ ولا رُشْد

● ولدوس صنم يقال له «ذو الكفَّينْ». فلما أسلموا بعث النبي ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي، فحرَّقه وهو يقول:

يا ذا الكفَّينْ لستُ من عبادكا ... ميلادُنا أكبرُ من ميلادكا
إني حشوتُ النارَ في فؤادكا

● ولبني الحارث صنم يقال له «ذو الشَّرىٰ».

● وكان لقضاعة ولَخْم وجُذَام وعاملة وغَطفان صنم في مشارف الشام يقال له «الأُقَيْصِر»، فكانوا يحجُّونه ويحلقون رؤوسهم عنده!

● وصنم مُزَيْنة كان يقال له «نَهْم». وبه كانت تسمى «عبد نهم».

● وكان لأزد السَّراه صنم يقال له «عائم».

● ولعَنَزة صنم يقال له «سُعَيْر».

● وكانت للعرب حجارة غير منصوبة، يطوفون بها، يسمُّونها الأنصاب، ويسمون الطواف بها الدَّوَار.

● وصنم «خَوْلان» كان يقال له «عُمْيانُس» بأرض خولان. يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قِسْماً بينه وبين الله عز وجل بزعمهم.

● وكان لبني الحارث بن كعب «كعبة» بنجران يعظِّمونها.

ولإيادٍ كعبة أخرى بسنداد من أرضٍ بين الكوفة والبصرة.

● وروى المصنف عن والده قوله: كان وَدٌّ وسُوَاع ويَغوث ويعوق ونَسْر قوماً صالحين، ماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أنيِّ لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً؟ قالوا: نعم! فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم.

فكان الرجل يأتي أخاه وعمَّه وابن عمِّه، فيعظِّمه ويسعى حوله، حتى ذهب ذلك القرن الأول. ثم جاء قرن آخر، فعظَّموهم أشدَّ من تعظيم القرن الأول. ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا: ما عظَّمَ أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله. فعبدوهم، وعَظُمَ أمرهم، واشتدَّ كفرهم. فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام نبياً فدعاهم فكذبوه.. ولم يزل أمرهم يشتد حتى أدرك نوح عليه السلام، فدعاهم إلى الله فعصوه وكذَّبوه...

فلم تزل هذه الأصنام تُعبد حتى بعث الله النبي محمداً ﷺ، فأمر بهدمها.

الأمالي(*)
لأبي علي القالي

قال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يدعو الله وهو يقول: هربتُ إليك بنفسي يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب أحملها على ظهري، لا

(*) ... الأمالي/تأليف أبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي؛ مراجعة لجنة إحياء التراث العربي بدار الآفاق الجديدة. ـ ط، مصححة ومقابلة على عدة مخطوطات ونسخ معتمدة. ـ بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ، ٢ج في ١ مج. ـ يليه: الذيل والنوادر/للمؤلف. وكتاب (التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه) / لأبي عبيد البكري.

وهو من أمهات كتب الأدب العربي المعدودة، مشهور ومطبوع في أكثر من طبعة. يقول مؤلفه في مقدمة الكتاب: «لما رأيت العلم أنفس بضاعة، أيقنتُ أن طلبه أفضل تجارة، فاغتربتُ للرواية، ولزمتُ العلماء للدراية، ثم أعملتُ نفسي في جمعه، وشغلتُ ذهني بحفظه، حتى حويتُ خطيره، وأحرزتُ رفيعه، ورويتُ جليله، وعرفتُ دقيقه، وعقلتُ شارده، ورويتُ نادره، وعلمتُ غامضه، ووعيت واضحه... فأمللتُ هذا الكتاب من حفظي في الأخمسة بقرطبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة، وأودعتُه فنوناً من الأخبار، وضروباً من الأشعار، وأنواعاً من الأمثال، وغرائب من اللغات، على أني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترتُه، ولا فناً من الخبر إلا انتحلتُه، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدتُه. ثم لم أخله من غريب القرآن وحديث الرسول ﷺ. على أنني أوردت فيه من الإبدال ما لم يورده أحد، وفسَّرتُ فيه من الإتباع ما لم يفسره بشر.. وأسأل الله عصمةً من الزيغ والأشر، وأعوذ به من العُجب والبَطر، =

أجد شافعاً إلا معرفتي بأنك أكرمُ من قَصَدَ إليه المضطرون، وأمَّل فيما لديه الراغبون، يا من فتق العقول بمعرفته، وأطلق الألسنَ بحمده، وجعل ما امتنَّ به من ذلك على خَلْقهِ كِفاءً لتأدية حقِّه؛ لا تجعل للهوى على عقلي سبيلاً، ولا للباطل على عملي دليلاً.

● قال الأصمعي: إذا وضعت الناقة فولدها «سليلٌ» قبل أن يُعلم أذكرٌ هو أم أنثى.

فإذا عُلم: فإن كان ذكراً فهو «سَقْبٌ» وأمه مُسْقِب، وإن كانت أنثى فهي «حائل» وأمها أم حائل.

فإن كان من عادتها أن تضع الإناث فهي مِئْناث، وكذلك مِذْكار إذا كان من عادتها أن تضع الذكور.

فإذا قوي ومشى مع أمه فهو راشح، والأم مُرْشِح.

فإذا حمل في سنامه شحماً فهو مُجدَ ومُكْعِر...

● قال أبو عمرو بن العلاء: رأيت باليمن غلاماً من جَرْم يَنْشُد عنزاً، فقلت: صفها يا غلام.

= وأستهديه السبيل الأرشد، والطريق الأقصد».

والمعروض من الكتاب هنا أصله، دون الذيل والنوادر، ودون تعليق البكري. وكتاب المؤلف إنما هو «النوادر»، في عنوانه الصحيح.

وهو أديب بارع، أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب، نسبتُه إلى «قالي قلا» من قرى منازجرد بأرمينية (على الفرات الشرقي قرب بحيرة وان). - رحل إلى العراق، فتعلم في بغداد وأقام ٢٥ سنة، ثم رحل إلى المغرب فدخل قرطبة واستوطنها، وأحبه الحكم المستنصر ابن الناصر، وكان ينشطه على التأليف بواسع العطاء.

من كتبه الأخرى: البارع (من أوسع كتب اللغة)، المقصور والممدود والمهموز (قالوا إنه لم يؤلف في بابه مثله)، الأمثال (مرتب على حروف المعجم). ت ٣٥٦هـ.

قال: حسراء مُقبلة، شعراء مُدبرة، ما بين غُثْرة الدُّهْسة وقُنوء الدُّبْسة، سَجْحاء الخدَّين، خَطْلاء الأذنين، فَشْقاء الصُّورَيْن، كأن زَنَمَتيها تَتْوا قُلَنسِيَة، يا لها أمَّ عيال، وثِمال مال!

قوله: ينشد: يطلب. حسراء مقبلة: يعني أنها قليلة شعر المقدَّم، قد انحسر شعرها. شعراء مدبرة: يعني أنها كثيرة شعر المؤخَّر. الغُثْرة: غُبْرة كَدِرة. الدُّهسة: لون للرمل. الصَّدْآء من المعز: السوداء المُشْرَبة حمرة. الدَّهساء: أقل منها حمرة. القُنوء: شدة الحمرة. الدُّبسة: حمرة يعلوها سواد. سجحاء الخدين: أي سهلة الخدين حسنتهما. خطلاء: طويلة الأذنين مضطربتهما. فشقاء: منتشرة متباعدة. الصُّوران: القرنان، واحدهما صُور. الزنَمتان: الهُنَيَّتان المتعلقتان ما بين لحيي العنز. التتوان: ذؤابتا القَلَنْسوة. ثمال مال: أصل مال[1].

● تقول العرب: لعلَّك، وعلَّك، ولَعَنَّك، ولَغَنَّك.

● عن العباس بن هشام الكلبي قال: صعد خالد بن عبد الله القَسْري يوماً المنبر بالبصرة ليخطب، فأُرْتِج عليه، فقال: أيها الناس، إن الكلام ليجيىء أحياناً فيتسبَّبُ سببُه، وَيعزُبُ أحياناً فَيَعِزُّ مَطْلَبُه، فربما طُولب فأبى، وكُوبر فعصى، فالتأنّي لمجيِّه أصوب من التعاطي لأبيِّه. ثم نزل. فما رؤى حَصِرٌ أبلغ منه!

● ذمَّ أعرابيٌ رجلاً فقال: تسهرُ والله زوجتُه جوعاً إذا سهرَ شَبِعاً، ثم لا يخاف مع ذلك عاجلَ عار، ولا آجلَ نار، كالبهيمة

(١) وقد أوردت هذا المقطع كمثال من الكتاب، حيث إن الكتاب برُمته يكاد يكون مثل هذا، يأتي المؤلف بخطبة أو فقرة فيها كلمات صعبة، ثم يشرحها ويفسر غريبها، ويعضد لها الشواهد من الشعر وأقوال اللغويين والنحويين. فهو كتاب لغوي بالدرجة الأولى. ولهذا كانت المختارات من هذا الكتاب قليلة بالنسبة لحجمه وشهرته..

أكلت ما جمعت، ونكحت ما وجدت!

قوله: إذا سهر شبعاً، يعني من شدِّة الكِظَّة والامتلاء.

• وسُمِعَ أعرابيٌ من بني مُرَّة يعظ ابناً له وقد أفسد ماله في الشراب فقال: لا الدهرُ يعظك، ولا الأيام تُنْذرك، والساعاتُ تُعَدُّ عليك، والأنفاسُ تُعَدُّ منك، أَحَبُّ أمريك إليك أردُّهما بالمضرَّة عليك.

• ووصَّى رجلٌ آخرَ وأراد سفراً فقال: آثر بعملك معادك، ولا تَدَعْ لشهوتك رشادك، وليكن عقلك وزيرك الذي يدعو إلى الهدى، ويعصمك من الرَّدى. أَلْجِم هواك عن الفواحش، وأطلقه في المكارم، فإنَّك تَبَرُّ بذلك سلفك، وتشيدُ شرفك.

• عن العتبي قال: سئل أعرابي عن امرأة فقال: هي أرقُ من الهواء، وأطيبُ من الماء، وأحسن من النَّعماء، وأبعد من السماء!

• قال الأصمعي: العرب تقول: لا ثناء مع الكِبْر، ولا صديق لذي الحسد، ولا شرف لسيِّء الأدب.

• قام رجل إلى معاوية فقال له: سألتك بالرَّحِم التي بيني وبينك. فقال: أمن قريش أنت؟ قال: لا. قال: أفمن سائر العرب؟ قال: لا. قال: فأيَّةُ رحمٍ بيني وبينك؟ قال: رَحِمَ آدم.

قال: رَحِمٌ مجفوَّةٌ، والله لأكونَنَّ أولَ من وَصَلها. ثم قضى حاجته!

• قال الأخفش: كتب رجل من أهل البصرة إلى أخ له: أما بعد، فإنه يُسَهِّلُ عليَّ طلبَ الحاجة أمران فيك، وأمران لي، وأمر من قبل الله، وبه تمامها.

فأما اللذان فيك: فاجتهادك في النُّجْح، ومبالغتك في الاعتذار.

وأما اللذان لي: فإني لا أضيِّقُ عليك بعذري، ولا أصون عنك شكري.

وأما الذي من قبل الله عز وجل: فإيماني بأن كلَّ مقدورٍ كائن. والسلام.

● قال الأحنف بن قيس:

نزف البكاءُ دموع عينك فاستعرْ عيناً لغيرك دمعُها مدرارُ
من ذا يُعيرك عينَهُ تبكي بها أرأيت عيناً للبكاء تُعارُ؟

● سُمعت أعرابية تقول لرجل: رماك الله بليلةٍ لا أخت لها. أي لا تعيش بعدها!

● قال بعض العرب: .. أدلُّ الأشياء على عقل العاقل حسنُ التدبير.

● وقال رجل منهم: ما رأيت مثل فلان، إن طَلَب حاجةً غَضِبَ قبل أن يُرَدَّ عنها، وإن سُئل حاجةً ردَّ صاحبها قبل أن يَفْهَمها!

● وسُمع أعرابي وهو يقول: من لم يرضَ عن صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سَخَطُه، ومن عاتب على كل ذنبٍ كَثُرَ عدوُّه، ومن لم يؤاخِ من الإخوان إلا مَنْ لا عيب فيه قلَّ صديقه.

● وصفت أعرابية زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها فقالت: يا أُمَّهْ، مَنْ نَشَر ثوبَ الثناء فقد أدّى واجب الجزاء، وفي كتمان الشكر جحودٌ لما وجبَ من الحق ودخولٌ في كفر النِّعم. فقالت لها أمها: أي بُنيَّة، أطبتِ الثناء، وقمتِ بالجزاء، ولم تَدَعي للذمِّ موضعاً؛ إني وجدت مَنْ عَقَلَ لم يَعْجَل بذمٍّ ولا ثناء إلا بعد اختبار. فقالت: يا أُمَّه، ما مدحتُ حتى اختبرتُ، ولا وصفتُ حتى عرفت.

• نصح بعض الحكماء ابناً له، وكان مما قال له: كن يا بنيَّ بصالح الوزراء أغنى منك بكثرة عدَّتهم، فإن اللؤلؤة خفيفٌ مَحْمِلُها كثيرٌ ثمنُها، والحجر فادحٌ حَمْلُه قليلٌ غَنَاؤه.

• كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكثر أهل زمانه وأشدِّهم عارضةً ولساناً. فطال عمره، ونُكب في ماله، واختلَّت حالته. فخرج عشيَّةً يتبقَّل لأهله. فمرَّ به عُميلة الفزاري، فسلَّم عليه وقال: يا عم، ما أصارك إلى ما أرى من حالك؟ فقال: بُخل مثلك بماله، وصوني وجهي عن مسألة الناس. فقال: والله لئن بقيتُ إلى غدٍ لأغيرنَّ ما أرى من حالك!

فرجع أسيد إلى زوجه، فأخبرها بما قال له عُميلة، فقالت له: لقد غرَّك كلامُ غلامٍ جُنْحَ ليلٍ. فكأنما ألقمت فاهُ حجراً!

فبات متململاً بين رجاء ويأس. فلما كان السَّحَر سمع رُغاء الإبل، وثغاء الشاء، وصهيل الخيل، ولَجَب الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا عُميلة ساق إليك ماله!

ثم قسم ماله شطرين، وساهمه عليه. فأنشأ أسيد يقول:

رآني على ما بي عُميلة فاشتكى ... إلى ماله حالي أسرَّ كما جهر
دعاني فآساني ولو ضنَّ لم أَلُمْ ... على حين لا بدوٌ يُرجَّى ولا حَضر
فقلت له خيراً وأثنيتُ فعلَهُ ... وأوفاك ما أبليتُ مَنْ ذَمَّ أو شَكَر
ولما رأى المجدَ استُعيرت ثيابُه ... تردّى رداءَ سابغَ الذَّيل وأتَزَر
غلامٌ رماه الله بالخير مقبلاً ... له سِيمياء لا تَشُقُّ على البصر

• قال الأحنف بن قيس: إن الله جعل أسعد عباده عنده وأرشدهم لديه وأحظاهم يوم القيامة: أبذَلهم للمعروف يداً، وأكثرهم على الإخوان فضلاً. وأحسنهم على ذلك شكراً.

• خرج داود بن سَلْم إلى حربِ بن خالد بن يزيد بن معاوية،

فلما قدم عليه قام غلمانُه إلى متاعه، فأدخلوه وحطّوا عن راحلته، فلما دخل أنشده:

ولـــمّـــا دفــعـــتُ لأبـــوابـــهـــم ولاقـيـتُ حَـرْباً لـقـيـتَ الـنـجـاحـا
وجـدنـاه يـحـمـده الـمُـعْـتَـفـون ويـأبىٰ عـلـى الـعُـسْـر إلا سـمـاحـا
ويُـغْـشَـوْن حـتـى تـرى كـلـبـهـم يـهـابُ الـهـريـرَ ويـنـسىٰ الـنُّـبـاحـا

فأمر بجوائز كثيرة. ثم استأذنه في الانصراف، فأذن له وأعطاه ألف دينار. فلما خرج من عنده وغلمانُه جلوس، لم يقم إليه أحد منهم ولم يُعِنْهُ. فظن أن حرباً ساخط عليه! فرجع إليه وقال: أواجدٌ أنت عليّ؟ قال: لا، ولم ذلك؟ فأخبره خبر الغلمان. قال: ارجع إليهم فسَلْهُم.

فرجع إليهم فسألهم، فقالوا: إننا نُنْزِل الضيف ولا نُرَحِّله!

فلما قدم المدينة، سمع الغاضريُّ بحديثه، فأتاه فقال: إنّي أحب أن أسمع هذا الحديث منك. فحدَّثه، فقال: والله إن فعل الغلمان أحسن من شعرك!

● من أمثال العرب: العبدُ مَنْ لا عبدَ له. أي: من لم يكن له عبد ولا كافٍ، امتَهَنَ نفسَهُ.

● قيل للمهلب بن أبي صفرة: إن فلاناً عينٌ للخوارج في عسكرك، وإنه يتكفَّنُ بالسلاح إذا دُعوا للحرب ليغتالك ويلحق بالخوارج. فبعث إليه، فأُتي به، فقال له: قد تقرَّر عندنا كيدُك لنا، ولم نُقْدِمْ من أمرك على ما عزمنا عليه إلا بعد ما لم يَدَعِ اليقينُ للشكِّ معترضاً، فاختر أيَّ قِتْلَةٍ تحبُّ أن أقتلك!

فقال: سيفٌ مُجْهِز، أو عطفة كريم محتقرٍ للذنوب.

قال: فإنها عطفة كريمٍ محتقر للذنوب.

فخلَّى سبيله، فكان بعد ذلك من أوثق أصحابه عنده!

● قال الأصمعي: رأيت أعرابياً يصلي وهو يقول: أسألك الغفيرة، والناقة الغزيرة، والشرف في العشيرة، فإنها عليك يسيرة.

● قال أبو السمراء: دخلتُ منزل نخّاس في شراء جارية، فسمعت في بيت بإزاء البيت الذي كنت فيه صوت جارية وهي تقول:

وكنا كزوجٍ من قطاً في مفازةٍ لدىٰ خفضِ عيشٍ معجبٍ مونقٍ رغدِ
أصابهما ريبُ الزمان فأُفردا ولم نرَ شيئاً قطُّ أوحش من فَرْدِ

فقلت للنخّاس: اعرِضْ عليَّ هذه الجارية المُنشدة. فقال: إنها شَعِثة مَرْهاء[1] حزينة. فقلت: ولم ذلك؟ قال: اشتريتها من ميراث، فهي باكية على مولاها. ثم لم ألبث أن أنشدت:

وكنا كغصنَيْ بانةٍ وسْطَ روضةٍ نشمُّ جَنَى الروضاتِ في عِيشةٍ رغدِ
فأفردَ هذا الغصنَ من ذاك قاطعٌ فيا فردةً باتت تحنُّ إلى فَرْدِ

قال: فكتبتُ إلى عبد الله بن طاهر أخبره بخبرها، فكتب إلي: أن ألقِ عليها هذا البيت، فإن أجابت فاشترها ولو بخَراج خراسان! والبيت:

بَعيدَ وصلٍ قريبَ صَدٍّ جعلتُه منه لي ملاذا

قال: فألقيتُه عليها فقالت في سرعة:

وعاتبوه فذاب عشقاً ومات وجداً فكان ماذا

قال: فاشتريتها بألف دينار، وحملتُها إليه، فماتت في الطريق

(١) المرهاء: هي التي لا تتعهد عينيها بالكحل.

قبل أن تصل إليه، فكانت إحدى الحسرات إليه.

• ولد للحسن البصري ـ رحمه الله ـ غلام، فهنّأه بعض أصحابه، فقال الحسن: نحمدُ الله على هبتهِ، ونستزيده من نعمته، ولا مرحباً بمن إن كنتُ غنياً أذهلني، وإن كنتُ فقيراً أتعبني، لا أرضى له بسعيي سعياً، ولا بكدِّي له في الحياة كدّاً، أشفقُ عليه من الفاقة بعد وفاتي وأنا في حالٍ لا يصلُ إليَّ من همِّه حزنٌ ولا من فرحه سرور.

• قال عبد الملك بن مروان: يا بني أمية، ابذلوا نَداكم، وكفُّوا أذاكم، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سُئلتم، فإن خير المال ما أفاد حمداً أو نفىٰ ذمّاً. ولا يقولنَّ أحدكم ابدأ بمن تعول، فإنما الناسُ عيال الله، فقد تكفَّل الله بأرزاقهم، فمن وسَّع أخلف الله عليه، ومن ضيقَّ ضيَّق الله عليه.

• قال الأصمعي: بلغني أن وافداً وفد على عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فقال له: كيف تركت الناس؟ قال: تركتُ غنيَّهم موفوراً وفقيرهم محبوراً، وظالمهم مقهوراً ومظلومهم منصوراً.

فقال: الحمد لله، لو لم تتمَّ واحدة من هذه الخصال إلا بعضوٍ من أعضائي لكان يسيراً.

• كان قُسُّ بن ساعدة يفدُ على قيصر ويزوره، فقال له قيصر يوماً: ما أفضلُ العقل؟ قال: معرفة المرء بنفسه. قال: فما أفضل العلم! قال: وقوف المرء عند علمه. قال: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاءُ الرجل ماءَ وجهه. قال: فما أفضل المال؟ قال: ما قُضي به الحقوق.

• كتب عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ إلى رجل: اتَّق الدنيا فإنَّ مَسَّها ليِّنٌ، وارفض نعيمها لقلَّةِ ما يتبعك منه، واترك ما يعجبك منها لسرعة مفارقتها.

● مدح أعرابي رجلاً فقال: كان والله ساعياً في طلب المكارم، غير ضالٍّ في معارج طرقها، ولا متشاغل بغيرها عنها.

● قال الأصمعي: بلغني أن بعض الحكماء كان يقول: إني لأعظكم وإني لكثير الذنوب، مسرفٌ على نفسي، غيرُ ما حامدٍ لها ولا حاملها على المكروه في طاعة الله عز وجل، قد بلوتُها فلم أجد لها شكراً في الرخاء، ولا صبراً على البلاء. ولو أن المرء لا يعظُ أخاه حتى يُحكم أمرَ نفسه لتُرك الأمرُ بالخير والنهيُ عن المنكر، ولكن محادثة الإخوان حياةٌ للقلوب وجِلاء للنفوس وتذكير من النسيان. واعلموا أن الدنيا سرورها أحزان، وإقبالها إدبار، وآخر حياتها الموت، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومنتظرٍ غداً لا يَبْلُغه، ولو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمَل وغروره.

● سمع رجل أعرابياً يدعو لرجل فقال: جنَّبك الله الأمرَّين، وكفاك شرَّ الأجوفين، وأذاقك البَرْدين.

الأمرَّان: الفقر والعري، والأجوفان: البطن والفرج، والبَرْدان: برد العين وبرد العافية.

● كان زياد بن أبيه إذا ولَّى رجلاً عملاً قال له: خذ عهدك وسِرْ إلى عملك، واعلم أنك مصروف رأسَ سنتك، وأنك تصير إلى أربعِ خلالٍ، فاختر لنفسك:

إنّا إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك، وسلَّمَتْكَ من معرَّتنا أمانتُك.

وإن وجدناك قوياً خائناً استهنَّا بقوَّتك، وأحسنَّا على خيانتك أدبَك، وأوجعنا ظهرك وثقَّلنا غُرْمك.

وإن جمعتَ علينا الجُرْمين جمعنا عليك المضرَّتين.

وإن وجدناك أميناً قوياً زدنا في عملك، ورفعنا ذكرك وكثَّرنا مالك، وأوطأنا عَقِبك.

● كان هناك غلام محمَّق، فقال لأمه يوماً: يوشك أن تريني عظيم الشأن! فقالت: فكيف؟ والله ما بين لابتيها أحمقُ منك! فقال: والله ما رجوتُ هذا الأمر إلا من حيث يئستِ منه، أما علمتِ أن هذا زمانُ الحمقى وأنا أحدهم؟

● مات أخ لذي رعين ـ أحد ملوك اليمن ـ فعزَّاه بعض أهل اليمن فقال: إن الخَلْقَ للخالق، والشكرَ للمنعم، والتسليمَ للقادر، ولا بدَّ مما هو كائن، وقد حلَّ ما لا يُدْفَع، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات، وقد أقام معك ما سيذهب عنك وستتركه، فما الجزعُ مما لا بدَّ منه، وما الطمع فيما لا يُرجى، وما الحيلة فيما سيُنقل عنك أو تُنقل عنه، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد الأصل؟ فأفضل الأشياء عند المصائب الصبر.. واعلم أنما ابتلاك المُنعم وأخذ منك المُعطي، وما ترك أكثرُ، فإن نسيت الصبرَ فلا تَغْفُل عن الشكر.

● عُزل بعض الأمراء عن عمله، فقال له رجل: أصبحتَ والله فاضحاً متعباً: أمّا فاضحاً فلكل والٍ قبلك بُحسن سيرتك، وأمّا متعباً فلكلِّ والٍ بعدك أن يلحقك.

● كتب الحسن بن سهل لرجلٍ كتاب شفاعة، فجعل الرجل يشكر ويدعو له، فقال الحسن: يا هذا، علامَ تشكرنا؟ إنا نرى الشفاعاتِ زكاة مروءتنا.

وأملىٰ كتاب شفاعة فكتب في آخره: إنه بلغني أن الرجل يُسأل عن فضل جاهه يوم القيامة، كما يُسأل عن فضل ماله.

● كان رجل من أهل الشام مع الحجاج يحضر طعامه، فكتب

إلى امرأته يعلمها بذلك، فكتبت إليه:

أيُهدىٰ ليَ القرطاسُ والخبزُ حاجتي وأنت على باب الأمير بطينُ
إذا غبتَ لم تذكر صديقاً ولم تُقِمْ فأنتَ على ما في يديك ضنين
فأنت كلب السوء جوَّعَ أهلَهُ فيُهَزَلُ أهل البيتِ وهو سمينُ

● كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: مروءة الرجل عقلُه، وشرفُه حالُه.

● سُمع أعرابيٌ وهو يقول: فَوْتُ الحاجة خيرُ من طلبها من غير أهلها.

وسمع آخر يقول: عِزُّ النزاهة أشرف من سرور الفائدة.

● قال الأصمعي: مرَّ أعرابي بأعرابية تبكي زوجَها، فقال: ما يبكيكِ؟ لا جمعَ الله بينك وبينه في الجنة!

ثم مرَّ بها بعد ذلك فقال: يا فلانة، هنِّئيني فإني قد تزوجت! فقالت: نعم، بالبيت المهدوم، والطائر المشؤوم، والرَّحِم المعقوم!

● قال جرير الشاعر: دخلت على بعض خلفاء بني أمية فقال: ألا تحدثني عن الشعراء؟ فقلت: بلى. قال: فمن أشعر الناس؟ قلت: ابن العشرين ـ يعني طَرَفة ـ قال: فما تقول في ابن أبي سُلمىٰ والنابغة؟ قلت: كانا ينيران الشعر ويُسْدِيانه. قال: فما تقول في امرىء القيس بن حُجْر؟ قلت: اتخذ الخبيثُ الشعرَ نعلين يطؤهما كيف شاء! قال: فما تقول في ذي الرمة؟ قلت: قَدَرَ من الشعر على ما لم يقدر عليه أحد! قال: فما تقول في الأخطل؟ قلت: ما باح بما في صدره من الشعر حتى مات! قال: فما تقول في الفرزدق؟ قلت: بيده نَبْعة الشعر قابضاً عليها. قال: فما أبقيت لنفسك شيئاً! قلت: بلى، والله يا أمير المؤمنين أنا مدينة الشعر التي يخرج منها ويعود إليها، ولأنا سبَّحتُ الشعرَ تسبيحاً ما سبَّحه أحد قبلي.

قال: وما التسبيح؟ قلت: نَسَبْتُ فأطربتُ، وهجوت فأسقطتُ، ومدحتُ فأسنيتُ، ورملتُ فأغزرتُ، ورجزتُ فأبحرتُ، فأنا قلت ضروباً من الشعر لم يقلها أحد قبلي.

● قال الإمام الحسن البصري لابنه: يا بني، إذا جالستَ العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلَّمْ حُسْنَ الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يُمسك.

● حدَّث أبو بكر بن الأنباري عن أبيه، عن أشياخه قال: كل ما في العرب عُدَس بفتح الدال، إلا عُدُس بن زيد فإنه بضمها. وكل ما في العرب سَدُوس بفتح السين إلا سُدُوس بن أَصْمَع في طي، وكل ما في العرب مِلْكان بكسر الميم إلا مَلْكان بن حزم بن زبّان فإنه بفتحها، وكل ما في العرب أَسْلَم بفتح الهمزة واللام إلا أَسْلُم بن الحاف من قُضاعة.

● قال العتبي: سمعتُ أعرابياً يذمُّ مدينةً دخلها وهو يقول: نزلتُ بذلك الوادي، فإذا ثيابُ أحرارٍ على أجساد عبيد، إقبالُ حظِّهم إدبارُ حظِّ الكرام!

● وعن ابن الأعرابي قال: قيل لامرأة من العرب: أي الإبل أكرم؟ قالت: السريعة الدِّرَّة، الصبورُ تحت القِرَّة، التي يكرمها أهلها إكرامَ الفتاة الحُرَّة.

وقالت الأخرى: نعمتِ الناقة هذه، وغيرُها أكرم منها. قيل: وما هي؟ قالت: الهَموم الرَّموم، القَطوع للديموم، التي ترعى وتسوم.

أي لا يمنعها مَرُّها وسرعتها أن تأخذ الرعي. والرَّموم: التي لا تُبقى شيئاً. والهَموم: الغزيرة.

● سأل عبد الرحمن بن حسان رجلاً حاجة فقصَّر فيها، فسألها

غيرَه فقضاها، فكتب عبد الرحمن إلى الأول:

ذُمِمْتَ ولم تُحْمَد وأدركتُ حاجتي ... تولّى سواكم شكرَها واصطناعَها
أبىٰ لك فعلَ الخير رأيٌ مقصِّرٌ ... ونفسٌ أضاق الله بالخير باعها
إذا هي حثَّته على الخير مرةً ... عصاها وإن همَّتْ بسوءٍ أطاعها

● قال ابن الأعرابي: الوِرْث في الميراث، والإرْثُ في الحسب.

وقال: إذا نمت من أول الليل نومةً ثم قمت فتلك الناشئة.

● قال معاوية لعِقال: بم سادكم الأحنف وهو خارجي؟

فقال: إن شئتَ حدثتك عنه بخصلة، وإن شئت باثنتين، وإن شئت بثلاث، وإن شئت حدثتك إلى الليل!

فقال: حدثني عنه بثلاث خصال.

قال: لم أر أحداً من خلق الله كان أغلب لنفسه من الأحنف! قال: نِعم والله الخصلة! قال: ولم أر أحداً من خلق الله أكرم لجليس من الأحنف. قال: نِعم والله الخصلة! قال: ولم أر أحداً من خلق الله كان أحظى من الأحنف، قال: كان يفعلُ الرجلُ الشيءَ فتصير حظوتُه للأحنف!

● قال الأصمعي: خاصمتْ بنتُ حَلْوَى امرأةً فقالت: ألا تقومين؟ أقام الله ناعيك، وأشمت الله ربُّ العرش عاديك.

● العرب تستحبُّ سعةَ المَنْخَر في الفرس، لأنه إذا اتَّسع منخرُه لم يحبس الربوَ في جوفه.

● ولَّى معاوية رَوْحَ بن زِنْباع، فعتب عليه في جناية، فكتب إليه بالقدوم، فلما قدم أمر بضربه بالسياط، فلما أُقيم ليُضرب قال: نشدتُك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم مني ركناً أنت بنيته، أو أن تضع

مني خسيسةً أنت رفعتها، أو تُشمت بي عدواً أنت قهرته، وأسألك بالله إلا أتىٰ حلمُك وعفوك دون إفساد صنائعك.

فقال معاوية: إذا الله سنَّىٰ عقدَ أمرٍ تيسَّر، خلُّوا سبيله!

● اجتمع عامر وحُمَمة عند ملك من ملوك حمير فقال: تساءلا حتى أسمع ما تقولان.

فقال عامر لحممة: من أحقُ الناس بالمقت؟

قال: الفقير المختال، والضعيف الصوَّال، والعييُّ القوَّال.

قال: فمن أجدر الناس بالصنيعة؟

قال: من إذا أُعطي شكر، وإذا مُنع عَذَر، وإذا موطل صَبر، وإذا قَدُمَ العهدُ ذَكَر.

قال: من أكرم الناس عشرةً؟

قال: من إنْ قَرُب مَنَح، وإن بَعُدَ مَدَح، وإن ظُلِم صَفح، وإن ضويق سمح.

قال: من أنعم الناس عيشاً؟

قال: من تحلَّى بالعفاف، ورضي بالكفاف، وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف.

قال: فمن أحكم الناس؟

قال: من صمت فادّكر، ونظر فاعتبر، ووُعظ فازدجر.

● قال أعرابي لابن عمه: اطلب لي امرأة بيضاء حديدة، فرعاء جعدة، تقوم فلا يصيبُ قميصُها منها إلا مُشاشة منكبها، وحَلَمتي ثدييها، ورانفتي أليتَيْها، ورضاف ركبتيها، إذا استلقتْ فرميتَ من تحتها بالأُترجَّة العظيمة نفذتْ من الجانب الآخر، وأنَّى بمثل هذه إلا في الجنان.

● قال ابن الأعرابي: بلغني أن جماعة من الأنصار وقفوا على دَغْفَل النسَّابة بعدما كُفَّ، فسلموا عليه، فقال: منِ القوم؟ قالوا: سادة اليمن. فقال: أمن أهلِ مجدها القديم وشرفها العميم كندة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم الطِّوال قَصَباً، الممحَّصون نسباً، بنو عبد المدان. قالوا: لا. قال: فأنتم أقودها للزحوف، وأخرقها للصفوف، وأضربها بالسيوف، رهطُ عمرو بن معديكرب؟ قالوا: لا قال: فأنتم أحضرها قَراءً (للضيف)، وأطيبُها فِناءً، وأشدُّها لقاءً، رهط حاتم بن عبد الله؟ قالوا: لا. قال: فأنتم الغارسون للنخل، والمطعمون في المَحْل، والقائلون بالعدل؛ الأنصار؟ قالوا: نعم.

● عن العتبي قال: كان آخر خطبة خطبها معاوية رضي الله عنه أن صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قبض على لحيته وقال: أيها الناس، إني من زرعٍ من استحصد، وقد طالت عليكم إمرتي حتى مَلِلْتُكم ومللتموني، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي، وإنه لا يأتيكم بعدي إلا من هو شرٌّ مني، كما لم يأتكم قبلي إلا من كان خيراً مني، وإنه من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه. اللهم إني قد أحببتُ لقاءك فأحبب لقائي.

ثم نزل، فما صعد المنبر حتى مات!

● عن الأصمعي قال: شهدتُ أعرابياً عشية عرفة بالموقف فسمعته يقول: اللهم إن هذه العشية من عشايا مِنْحتَك، وأحدِ أيام زُلْفَتك، فبها يُقَضُّ إليك بالهمم، بكل لسانٍ تُدعى، وكلَّ خيرِك فيها يُبغى، أتتك الضوامر من الفج العميق، وجابت إليك المهارق من شُعب المضيق، ترجو ما لا خلف له من وعدك، ولا مُتَّرك له من عظيم أجرك، أبرزتْ إليك وجوهَها المصونة صابرة على لفح السمائم، وبردِ ليلِ التمائم، ليدركوا بذلك رضوانك.

ثم انتحب وبكى ورفع يديه وطرفه إلى السماء، ثم أنشأ يقول:

إلهي، إن كنتُ مددتُ يدي إليك داعياً، فطالما كفيتني ساهياً، نعمتُك تُظاهِرُها عليَّ عند القفلة (أي الابتداء في السفر)، فكيف أيأسُ منها عند الرجعة؛ ولا أترك رجاءك لما قدَّمتُ من اقتراف آثامك، وإن كنتُ لا أصلُ إليك إلا بك، فهبْ لي يا ربِّ الصلاحَ في الولد، والأمن في البلد، وعافني من شرِّ الحسد.

البخلاء(*)

للجاحظ

قال معاوية رضي الله عنه: لم أرَ تبذيراً قطُّ إلا وإلى جانبه حقٌّ مُضَيَّع.

(*) . . . البخلاء/للجاحظ. ـ ط٢، منقحة. ـ بيروت: دار اليقظة العربية، ١٣٨٣هـ، ٥٤٩ص.

والكتاب غني عن التعريف، وكذلك صاحبه. كما كنت غنياً عن إيراده في هذه السلسلة، نظراً لشهرته وتوافره، ولأن فيه تجريحاً لأناس عديدين، وذكرُ أخبارهم بهذا الأسلوب الساخر فيه أذى لهم، وقد أُمرنا بذكر محاسن موتانا، ونُهينا عن الغيبة والتهكم والسخرية. . وهذا الكتاب ينافي الأدب الإسلامي وتنظيره، وإنما أحاول في هذه السلسلة أن أقدم ما لا ينافي الذوق الإسلامي وتربيته الإيمانية، لكن الذي دعاني إلى إيراده ـ وأخرى قليلة مشابهة له ـ أنه يعد من أندر الكتب في التاريخ الإسلامي، وعدم ذكره إجحاف بحق هذه السلسلة، وحاولت أن أتغلب على ما فيه من تجريح وتهكم بعدم ذكر أسمائهم، ممن عُرف عنه البخل. . وقد أدرك الجاحظ نفسه هذا الأمر، واعتذر لهم وللقارىء مرتين لإيراده هذه الأخبار، لكنه رأى أنه «لا يتوفر أبداً حسنها إلا بأن يُعرف أهلها، وحتى تتصل بمستحقها وبمعادنها واللائقين بها، وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوطُ نصف الملحة، وذهاب شطر النادرة». وقال في آخر مقدمته: «وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها، إما بالخوف منهم، وإما بالإكرام لهم، ولولا أنك سألتني هذا الكتاب لما تكلفتُه، ولما وضعتُ كلامي موضع الضيم والنقمة، فإن كانت لائمة أو عجزٌ فعليك، وإن كان عذرٌ فلي دونك». =

● قال الحصين بن المنذر: وددتُ أن لي مثل أُحدٍ ذهباً لا أنتفع منه بشيء!

قيل: فما ينفعك من ذلك؟

قال: لكثرة من يخدمني عليه، لأن المال مخدوم..

● قال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: إني لأبغض أهلَ البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم الواحد!

● قال أحدهم لابنه: إذا بسط الله لك في الرزق فابسُط، وإذا قبض فاقبض، ولا تجاود الله فإن الله أجودُ منك.

● قال بعضهم: كنت في منزل فلان، فرآني أتوضأ من كوز خزف، فقال: سبحان الله! تتوضأ بالماء العذب والبئر أمامك؟ قال: ليس بالعذب، إنما هو من ماء البئر. فقال: فتفسد علينا كوزنا بالملوحة! قال: فلم أدرِ كيف أتخلص منه!

● سمع رجلٌ الإمام الحسن البصري وهو يحثُّ الناس على المعروف، ويأمر بالصدقة، ويقول: ما نقص مالٌ قط من زكاة. ويَعِدُهم سرعة الخلف. فتصدَّق بماله كلِّه، فافتقر!

فانتظر سنة وسنة، فلما لم يرَ شيئاً بكّر على الحسن فقال: يا حسن ما صنعتَ بي؟ ضمنتَ لي الخلف، فأنفقتُ على عِدَتك، وأنا اليومَ مذ كذا وكذا سنة أنتظرُ ما وعدتَ...!

والخلف يكونُ معجَّلاً ومؤجَّلاً.

ومن تصدَّق وتشرَّط الشروط استحقَّ الحرمان.

= قال: ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيُّنُ حُجَةٍ طريفة، أو تعرُّفُ حيلةٍ لطيفة، أو استفادةُ نادرة عجيبة. وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجد.

ولو كان هذا على ما توهَّمه ذلك الرجل لكانت المحنة فيه ساقطة، ولترك الناسُ التجارة، ولما بقي فقير، ولذهبت العبادة.

● وأما ليلى الناعطية، صاحبة الغالية من الشيعة، فإنها ما زالت ترقع قميصاً لها وتلبسه، حتى صار القميصُ الرِّقاعَ، وذهب القميصُ الأول!

ورفت كساءها ولبسته حتى صارت لا تلبس إلا الرَّفو، وذهب جميع الكساء!

وسمعتْ قول الشاعر:

إلبسْ قميصك ما اهتديتَ لجيبهِ   فإذا أضلَّك جيبُه فاستبدلِ

فقالت: إني إذا لخرقاءُ! أنا والله أحُوصُ الفتقَ وفتقَ الفتقِ، وأرقعُ الخرقَ وخُرق الخرق!

● قال رجل: أكلنا عند بخيل يوماً، وبُنَيٌّ له يجيء ويذهب، فاختلفَ مراراً، كلَّ ذلك يرانا نأكل، فقال الصبي: كم تأكلون؟ لا أطعم الله بطونكم!

فقال أبوه: ابني وربِّ الكعبة!

● قال: ودخلتُ على فلان بن فلان، وإذا المائدة موضوعةٌ بعدُ، وإذا القومُ قد أكلوا ورفعوا أيديهم، فمددتُ يدي لآكل فقال: أجهز على الجرحى ولا تعرِضْ للأصحاء! يقول: اعرض للدجاجة التي قد نيل منها، وللفرخ المنزوع الفخذ، فأما الصحيح فلا تعرض له! وكذلك الرغيفُ الذي قد نيلَ منه، وأصابه بعضُ المرق!

● من أفانين الشحاذين:

ـ الكاغاني: وهو الذي يتجنَّن ويتصارع ويُزبد، حتى لا يُشَكَّ أنه مجنون لا دواء له، لشدَّةِ ما يُنزل بنفسه، وحتى يُتَعَجَّبُ من بقاء مثله على مثل علَّته!

ـ العوَّاء: وهو الذي يسأل بين المغرب والعشاء، وربما طرَّب إن كان له صوتٌ حسنٌ وحلق شجي.

ـ الإسطيل: هو المتعامي، إن شاء أراك أنه منخسف العينين، وإن شاء أراك أن بهما ماءً، وإن شاءَ أراك أنه لا يُبصر..

ـ المقدِّس: الذي يقف على الميت يسأل في كفنه، ويقف في طريق مكة على الحمار الميت، والبعير الميت، يدَّعي أنه كان له، ويزعم أنه قد أُحصر، وقد تعلم لغة الخراسانية واليمانية والأفريقية، وتعرَّف تلك المدن والسكك والرجال، وهو متى شاء كان أفريقياً، ومتى شاء كان من أهل فرغانة، ومتى شاء كان من أيِّ مخاليف المين!

• قيل لبخيل: قد رضيتَ بأن يقال إنك بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم! قيل: وكيف؟ قال: لأنه لا يُقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال، فسلِّم إلي المال وادْعُني بأي اسم شئت.

قيل: ولا يُقال أيضاً فلان سخي إلا وهو ذو مال. فقد جمع هذا الاسمُ الحمدَ والمال، واسم البُخل يجمع المال والذم، فقد اخترت أخسَّهما وأوضعهما! قال: وبينهما فرق! قيل: فهاته!

قال: في قولهم بخيل تثبيتٌ لإقامة المال في ملكه، واسم البخيل اسمٌ فيه حفظ وذم، واسم السخى اسم فيه تضييع وحمد، والمال زاهر نافع...!

• أكل بخيل مع أمير، وعندما خاف فوات ما بقي استلب من يد الأمير اللقمة بأسرع من خطفة البازي، من غير أن يكون أكل عنده قبل مرَّته! فقيل له: ويحك! استلبت لقمة الأمير من يده وقد رفعها إليه، من غير مؤانسة ولا ممازحة سالفة؟!

قال: لم يكن الأمر كذلك، ولكنّا أهوينا أيدينا معاً، فوقعت يدي في مقدَّم الشَّحمة، ووقعت يده في مؤخَّر الشَّحمة معاً. والشحم

ملتبس بالأمعاء، فلما رفعنا أيدينا معاً، كنتُ أنا أسرع حركة، وكانت الأمعاء متصلة غير متباينة، فتحوَّل كلُّ شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي، لاتصال الجنس بالجنس، والجوهر بالجوهر!

● قال يوسف بن عمر - ابن عم الحجاج - لقُوَّام موائده: أعظموا الثريدة فإنها لقمة الدرداء، فقد يحضر طعامكم الشيخُ الذي قد ذهب فمه، والصبيُّ الذي لم ينبت فمه، وأطعموه ما تعرفون، فإنه أنجع وأشفى للقوم.

● من مصطلحات الأكّالين:

- النشّال: الذي يتناول من القِدْر ويأكل قبل النُّضج، وقبل أن تنزل القدر ويتتامَّ القوم.

- المرسال: إذاوضع في فمه لقمة هريسة أو ثريدة أو أرزَّة، أرسلها في جوف حلقه إرسالاً.

- اللكَّام: الذي في فيه اللقمة، ثم يكلُمها بأخرى قبل إجادة مضغها أو ابتلاعها.

- النفّاض: الذي إذا فرغ من غسل يده في الطست نفض يديه على الماء، فنضح على أصحابه.

- المحلقم: الذي يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه.

- المسوِّغ: الذي يُعظم اللُّقم، فلا يزال في غَصٍّ، ولا يزال يسيغه بالماء.

- القطّاع: الذي يعضُّ على اللقمة فيقطع نصفها، ثم يغمس النصفَ الآخر في الصِّباغ.

- النهّاش: وهو الذي ينهش اللحمَ كما ينهش السبعُ.

- المدّاد: الذي ربما عضَّ على العصبة التي لم تنضج وهو

يمدُّها بفيه، ويده توتِّرها له، فربما قطعها بنتره، فيكون لها انتضاخٌ على ثوب المؤاكل.

ـ الدفّاع: الذي إذا وقع في القصعة عظمٌ، فصار مما يليه، نحّاة بلقمة من الخبز حتى تصير مكانه قطعة من لحم، وهو في ذلك كأنه يطلب بلقمته تشريب المرق دون طلب اللحم!

ـ المحوِّل: هو الذي إذا رأى كثرةَ النوى بين يديه، احتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه.

● اعتذر بخيل عن إطعام الناس لما رأى رجلاً يأكل عجباً، وقال: ما ظنكم برجلٍ نهش بضعة لحم تعرُّقاً فبلع ضرسه وهو لا يعلم! وكان إذا أكل ذهب عقله، وجحظت عيناه، وسكر وانبهر، وتربَّد وجهه ولم يُبصر!

● قال بعضهم: كلوا الباقلَّى بقشوره، فإن الباقلَّى يقول: من أكلني بقشوري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله، فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم، وأكلاً لما جُعل أكلاً لكم؟

● قال الخليل بن أحمد: حُمَّ فلان وحُمَّ عيالُه وخادمه، فلم يقدروا مع شدَّة الحُمَّى على أكل الخبز، فربح كيلةً من الدقيق تلك الأيام، ففرح بذلك وقال: لو كان منزلي سوق الأهواز، أو وادي الجحفة، أو نطاة خيبر ـ أماكن تكثر فيها الحمى ـ لرجوتُ أن استفضل كل سنة مائة دينار. فكان لا يبالي أن يُحَمَّ هو وأهله أبداً، بعد أن يستفضل كفايتهم من الدقيق!

● نصح بخيل ابنه فقال: أي بني! إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير، والعشرات تفتح عليك أبواب المئين، والمئونَ تفتح عليك أبواب الألوف، حتى يأتي ذلك

على الفرع والأصل، ويطمس على العين والأثر، ويحتمل القليل والكثير!

● وجلس الابن على المائدة ليأكل، فقال له والده البخيل: إياك ونهَم الصبيان، ودع عنك نهشَ الأعراب، وكُلْ ما بين يديك، فإنما حظُّك الذي وقع لك وصار أقرب إليك. واعلم أنه إذا كان في الطعام شيءٌ طريف، ولقمة كريمة، ومضغة شهية، فإنما ذلك للشيخ المعظَّم، والصبيِّ المدلَّل، ولستَ واحداً منهما. فأنت قد تأتي الدعوات، وتجيب الولائم، وتدخل منازل الإخوان، وعهدُك باللحم قريب، وإخواتك أشد شهوة إلى اللحم منك، وإنما هو رأسٌ واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتُصيب بعضاً. وأنا بعدُ أكثره لك الموالاة بين اللحم...!

● ورأى شيخٌ رجلاً يأكل اللحم فقال: لحمٌ يأكل لحماً! أفٍّ لهذا عملاً!

● وقال بخيلٌ معرِّضاً بفائدة البخل:.. لأمرٍ طالت أعمارُ الهند، وصحَّت أبدان الأعراب..

وقال: لِمَ صار الضبُّ أطول شيءٍ عمراً، إلا لأنه إنما يعيش بالنسيم!

وقال ينصح ابنه: قد بلغتُ تسعين عاماً ما نقصَ لي سن، ولا تحرَّك لي عظم، ولا انتشر لي عَصب، ولا عرفتُ دنين أذن، ولا وكف أنف، ولا سيلان عين، ولا سلس بول، وما لذلك علةٌ إلا التخفيف من الزاد، فإن كنتَ تحبُّ الحياة فهذه سبيلُ الحياة، وإن كنت تحبُّ الموت فلا يُبعِد الله إلا مَنْ ظلم!

● وكان فلان أعجوبة في البخل! وكان يجيء من منزله ومعه رغيف في كمِّه. فكان أكثر دهره يأكله بلا أدم، فإذا أعيا عليه الأمر أخذ جوَّافة ـ ضربٌ من السمك غير جيد ـ فإذا أراد أن يتغدَّى أخذها

فمسحها على وجه الرغيف، ثم عضَّ عليه. وربما فتح بطن الجوافة فيطرُّ جنبيها وبطنها باللقمة بعد اللقمة..!

● وكان أبو فلان يقول: ما فاتني اللحم منذ ملكتُ المال. وكان إذا كان يوم الجمعة اشترى لحم بقر بدرهم، واشترى بصلاً بدانق، وباذنجاناً، بدانق، وقرعة، بدانق، فإذا كان أيام الجزر فجزراً بدانق، وطبخه كله، فأكل وعياله يومئذ خبزَهم بشيء من رأس القدر، وما ينقطع في القدر من البصل والباذنجان والجزر والقرع والشحم واللحم. فإذا كان يوم السبت ثرَّدوا خبزهم في المرق، فإذا كان يوم الأحد أكلوا البصل، فإذا كان يوم الاثنين أكلوا الجزر، فإذا كان يوم الثلاثاء أكلوا القرع، فإذا كان يوم الأربعاء أكلوا الباذنجان، فإذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم. فلهذا كان يقول: ما فاتني اللحم منذ ملكت المال!

● عوتب بخيل في قلة الضحك وشدة القطوب فقال: إن الذي يمنعني من الضحك أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل إذا ضحك وطابت نفسُه!

● قال أبو الحسن المدائني: كان بالمدائن تمار، وكان غلامه إذا دخل الحانوت يحتال، فربما احتبس فاتهمه بأكل التمر. فسأله يوماً فأنكر، فدعا بقطنة بيضاء ثم قال: امضغها. فمضغها، فلما أخرجها وجد فيها حلاوة وصفرة، فقال له: هذا دأبك كل يوم وأنا لا أعلم؟ اخرج من داري!

● زعموا أن رجلاً بلغ في البخل غايته، وصار إِماماً، وأنه كان إِذا صار في يَدِه الدرْهم، خاطبه وناجاه وفدَّاه، وكان ممّا يقول له: «كم من أرض قد قطعت، وكم من كيس قد فارقت، وكم من خامِل رفعت، ومن رفيع قد أخملت. لك عندي أن لا تَعْرىٰ ولا تَضْحى». ثم يُلقيه في كيسه ويقول: «اسكن على اسم الله في مكان لا تُهان ولا تَذِلَّ ولا تزعج منه».

وإنَّه لم يُدْخِلْ فيه درهماً قطّ فأخرجه!

وأن أهلَه ألحُّوا عليه في شَهْوة، وأكثروا عليه في إنفاق درهم، فدافعَهم ما أمكنَ ذلك. ثمَّ حمل درهماً فقط... فكان أهله منه في بلاء، وكانوا يتمنون موته، والخلاصَ منه بالموت، والحياة بدونه.

فلمَّا مات، وظنّوا أنهم قد استراحوا منه، قَدِم ابنُه فاستَوْلىٰ على ماله وداره، ثم قال: «ما كان أُدْم أبي؟ فإنَّ أكثرَ الفساد إنما يكون في الإدام». قالوا: «كان يتأدَّم بجُبنة عنده». قال: «أَرونيها». فإذا فيها حَزٌّ كالجدول، من أثر مَسْح اللقمة. قال: «ما هذه الحفرة»؟ قالوا: «كان لا يقطَع الجبن، وإنما كان يمسَحُ على ظهره، فيحفُر كما ترى». قال: «بهذا أهلكني، وبهذا أقعَدني هذا المقعَد، لو علمتُ ذلك ما صليت عليه». قالوا: «فأنت كيف تريد أن تصنع؟» قال: «أضعُها من بعيد، فأشير عليها باللقمة».

● كان لبخيل مال لا يحصى. أتاه سائل فانتهره، ثم وقف عليه آخر فانتهره بغيظ وحنق، فأقبل عليه صاحبه وقال له: ما أبغض إليك السؤال! قال: أجل! عامةُ مَنْ ترى منهم أيسرُ مني، فقال له: ما أظنك أبغضتهم إلا لهذا. قال: كل هؤلاء لو قدروا على داري لهدموها، وعلى حياتي لنزعوها. أنا لو طاوعتهم فأعطيتهم كما سألوني كنت قد صرتُ مثلهم منذ زمان، فكيف تظنُّ بُغضي يكون لمن أرادني على هذا؟!

● عاتب بخيل أخاه عندما رآه قدم طبق رطب يساوي دانقين لبعض أصحابه أمام بيته، وقال له: حدثني عن وضعك أطباقَ الرطب وبسطك الحُصر في السكك، وإحضارك الماء البارد، وجمعك الناسَ على بابي في كل جمعة، كأنك ظننت أنا كنا عن هذه المكرمة عُمياً. إنك إذا أطعمتهم اليوم البرني أطعمتهم غداً السكر، وبعد غد الهلياثا (أنواع للتمر)، ثم يصير ذلك بعد أيام

الجمع في سائر أيام الأسبوع، ثم يتحول الرطب إلى الغداء، ثم يؤدي الغداء إلى العشاء، ثم تصير إلى الكساد، ثم الأجداء، ثم الحملان، ثم اصطناع الصنائع. والله إني لأرثي لبيوت الأموال، ولخراج المملكة من هذا، فكيف بمال تاجر جمعه من الحبّات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف..!

● كان أحدهم يأكل تمراً هو وأصحابه، فانطفأ السراج، وكانوا يلقون النوى في طست، فسمع صوتَ نواتين، فقال: من هذا الذي يلعب بكعبين؟

● قالوا: خيرُ الناس، خيرُ الناس للناس، وشرُّ الناس، شرُّ الناس للناس.

● حكوا عن كسرى أنه قال: احذر صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

● قال أحد معاصري الجاحظ: كنت في سفينة، وكنتُ في الذنب، وكان في الصَدر، فلمَّا جاء وقتُ الغَداء، أخرج من سَلَّةٍ له دَجاجةً وَفرْخاً واحِداً مبرَّداً، وَأقبلع يأكل ويتحدَّث، ولا يعرِضُ عليَّ، وليس في السفينة غيري وغيرُه. فرآنى أَنظرُ إِليه مرَّةً، وإلى ما بين يديه مرة، فتوهّم أني أشتهيه وأستبطئه، فقال لي: لِمَ تُحدِّق النظر؟ من كان عندَه أكلٌ مثلي، ومن لم يكن عنده نظرٌ مثلك. قال: ثم نظر إِليَّ، وأنا أنظر إِليه، فقال: يا هناهُ! أنا رجلٌ حسنُ الأكل، لا آكلُ إلاّ طيّبَ الطعام. وأنا أخاف أن تكونَ عينُك مالحة، وعينُ مثلك سريعة، فاصرِفْ عنِّي وجهكَ.

قال: فوثبتُ عليه، فقبضتُ على لحيته بيدي اليُسرى، ثم تناولتُ الدجاجة بيدي اليَمنى، فما زلتُ أضربُ بها رأسَه، حتى تقطَّعت في يدي. ثم تحوَّل إِلى مكاني، فمسَح وجهه ولحيته، ثمَّ أقبل عليَّ فقال: قد أخبرتُك أن عينك مالحة، وأنك ستصيبني بعين.

قلت: وما شبه هذا من العين؟ قال: إنما العين مكروه يحدث، فقد أنزلت بنا عينك أعظم المكروه. فضحكت ضحكاً ما ضحكت مثله، وتكالمنا حتى كأنه لم يقل قبحاً، وحتى كأني لم أفرط عليه!

● قل ابن حسان: كان عندنا رجل مقلّ، وكان له أخ مكثر، وكان مفرط البخل، فقال له يوماً أخوه: ويحك! أنا فقير معيل، وأنت غني خفيف الظهر، لا تعينني، ولا تواسيني ببعض مالك، والله ما رأيت قط ولا سمعت بأبخل منك!

قال: ويحك! ليس الأمر كما تظن، ولا المال كما تحسب، ولا أنا كما تقول في البخل، ولا في اليسر. والله لو ملكتُ ألفَ ألفِ درهم لوهبتُ لك منها خمسمائة ألف درهم! يا هؤلاء، فرجلٌ يَهَبُ في ضربة واحدة خمسمائة ألف يُقال له بخيل؟!

● قال بخيل: لم أنتفع بأكل التمر قط إلا مع الزنج، وأهل أصبهان. فأما الزنجي فإنه لا يتخيَّر، وأنا أتخيَّر. وأما الأصبهاني فإنه يقبض القبضة ولا يأكل من غيرها، ولا ينظر إلى ما بين يديه حتى يفرغ من القبضة. وهذا عدل، والتخيُّر فرقة وجَوْر، لا جرمَ أن الذي يبقى من التمر لا ينتفع به العيال إذا كان قدّام من يتخيَّر.

● قيل لشيخ من أهل البصرة: مالكَ لا ينمىٰ لك مال؟

قال: لأني اتخذتُ العيالَ قبل المال، واتخذ الناسُ المالَ قبلَ العيال! وقد رأيتُ من تقدَّم عيالُه مالَه فجبرَهُ الإصلاح، ورفده الاقتصاد، وأعانه حسن التدبير، ولم أر لشهوتي تدبيراً، ولا لشرهي صبراً

● من مصطلحات الطعام المذموم في العطش الشديد، عند العرب والأعراب:

ـ الفظ: فإنه عصارة الفَرْث إذا أصابهم العطش في المفاوز.

ـ المجدوح، فإنهم إذا بلغ العطش منهم المجهود نحروا الإبل وتلقوا ألبابَها بالجِفان كيلاً يضيع من دمائها شيء، فإذا برد الدم ضربوه بأيديهم وجرحوه بالعيدان حتى ينقطع، فيعتزل ماؤه من ثفله، كما يخلص الزبدُ بالمخض والجبنُ بالأنفحة، فيتصافنون ذلك الماء ويتبلَّغون به حتى يخرجوا من المفازة.

● قال أعرابي: جعتُ حتى سمعتُ في مسامعي دوياً، فخرجت أريد الصيد، فإذا بمغارة، وإذا هو جَرُو ذئب. فذبحتُه، وأكلتُه، وادَّهنتُ واحتذيت.

● قال الأصمعي: تعرَّق أعرابي عظماً[1]، فلما أراد أن يلقيه ـ وله بنون ثلاثة ـ قال له أحدهم: أعطنيه! قال: وما تصنع به؟ قال: أتعرَّقه حتى لا تجد فيه ذرَّة مقيلاً! قال: ما قلتَ شيئاً. وقال الثاني: أعطنيه. قال: وما تصنع به؟ قال: أتعرَّقه حتى لا تدري ألِعامِه ذلك هو أم للعام الذي قبله؟! قال: ما قلتَ شيئاً. قال الثالث: أعطنيه. قال: وما تصنع به؟ قال: أجعله مُخَّة إدام. قال: أنت له!

● كان عبد الله حبيب العنبري ـ أحد بني سمرة ـ يقال له: آكل الخبز، لأنه كان لا يأكل التمر، ولا يرغب في اللبن، وكان سيد بني العنبر في زمانه. وهم إذا فخروا قالوا: منّا آكلُ الخبز!

● إذا أراد الأعرابي القِرى ولم يرَ ناراً، نبحَ، فيجاوبه الكلبُ، فيتبعُ صوته. ولذلك قال الشاعر:

ومستنبحٍ أهلَ الثرىٰ يطلب القِرى إلينا وممساه من الأرض نازحُ

ويدلُّك على أنه ينبح وهو على راحلته لينبحه الكلب قول حميد الأرقط:

---

(١) أي أكل ما عليه من اللحم نهشاً بالأسنان.

وعاوٍ عوىٰ والليل مستحلس الندى   وقد ضجعت للفور تالية النجم

فمنهم من يبرز كلبه ليجيب، ومنهم من يمنعه ذلك..

● العرب تفضِّل الرجل الكسوبَ، والفرَّ الطَّلوب، ويذمُّون المقيم الفشل، والدثور الكسلان.

ولذلك قال شاعرهم وهو يمتدح رجلاً:

شتّى مطالبُه بعيدٌ همُّه   جوَّابُ أوديةٍ، بَرودِ المضجع

ومدح آخر نفسه فقال:

فإن تأتياني في الشتاء وتلمسا   مكان فراشي فهو بالليل باردُ

وقال آخر:

إلى مَلِكٍ لا ينقصُ النائي عزمَه   خروجِ تَروكٍ للفراش الممهَّدِ

● والعرب يمدحون أصحاب النيران، ويذمُّون أصحاب الإخماد.

وكلما كان موضعُ النار أشدَّ ارتفاعاً! كان صاحبُها أجودَ وأمجدَ، لكثرةِ من يراها على البعد.

تسهيل المجاز إلى فن المعمَّى والألغاز(*)
لطاهر الجزائري

لا ينبغي للأديب أن يكون عارياً من معرفة فن المعمَّى والألغاز وما شاكلهما، فإن ذلك مما يشحذ الأذهان، ويرشحهما لمعرفة سحر البيان.. كما أنه لا ينبغي له أن يتولَّع به ويجعله قصارى جهده

(*) تسهيل المجاز إلى فن المعمَّى والألغاز/ طاهر الجزائري. - [دمشق]: مطبعة ولاية سورية، ١٣٠٣هـ، ١٢٨هـ.

«رسالة تتضمن فرائد فوائد، في حلِّ معاقد قواعد، توجب تسهيل المجاز إلى فنِّ المعمى والألغاز» كما قال المؤلف في مقدمته، ورتبها على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة. عرف المعمى في المقدمة بأنه كلام يستخرج منه كلمة فأكثر بطريق الرمز والإيماء، بحيث يقبله الطبع السليم، ويشترط فيه أن يكون له في نفسه معنى وراء المعنى المقصود بالتعمية. وعرَّف الإلغاز بأن يأتي المتكلم بعبارات يدل ظاهرها على غير ما أضمر وأشار إليه، ويدلُّ باطنها بعد إمعان النظر عليه.

وعنوان الباب الأول هو «العمل التكميلي» من علم المعمى الذي يتكون من القلب والإسقاط والتأليف.

والباب الثاني هو في «العمل التحصيلي» وهو على ثمانية أقسام: التنصيص والتخصيص، التسمية، الترادف والاشتراك، الكفاية، التصحيف، التلميح، التشبيه، الحساب.

والباب الثالث في «العمل التسهيلي» وهو ما يسهل أحد العملين السابقين، وأقسامه أربعة: الانتقاد، والتحليل والتركيب، والتبديل. =

ونهاية علمه. ولا ينبغي أن يورد منها في المحاضرات ما لا يستخرج إلا بعد إجهاد الفكر، وأن لا يغضَّ من قدر الأفاضل الذين لم يفتح عليهم في استخراجها.. فقد كان النظّام على تمكُّنه في العلوم على اختلاف أجناسها وأبوابها، لا يقدر على حلِّ سهل الألغاز، فضلاً عن صعابها!

● ومن مسائل فن المعمَّى رسالة مبنية على السؤال والجواب، وهي قوله:

س: ملك قال لخدامه: اشتروا لي شتاء، فاشتروا له جملاً، ووافق مطلوبه. فأيُّ مناسبة بين الجمل والشتاء؟

ج: وجه التناسب أن «الشتاء» قلبُه «آتش». ومرادفه في العربية «نار»، وهو بالتصحيف «بغل» ومرادفه في الفارسية «استر» وتصحيفه «اشتر» ومرادفه في العربية «جمل» وهو المطلوب.

= والباب الرابع في الألغاز.

وقد سبق عرض كتاب في المعمى، فلم أنقل منه هنا إلا فقرتين، والباقي من الباب الرابع.

والمؤلف هو الشيخ طاهر بن صالح (أو محمد صالح) بن أحمد السمعوني الجزائري، ثم الدمشقي. أصله من الجزائر، ومولده ووفاته في دمشق. من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره. كان كلفاً باقتناء المخطوطات والبحث عنها، فساعد على إنشاء «دار الكتب الظاهرية» في دمشق، وجمع فيها ما تفرَّق في الخزائن العامة. وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي، وسمي مديراً لدار الكتب الظاهرية، وتوفي بعد ثلاثة أشهر (سنة ١٣٣٨هـ). وكان يُحسن أكثر اللغات الشرقية، كالعبرية والسريانية والحبشية والزواوية والتركية والفارسية. وله نحو عشرين مصنفاً، منها «الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية» و «شرح خطب ابن نباته» و «تفسير القرآن». ومن أجلِّ آثاره «التذكرة الظاهرية» - مخطوطة - وهي مجموعة كبيرة في موضوعات مختلفة. وفي الخزانة الظاهرية بدمشق ٢٨ دفتراً بخطه، منها ما هو تراجم ومذكرات وفوائد تاريخية وأسماء مخطوطات مما رآه أو قرأ عنه. الأعلام ٣/ ٢٢١ (ط ٧).

وطريق آخر في التخريج، وهو أن تجعل تصحيف مرادف «آتش» - وهو «نار» - بار، ومرادفه في العربية «حمل» وتصحيفه «جمل».

قال المؤلف: وأظن أن القصة مصنَّعة، وإن صحت كان الاستخراج بمعونة قرائن حالية...

● ومن الألغاز قول بعضهم في بيتين من الشعر:

وما آكلٌ في قعدةٍ ألفَ لقمةٍ — ولقمته أضعافُ أضعافِ وزنه
إذا نزل المأكول جنبيهِ لم يقم — سوى لحظة أو لحظتين ببطنه!

وهو قالب الطوب واللَّبِن.

● وقال أبو العلاء المعري:

سعتْ ذاتُ سَمٍّ في قميصي فغادرت — به أثراً والله شافٍ من السُّمِّ
كستْ قيصراً ثوب الجمال وتُبَّعاً — وكسرى وعادت وهي عاريةُ الجسمِ

وهي الإبرة.

● ولبعضهم:

ألا أخبروني أي شيءٍ رأيتم — من الطير في أرض الأعاجم والعربْ
وليس له لحم وليس له دم — وليس له عظم وليس له عصبْ
ويؤكل أحياناً طبيخاً وتارةً — قليًّا ومشويّاً إذا دُسَّ في اللهبْ
ولا هو حيٌّ ولا هو ميت — ألا أخبروني إن هذا هو العجبْ!

وهي البيضة. وقوله «من الطير» أي حاصل من الطير، فمن هنا ليست للبيان، كما في قولك: «خاتم من فضة»، فانتبه لهذا، فإنها كثيراً ما يقع بها الإبهام.

● وألغز الصاحب بهاء الدين زهير فقال:

وأسودَ عارٍ أَنْحَلَ البردُ جسمَهُ ... وما زال في أوصافه الحرصُ والمنعُ
وأعجبُ شيءٍ كونُه الدهرَ حارساً ... وليس له عينٌ وليس له سمعُ

وهو القُفل.

● وألغز الخطيب الحصكفي فقال:

أتعرف شيئاً في السماء نظيرُه ... إذا سارَ سارَ الناسُ حيث يسيرُ
فتلقاه مركوباً وتلقاه راكباً ... وكلُّ أميرٍ يعتليه أسيرُ
يحضُّ على التقوى ويكره قُرْبَهُ ... وتنفرُ منه النفسُ وهو نذيرُ
ولم يُسْتَزَرْ عن رغبةٍ في زيارة ... ولكن على رغم المزور يزور

وهو نعش الموتى.

● ولابن التلميذ ـ وهو من الحكماء المسيحيين ـ:

ما واحد مختلف الأسماء ... يعدل في الأرض وفي السماء
يحكمُ بالقسط بلا رياء ... أعمى يُري الإرشاد كلَّ رائي
أخرسُ لا من علَّةٍ وداءِ ... يُغني عن التصريح بالإيماء
يجيب إن ناداه ذو امتراء ... بالرفع والخفضِ عن النداء
يُفصح إن علق بالهواء

وهو الميزان.

● ومن الألغاز الفنية قول بعضهم:

محمَّد زيداً واقتل ابني فإنه ... أحبّ إلى قلبي من السمع والبصر

وكتابته على الوجه المألوف هكذا: (محمّ دِ زيدا واقت لا بني).

فقوله: «محم» منادى مرخّم وأصله «محمد».

وقوله «دِ» فعل أمر من «ودىٰ» أي دفع الدية.

و «زيداً» مفعوله.

وقوله: «واقت» الواو عاطفة، و «اقت» فعل أمر من «قتا» «يقتو» إذا خدم.

والمعنى: يا محمد ادفع دية زيد واخدم لابني!

● وألغز ابن عنين في مشمش وسمسم:

نبتان هذا أصله سامق ... قاسٍ وذا من خائر قاصر
أيّهما صفحت معكوسة ... دلَّ بلا شك على الآخر!

● وقال أبو الحسن بين الجياب - وهو رئيس كتاب الأندلس، وأستاذ لسان الدين الخطيب - ت ٧٤٩هـ في كتاب «الألغاز الجيابية» الذي جمعها له تلميذه المشار إليه:

وما شخصان مشتركان في اسم ... ولكن للصغير اسمُ المكبَّرْ
فهذا في بني يعقوب حقا ... وذا في آل أحمد ليس يُنكرْ

وهما سلمان (رضي الله عنه) وسليمان (عليه السلام).

● وقال:

ما شجرٌ إن صحف اسمُه ... فبعض الحيوانِ(١)
كلاهما يأتي بأحلى ... من تواصل الأمانِ(٢)
هما معاً في سورة ... واحدة من القرآنِ
وقلبه مصحفاً ... مستحسن من الغواني(٣)

---

(١) نحل.

(٢) تمر شهد.

(٣) لحن.

وهـــاكـــه أوضـــح مـــن	شـمـس الـضـحـى لـدى الـعـيـان

● وقال في «عفان»:

حـاجـيـتُ مـا اسـم عَـلَـم	مـقـلـوبُـه اسـمُ عـلـم[1]
هـذا ابـنُـه خـلـيـفـةٌ	وذا أبـــوه أعـــجـــم
إن تـحـذف الـفـاء مـن الأو	ل جــاء الأدهــم[2]
أو تـحـذف الـفـاء من الـثـا	نـي يـقـوم مـأتـم[3]
وإن تـصـحـفـه عـلـى الـحـذ	فِ فـعـاد مـجـرم[4]
أو أول الأنـعـام ذكـراً	حـيـثُ عُـدَّ الـنَّـعـم[5]
فـهـاكـه قـد لاح مـنـه	سـرُّه الـمـكـتَّـم

● وقال بعضهم (لاحظ القافية):

الـكِـبْـرُ قـد أضـحـى عـلـى	مـهـانـةِ الـنـفـسِ عـلامَـهْ
فـاتـركـهُ سـرمـداً وقـل	لـمـن أتـاه إذ عـلا مَـهْ!
لـلـتُّـرْبِ تُـعـزىٰ فـعـلا	مَ الـكِـبْـرُ يـا صـاحِ عَـلامَـهْ؟

● ومن الألغاز الفقهية:

س: أي وعاء متنجس يطهر بغير غُسل؟

ج: هو الوعاء الذي فيه خمر، يطهر إذا انقلبت خلاًّ بغير غسل.

---

(١) نافع.
(٢) عان.
(٣) ناع.
(٤) باغ.
(٥) ثاغ.

س: أي حيوان يطهر دمُه إذا تغيَّر؟

ج: هو الغزال، فإن دمه إذا تغيَّر وصار مسكاً يصير طيِّباً طاهراً.

س: أي طاهر يخرج بين نجسين؟

ج: هو اللبن يخرج من بين فرث (وهو ما في الكرش من ثُفل) ودم.

● ومن ألغاز الفرائض:

س: هل يتصوَّر أن يكون غلامان كلٌّ منهما عمُّ الآخر؟

ج: نعم، وذلك في امرأتين لكلٍّ واحدة منهما ولد تزوَّج أمَّ الآخر فجاءت بولد، فكلٌّ واحد من الولدين يقول للآخر: عمي!

● رجل كان يلعب بالكرة، فوقعت في حفرة، فحلف أن لا يُخرجها هو ولا غيره، ثم أراد إخراجها من غير أن يحنث، فهل لذلك وجه؟

نعم، يؤتىٰ بقربة ماء، فتصبُّ في تلك الحفرة، فتخرج الكرة بنفسها، ولا حنث عليه بذلك!

● ومن الألغاز الحسابية.

رجلٌ كان يبيع الدجاج، كلَّ واحدة بدرهمين، والإوز كلَّ واحدة بدرهم، والحمام كلَّ واحدة بنصف درهم. فأراد رجل أن يشتري منه عشرين منها بعشرين درهماً، فكيف يفعل؟

الجواب: يأخذ عشرة من الحمام، وخمسة من الإوز، وخمسة من الدجاج.

● رجلٌ له ثلاثة أولاد، وعنده ثوبان، فحلف كلٌّ واحد منهم على أن يلبس أحدَ الثوبين في هذا الشهر عشرين يوماً، فكيف الخلاص من الحنث؟

الجواب: يلبس اثنان منهما الثوبين، فيلبس أحدُهما أحدَ الثوبين عشرة أيام ويخلعه، ويلبسه الثالث بقية الشهر. وأما الثاني فإنه يخلعه بعد عشرين يوماً ويلبسه الأول، وهو الذي كان لبس عشرة أيام.

● قال المؤلف: ليت كثيراً ممن مالَ في عصرنا إلى الهزل وجعله عوضاً عن القول الجزل، تعلَّقوا بشعبة من شعب الأدب، فإنها تلهيهم عنه، وتزيلُ عنهم ما هم فيه من الكرب، فإن الميل إلى الترَّهات دليل فقد اللذّات الحقيقية في الذات.

● ألغاز الإشارة هي أن يشير الملغز بأمر محسوس إلى أمر معقول لعلاقة بينهما، بحيث ينتقل الذهن من الأول إلى الثاني. وقد كان مستعملاً قديماً في العرب والعجم، ولذلك ذكر كثيراً في التواريخ وكتب اللطائف، لها موقع عظيم في النفوس، ويدخل فيها بعض أقسام التلميح.

من ذلك ما يحكى أن الحيص بيص ـ الشاعر التميمي ـ حضر ليلةً عند الوزير علي السماط، فأخذ أبو القاسم بن القطان قطاةً مشويَّةً وقدَّمها إلى الحيص بيص!

فقال الحيص بيص للوزير: يا مولانا، هذا الرجل يؤذيني!

فقال الوزير: وكيف ذلك؟

قال: لأنه يشير إلى قول الشاعر:

تميمٌ بطرقِ اللؤم أهدىٰ من القطا ... ولو سَلكتْ سُبُلَ المكارمِ ضَلَّتِ!

● ومما يستظرف لأبي القاسم المذكور ـ مما يتعلق بالسابق ـ أنه لما ولي الزينبي الوزارة، دخل عليه والمجلس حافل بالرؤساء. فوقف بين يديه ودعا له، وأظهر الفرحَ ورقص!

فقال الوزير لبعضٍ من يُفضي إليه بسرِّه: قبَّح الله هذا الشيخ؛

فإنه يُشير برقصه إلى قولهم: «ارقص للقرد في دولته»!

● وحيث إن اللغز قد يُطلق على كلٍّ ما فيه إغراب، فممّا يدخل فيه اقتراح كلمات أولها حرف معين، داخلة تحت نوع مخصوص يعينه السائل، فيقول مثلاً: ماذا تحبُّ أو تبغض من النونات؟ أي الأشياء التي أولها نون؟ فتذكر كلمات في أولها نون من نوع المحبوب أو المكروه. والحدُّ المعتاد عند الأدباء في عددها سبع. ثم أورد المؤلف في الأحرف الهجائية الأولى:

أ. أمنٌ وأُنس وآدابٌ وأُبَّهةٌ ... وأولياء وأموال وإيمانُ

بـ. برٌّ وبِشْرٌ وبرهانٌ وبحبحةٌ ... وبهجة وبشارات وبستانُ

تـ. تبرٌ وتقوى وتأساءٌ[1] وتبصرةٌ ... وتوبةٌ وتدابير وتبيان

● قال: وقد جمعتَ في بيت بعضَ الكلمات التي فيها ظاء، إذا بُدلت ضاداً كان لها في نفسها معنى، وهو:

ذو الحظ في العلم ظل ينظر ... والغيظ والظن الردي يحظره

والحضُّ: الحث. وظلَّ بمعنى صار، وضلَّ معناه معروف. وينضر: يحسن. وغيض الماء: نقصانه. والضنُّ: البخل. والردى يحظره: يمنعه، ويحضر معناه معروف.

● والألغاز اللغوية تتصوَّر في الألفاظ المشتركة، فيذكر الملغز اللفظ بمعنى ويوهم أنه يريد به غيره. نحو: أي رجل أكل شيئاً عامداً قبل العصر في رمضان ولم يفسد صومه؟

والجواب: أن هذا صائم، أكل في الليل شيئاً كقصب السكر ونحو مما يقبل العَصْر!

(١) التأساء: التسلية.

التشويق الطبي(*)

لصاعد بن الحسن

إذا ألمَّ المرض، فالمعاجلة بالمعالجة.

● حُكي أن المأمون كان مولعاً بأكل الطين! فقال: أما أحدٌ يدلُّني على ما يُذهب عني شهوته؟

(*) التشويق الطبي/ لأبي العلاء صاعد بن الحسن الطبيب؛ حققه وقام بدراسته مريزن سعيد عسيري. ـ الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤١٦هـ، ١٦٦ص.

كتاب نفيس في أدب الطبيب، فصل فيه ـ في أبواب متعددة ـ الآداب والفضائل والصفات والشروط الخلقية والعلمية والقوانين التي يجب أن يتصف بها الطبيب الماهر، الذي يستحق الانتماء إلى أهل هذه الصناعة.

وذكر أن ما أودعه في كتابه هذا «جواهر من الحكم، ودرر م الكلم تنفع من قرأها منصفاً، وتعجب من تأملها متوقفاً، وتفيد معرفة فضائل هذه الصناعة وأهلها، وتميِّز المتحققين بها ليطلبوا، والمدَّعين لها ليجتنبوا». كما تعرض لعملية الكشف على المريض، ومعالجته، وأن الطبيب إذا استطاع أن يعالج بالغذاء فلا يقرب الدواء، وإذا عالج بالدواء فلا يقرب الحديد، إلا ما لا بد منه. ونبه إلى تقدير الأدوية في الكمية والكيفية وجهة الاستعمال واختيار المواد. كما أكد على ضرورة امتحان الأطباء لمعرفة مقدرته الطبية، وحذَّر من جهلة الأطباء، وكشف ألاعيبهم وغشهم وتدليسهم على الجهلة والعامة، وطلب الضرب على أيديهم، وأعطى أمثلة عديدة لأعمالهم.

ومن أبواب الكتاب المختارة: =

فقال له رجل: أنا يا أمير المؤمنين. فقال له المأمون: بماذا؟ فقال: بعزمة من عزمات العقلاء. فما أكله بقية عمره. [قلت: وهكذا التدخين وغيره. ومن تركه لله أعانه عليه].

● قال عبد الملك بن مروان لابن الزعيرية: هل اتخمت قط (وهو الشبع الزائد)؟ قال: لا. قال: وكيف ذا؟ قال: لأنّا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا أكلنا أجدنا المضغ، ونعطي المعدة الكفاف، ولا نخليها.

● السنانير تأكل الحشيش في أوقات الربيع، ومعلوم أن ذلك ليس مما كانت تتغذى به أولاً، وإنما دعاها إلى ذلك الإلهام لفعل ما جعله الله سبباً لصحة أبدانها، فإذا أكلت الحشيش تقيأت أخلاطاً مختلفة قد اجتمعت في أبدانها، ولا تزال كذلك إلى أن تحسَّ بالصحة المأنوس إليها بالطبع، فتكف!

● شكا بعد المتقززين إلى طبيب غثياناً، فقال له: خذ مقدار رأس فارة جلنجبيناً (ورد بالعسل) والقِ عليه ملء محجمة ماءً، وحركه حتى يصير مثل المخاط، واشربه. فما استتمَّ الوصف حتى تقيَّأ الرجلُ على المكان!

● ذكر المؤلف في باب نوادر المتخلفين من الأطباء بعض

= - نوادر المتخلفين من الأطباء وأغلاط عرضت لهم.
- فيما يفسد على الطبيب تدبيره وفيما يقيم عذره.
- وصايا مختصرة تفيد من عمل بها، وتؤمِّنه من الوقوع في أيدي المتخلفين من الأطباء.
- نوادر سمعتها وشاهدتها جدية وهزلية تتعلق بالمتطببين.
والمؤلف طبيب، من أهل الرحبة (على شاطىء الفرات بين الرقة وبغداد). وصفه ابن أبي أصيبعة بأنه كان ذكياً بليغاً. لا تعرف سنة وفاته، لكنه ألف كتابه هذا سنة ٤٦٤هـ.

تصحيفات وأغلاط عرضت لهم مجموعة من الأخبار، منها أنه سمع بعضهم يقول: عندي كتاب فيه «بيض الديوك» أراد «نبض الذبول» (وهو نبض يصاحب أصحاب حمى الذبول).

● قال: وسمعت بعضهم يقرأ في بعض الشروح الفلسفية لأبي الفرج عبد الله بن الطيب يقول: لقد كان «الحسن البصري» قيماً بجميع العلوم. فقلت: كيف قلت هذا؟ فقال: أما ترى الشيخ أبا الفرج مع جلالة قدره يقول: و «الحسن البصري يشهد بذلك». فنظرتُه وقلت: يا هذا إنما قال هذا الرجل: «والحسُّ البصري يشهد بذلك»!

● وصحَّف بعضُهم: «ولا يُدْمِنُ الأكلَ» فقال: ما أعجب قول هذا الرجل: «ولا بدَّ من الأكل» كأنّا ما علمنا هذا!

● قال: وقرأ بعضهم في كتاب لجالينوس: «إن العسل ينقص من حرارة الصَّبر» (النبتة المرَّة) وقال: أما يستحي جالينوس من هذا؟ كيف ينقص العسل من حرارة الصبر والعسل حار؟

فقلت: يا هذا توقف وانظر جيداً، إنما قال: «الغُسل ينقص من حرارة الصبر» أي إذا غسل الصبر، فافهم ولا تصحف قوله وتغلطه.

● ووجد بعضهم في نسخة «أنيسون درهمين» (والأنيسون نبتة طيبة)، وكان الخطُّ معلَّقاً، فظنه «أفيون»، فوضع في الوصفة: «درهمين أفيون» وسقاه المريض، فقتله!

● وقرأ بعضهم في كُنَّاش عتيق: «وليكن غذاؤه فرخاً أو قطاً». فقال: والله إن هذا لعجب! كيف يأمر الناسَ بأكل السنانير؟! (والقطا نوع من الطيور معروف يؤكل).

● وصحَّف بعضهم «شيح أرمني» بـ «شيخ أرمني» (والشيح نبات يستخدمه الأطباء لقتل ديدان البطن).

● وآخر صحف «ويسقىٰ بزر بنج مع سكر» فصحَّفه: «ويسقى بزرنيخ مع سكر»، فسقى المريضَ زرنيخاً فقتله! (وبزر بنج) أي بزر شجرة البنج، والزرنيخ نوع من المعادن).

● ومثل هذا ما صحَّفه بعضُ تلامذة هؤلاء فقال: «ويحذر الخس» فقال له معلمه: صحَّفت ويلك! إنما هو «ويحدر الجنين». وكانت في الأصل: «ويخدر الحس». فصحفا جميعاً!

● قال: وسمعت أن بعضهم ظنَّ أن «عروق الصباغين» هي العروق التي توجد في أبدان الصباغين! (وهي بقلة الخطاطيف، وقال بعضهم إنه الكركم).

● من الأطباء من يلزم المريض ويكرهونه على تناول الغذاء، ولا يعلمون أن الغذاء كما يزيد في قوةِ الصحيح كذلك يزيد في مرض المريض!

● جاء رجل إلى طبيب فقال له: أيها الحكيم، أجد مغصاً في أطراف شعري، وظلمةً في بطني، وإذا أكلتُ الطعام يتغيَّرُ في معدتي!

فقال له الطبيب: أما المغص الذي تجده في أطراف شعرك فيجب أن تحلق رأسك ولحيتك فيزول عنك، وأما ظلمة بطنك فيجب أن تعلِّق على باب سُرَّتك قنديلاً! وأما تغيُّر الطعام في معدتك فكل... واربح النفقة!

● حكي عن بعض الأطباء أنه قال لعبد الملك بن مروان: قد اتخذتُ لك يا أمير المؤمنين دواءً يشهِّي إليك الطعام، ويحبِّب إليك الجِماع، ويسرع إليك النوم. فقال: والله لولا قديم صحبتِك وما سبق من خدمتك لأمرت بضرب رقبتك، يا ويلك! أما ما ذكرتَ أنه يشهِّي إليَّ الطعام فيكفيني أن أدخل الخلاء في النهار والليل مرة واحدة، وأما ما ذكرتَ أنه يحبِّب إليّ الجِماع فالجِماع جنون يكفيني أن أُجَنَّ

في الشهر مرة، وأما ما ذكرت أنه يسرع إِليَّ النوم فيكفيني أن أموت الليل. فاعتذر الطبيب وسأله العفو عنه!

● قال: وحضرنا عند مريضٍ مهندس ومعنا طبيب منجِّم، فشكا المريض إِليه حاله، وقال: أيها الحكيم، اعلم أنني رجل منحرف المزاج، مع أن تدبيري ما زال جارياً على استقامة، وكنت كثيراً ما أضع المخروط في الدائرة، فلما كان بالأمس أحسست بالآلام وكأنها ترسم في كرة رأسي أقطاراً، ولم يبق عظم من عظام قحفي إلا توهمته منشوراً، ثم استقرَّ الألم في المركز كاستقرار الأرض في وسط الكل، وأقام ذلك مدة ما، ثم تحرك على خط مستقيم كحركةِ الكرة على البسيط، إلى أن استقرَّ في مقعر معدتي، وأحسسته داخل الأضلاع على موازاة من محدب أعلى البطن، فقعدت لشدة ما نالني في زاوية، وأنا مع ذلك لا أحسُّ في جسمي ما يتوهم فيه نقطة إِلا متألماً، ولم أزل أشكل أعضائي بأشكال مختلفة إِلى أن طلع عمود الصبح.

فقال له الطبيب: يجب أن يؤخذ بزرُ لسان الحمل، وبزر لسان الثور، وجوز بوا[١] وناب سرطان بحري، وظفر الأسد، وسنبل الطيب أجزاء سواءً بالميزان، ويضاف إِليه نصفُ جزء من عقارب محرقة، وقوس السحر وأذن الجدي، وتقلب عليه دلو ماء، بعد الحمية على حوتٍ مشويٍّ، ويطبخ حتى يبقى منه الربع، واستعمل منه أوقيتين مع قرص من أقراص الكواكب وقت طلوع الفجر، واصبر عليه إِلى وقت زوال الشمس عن دائرة نصف النهار، ترى النجاح والسعادة إن شاء الله تعالى.

ورأيت رقعة هذا المريض قد وصلت إِلى الطبيب بما هذا نسخته: قد امتثلتُ ما رسمه سيدنا الحكيم حرسه الله من إعداد

(١) هذه أسماء نباتات طبية.

الحوائج واتخاذ قرص الكوكب، وأحضرت كل واحد من أدويته بالوزن المعين، وابتدأت أولاً بالدقِّ إلى أن وصلت إلى الطلق، فعلمت أنه يعنيني وينعيني ويؤذيني، فأخذت فهراً كروياً وصلاية[1] مسطحة ذات قاعدة مستوية مستديرة نقية، وسحقته حتى كادت أجزاؤه لا تتجزأ، ليس ذلك إلا خاصة للنقطة، ونقعت الصموغ بالمثلث وقرصتها في صحن مربع، وجعلتها صحيحة الوزن مستديرة الشكل معتدلة المقدار، ووضعتها على بسيط مستوٍ نظيف، وأنا معوِّل على استعمالها من غد إن شاء الله تعالى.

فنظر هذه النسخة صديق لي حاسبٌ فقال: أقسم بمُجري الغيوم ومدبِّر النجوم العالمِ بخفي الأسرار، المنزَّه عن الكون والفساد، لو أن «ثاذوسيوس» وصف هذه لـ «بطليموس» لما اهتدى إلى علمها ولا إلى عملها!!

(١) الفهر والصلاية حجران يدقان به الجوز والعطر ونحوهما.

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب(*)

للثعالبي

(روح الله)... عيسى عليه السلام...

ومما يُستملح لأبي أحمد بن أبي بكر الكاتب قوله لعلي بن عيسى الوزير:

(*) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب/ لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النياسبوري؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ـ القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٥هـ، ٨١٦ص. ـ (ذخائر العرب؛ ٥٧).

يصف المحقق هذا الكتاب بأنه من الكتب التي اتسمت بجمال التأليف، وتنسيق الأبواب، مع شرف الغاية، وكرم المقصد «بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يُتَمثَّل بها، ويكثر في النظم والنثر وعلى ألسنة الخاصة والعامة استعمالها، كقولهم: غُراب نوح، ونار إبراهيم، وذئب يوسف، وعصى موسى. وكقولهم: كنز النطف. وقوس حاجب، وقرطا مارية، وصحيفة المتلمِّس. وكقولهم: تفاح الشام، وأترجُّ العراق، وسكَّر الأهواز، ووردُ جور.. وهكذا». وخرَّجها من واحد وستين باباً، ينطق كل منها بذكر ما يشتمل عليه أولاً، ويُفصح عن الاستشهاد وسياقة المواد آخراً، وما فيها إلا ما يتعلق من المثل بسبب، ويُوفي من اللغة والشعر على طرف، ويضرب في التشبيهات والاستعارات بسَهْم، ويأخذ من الأخبار والأنساب بقسم، ويُجيل من خصائص البلدان والأماكن قِدْحاً، ويجري في أعاجيب الأحاديث شوطاً. =

لســـتَ روحَ الله عـــيـــســـى إنــمــا أنــت ابــنُ عــيــســىٰ
كـــلِّـــمِ الـــنــــاسَ فــــإن الـــلَّــه قـــد كـــلَّـــمَ مـــوســـى

● (رحمة الله): قال سليمان بن عبد الملك (الخليفة) لأبي حازم الأعرج (العالم الزاهد) ـ وقد خوَّفه عذاب الله في موعظة له حتى أبكاه ـ: فأين رحمة الله؟

فقال أبو حازم: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

● (تحفة إبراهيم): هي اللحم. ويُحكى أن الشعبيَّ دخل على صديقٍ له، فتحدَّثا الساعة، فلما أراد القيام قال له: لا نتفرَّق إلا عن ذَواق. فقال الشعبي: أَتْحِفْني بما عندك، ولا تتكلَّف لي ما لا يحضرك. فقال: أيُّ التحفتين أحبُّ إليك؟ تحفة إبراهيم أم تحفة مريم! قال الشعبي: أما تحفة إبراهيم فعهدي بها الساعة، وأريد تحفة مريم! فدعا له بطبق من رُطب.

وإنما عنى بتحفة إبراهيم اللحم لأن في قصته: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[1] ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[2]. وعنى بتحفة مريم الرُّطب، لأن في قصتها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾[3].

● (قميص يوسف). . .

= قال: وقد افتنَّ الثعالبيُّ في تصنيفه، وجرى على سجيَّته في كتابة أبوابه وفصوله، وأودعه من الطُّرف والنوادر المُلح والأفاكيه والأقاصيص ومضاحك الشعر، ما جعله مراد النفس، وجلاء القلب، ومتعة الخاطر.
وقد سبق التعريف بالمؤلف أبي منصور الثعالبي (٣٥٠ ـ ٤٢٩هـ) الأديب العلامة، عند عرض أكثر من كتاب له في هذه الموسوعة.

(١) سورة هود: الآية ٦٩.
(٢) سورة الذاريات: الآية ٢٧.
(٣) سورة مريم: الآية ٢٥.

يروى أن إخوة يوسف لما قالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾[1] قال لهم: أروني قميصه. فأَرَوْه إياه مضرَّجاً بالدم غير ممزَّق، فقال: تالله ما رأيت ذئباً أحلمَ من هذا وأرفق، أكل ابني ولم يمزِّق قميصه!

● ورُئي أبو الحارث جميّز في ثياب متخرِّقة، فقيل له: ألا يكسوك سيُّدك؟

فقال: لو كان له بيت مملوء إبراً، وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمّناً يطلب منه إبرةً ليخيطَ بها قميصَ يوسفَ الذي قُدَّ من دُبُر ما أعاره إياها، فكيف يكسوني؟!

● (حَرْبة أبي يحيى): أبو يحيى هو مَلَك الموت، وإنما كُني بهذه الكُنية كناية عن الموت، كما كُني عن اللديغ بالسَّليم، وعن المَهْلَكة بالمفازة.

وحربة أبي يحيى يُراد بها مقدِّمة من مقدِّمات الموت على جهة التمثيل والاستعارة. قال بعضهم:

وأبدتْ بوجهي طالعاتٍ أرىٰ بها　　سهامَ أبي يحيى مسدَّدةً نحوي

● (جُند إبليس): يُقال ذلك للمُجّان والخُلعاء. قال الشاعر:

وكنتُ فتىً من جُندِ إبليسَ فارتقتْ　　بيَ الحالُ حتى صار إبليسُ من جُندي

● (ظلُّ الشيطان): العرب تقول للمتكبِّر الضخم: ظلُّ الشيطان.

● (خمرُ الشيطان) قال يحيى بن معاذ الرازي: الدنيا خمر الشيطان، فمن شرب منها لم يُفْقِ من سكرتها إلا وهو في عسكر الموتى خاسراً نادماً!

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٧.

• (سيرة العُمَرَيْن): هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، يُضرب بسيرتهما المَثَل، إذ لا عهد بمثلهما بعد النبي ﷺ.

وقال بعض البلغاء وقد ذكر بعض الملوك: رأيت صورة قَمَريَّة، وسيرةً عُمَريَّة.

وقال آخر: رأيتُ بفلان نور القمرَيْن، وعَدْلَ العمَريْن!

• (زَكَنُ إياس)[1]..

حكى الجاحظ أن إياس بن معاوية كان ـ وهو صغير ـ ضعيفاً ضئيلاً، وكان له أخ أشدَّ حركة منه وأقوى، فكان أبوه يقدِّمه عليه، فقال له إياس يوماً: يا أبت، إنك تقدِّم أخي عليَّ، وسأضرب لك مَثَله ومَثَلي. فهو مثل الفرُّوج حين تنفلق عنه البيضة يخرجُ كاسياً كافياً نفسَهُ، فيلقط ويستخفُّه الناس، فكلما كبر انتقص، حتى إذا تمَّ فصار دجاجةً لم يصلح إلا للذبح! وأنا مثل فَرْخ الحمام، تنفلق عنه البيضة عن شيء ساقط لا يقدر على حركة، وأبواه يفدِّيانه حتى يقوى ويثبتُ ريشه، ثم يحسُن بعد ذلك ويطير، ويتخذونه الناس ويرسلونه من المواضع البعيدة، فيجيء فيُصان لذلك ويُكرم، ويُشترى بالأثمان الغالية!

فقال له أبوه: لقد أحسنتَ المَثل! فقدَّمه على أخيه، فوجد عنده أكثر مما ظن منه به، وخرج إياس باقعةً منقطع النظير!

• وزعم الأصمعي أن إياساً نظر إلى رجل من ثقيف أبيض بض، فقال له: أهنديَّةٌ أمُّك؟ قال: لا والله ما ضربتُ في هنديَّةٍ ولا هنديٍّ قطُّ بعرق. قال: بلى واللَّهِ وإن جهلتَ، وإني لأرى فيك آثار ذلك. قال: لا والله إلا اللبن والحضانة، فإن خادمة هندية كانت لأمي أرضعتني مدةً مديدة. قال: فمن ذلك!

---

(١) الزكن: التفرُّس والظن.

• (سجع المختار) بن أبي عبيد الثقفي ـ الذي ادّعى النبوة ـ. .

من ظريف ما يُحكى من حيله أنه كان عنده كرسيٌّ قديم العهد، فغشّاه بالديباج وقال: هذا الكرسي من ذخائر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فضعوه في حَوْمة القتال وقاتلوا عنه، فإن محلَّهُ فيكم محلُّ السيكنة في بني إسرائيل. ويقال: إنه كان اشتراه من نجّار بدرهمين!

• (شجة عبد الحميد): تضرب مثلاً للعَوْرة تصيب الإنسانَ الجميلَ فلا تشينه، بل تزيده حسناً. فكان عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب من أجمل أهل دهره، فأصابته شجَّة في وجهه، فلم تَشِنْهُ، بل استحسنها الناس. وكان النساء يُخطِّطن في وجوههنَّ شجَّة عبد الحميد!

• (عيُّ باقل): حديثه مشهور، وهو أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فمرَّ بقومٍ فقالوا له: بكم أخذتَ الظبي؟ فمدَّ يديه وأخرج لسانه ـ يريد بأصابعه عشرة دراهم، وبلسانه درهماً ـ فشرد الظبي حين مدَّ يديه، وكان الظبي تحت إبطه. فجرى المثل بعيِّه!

• (جليس قعقاع): هو القعقاع بن شَوْر الذهلي. تابعي من الأجواد. كان إذا جالسه واحد بالقصد إليه جعل له نصيباً من ماله، وأعانه على عدوِّه، وشفع له في حوائجه، وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً له!

ودخل القعقاع على معاوية رضي الله عنه يوماً ومجلسه غاصٌّ بأهله، فلم يجد موضعاً، فأوسع له بعض جلسائه حتى جلس بجنبه. ثم أمر معاوية للقعقاع بمائة ألف درهم، فقال القعقاع لجليسه: اقبضها. فلما قام قال له الرجل: خذ مالك. فقال: ما دفعتهُ إليك وأنا أريد أن أسترجعه منك! فقال الرجل في ذلك:

وكنتُ جليسَ قعقاعِ بن شَوْرِ ... ولا يشقىٰ بقعقاعٍ جليسُ
ضحوك السنِّ إن نطقوا بخيرٍ ... وعند الشرِّ مِطْراقٌ عبوسُ

● (حديث خُرافة): خرافة رجلٌ من بني عُذْرة، استهوته الجن، فلما خَلَّتْ عنه رجع إلى قومه، وجعل يحدِّثهم بالأعاجيب من أحاديث الجن، فكانت العرب إذا سمعت حديثاً لا أصل له قالت: حديث خرافة!

ثم كثر هذا في كلامهم، حتى قيل للأباطيل والترَّهات: خرافات.

● (نفس عصام): يضرب مثلاً لمن يشرُف بالاكتساب لا بالانتساب، ويسودُ بنفسه لا بقومه. وعصام هو الباهلي الذي يقول فيه النابغة:

نفسُ عصامٍ سوَّدتْ عصاما ... وعلَّمَتْهُ الكرَّ والإقداما
وجعلته ملكاً هُماما

وكان الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني يقول: كن عصاميّاً ولا تكن عظامياً. أي: سُدْ بشرف نفسك كما ساد عصام، ولا تتكل على سؤدد آبائك الذين ماتوا وصاروا عظاماً نخرة، فإن الشاعر يقول:

إذا ما الحيُّ عاش بعظمِ ميْتٍ ... فذاك العظمُ حيٌّ وهو مَيْتُ

● (هَوَانُ قُعَيْس): كان قُعيس عند عمَّته في ليلة مطر وقرّ، وكان قد أتى بيتَها ضيفاً، فأدخلت كلبها إلى البيت، وتركت قُعيساً في المطر، فمات من البرد!

● (نومة عبّود): أصل ذلك أن عبوداً تماوت على أهله وقال: اندبوني لأعلم كيف تندبون إذا متُّ.

فغطَّيْنَهُ وندبنه، فإذا به قد مات!

• (واو عمرو) تُضرب مثلاً لما لا يُحتاج إليه.

• (شربة أبي الجهم): يضرب مثلاً للشيء الطيب اللذيد، الرديء العاقبة. وكان أبو الجهم عيناً لأبي مسلم الخراساني على أبي جعفر المنصور، يُراعيه ويُداخله ويحفظ أنفاسه، والمنصور يستثقله ويتبرَّم به ويترصَّد الغوائل له. فبينما هو ذات يوم عنده إذ عطش، فاستسقى، فقال المنصور: يا غلام اسقهِ سَوِيقَ اللوز بالطبرزد. فجاءه بقدح منه وفيه سُمٌّ سريع القتل. فشربه أبو الجهم، ولم يلبث أن حرَّك بطنه، فقام. فقال المنصور: إلى أين يا أبا الجهم؟ فقال: إلى حيث وجهتني يا أبا جعفر. ورجع إلى منزله، وقذف كلَّ شيء في بطنه، وتلف لوقته، فقيل فيه:

تجنَّبْ سَوِيْقَ اللَّوْز لا تشربنَّه فشربُ سويق اللوز أردى أبا الجهم

• (حكاية أبي ديونه): كان زنجياً، وكان يحكي كلَّ صوت وكلَّ هيئة وكلَّ مشية، ويحكي أصوات الدواب والبهائم والطير، فلا يُفَرَّق بين صوته وأصواتها. وكان كما قال ابن الرومي يخاطبه:

حكيتَ القردَ في قبحٍ وسخفٍ وما قصَّرتَ عنه في الحكايهْ

• (أغربة العرب)... وهم أربعة سودان شجعان.. فمنهم عنترة العبسي..

ومنهم عبد الله بن خازم السُّلَمي والي خراسان لعبد الله بن الزبير. ومن عجيب أمره أنه كان نهايةً في الشجاعة والنجدة، وكان يخاف الفأر أشدَّ مخافة! ورأى مرة جرذاً أبيض فتضاءل كأنه فَرْخ، واصفرَّ كأنه جرادة!

• (سهم الإسلام): كان السلف يقولون في وصاياهم: إذا مررتَ بقوم فابدأهم بسهم الإسلام ـ وهو: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

● (خلافة ابن المعتز): تضرب مثلاً فيما لا تطول مدته ويُسرع انقضاؤه، لأنه وليَ الخلافة يوماً وبعضَ يوم، وأدركته حرفة الأدب، فلم يلبث أمره أن انحلَّ في اليوم الثاني! وكان قد بايعه أكثر الناس، وذلك لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة **٢٩٦**هـ.

● (بنات نُصَيب): كان نُصيب عبداً أسود لبني كعب بن ضمرة، وكان شاعراً مفلِّقاً، ولشعره ديباجة، ولما سُئل عنه جرير قال: هو أشعر أهل جلدته. وكان له بنات يشبهنه في الأدمة والدمامة، وكان يحبُّهنَّ جداً، ويربأ بهنَّ عن العجم، ولا يرغب فيهنَّ العرب، فبقين معنَّسات! وصرن مثلاً للبنت يضنُّ بها أبوها، فلا يرضىٰ من يخطبها، ولا يرغب فيها من يرضاه لها!

● (حمار القصَّار)[1]: يضرب به المثل فيمن يصير إلى الخوف وسوء القِرىٰ، فيقال: كان يوم فلان كحمار القصَّار، إن جاع شرب، وإن عطش شرب!

● (كلبُ القصاب): يُضرب مثلاً للفقير يجاور الغنيَّ فيجد من نعيم جاره وبؤس نفسه ما تتنغص معه معيشته. والعامة تقول: «كلاب القصَّابين أسرع عمىً من غيرها بعشرين سنة»! لأنها لا تزال ترى من اللحوم ما لا تصل إليه، فكأن رؤية ما تشتهيه وتُمْنَعُ منه يورثها العمى!

● (رُغْفان المعلِّم): يُضرب بها المثل في اختلاف وشدَّة التفاوت، لأن رغفان المعلِّم تختلف بحسب اختلاف آباء الصبيان في الغنى والفقر والجود والبخل..

● (كذب الدلاّل): يقال إن أمر الدلاّل لا يتمشى بغير الكذب، فهو يثابر عليه. ويقال: لكلِّ أحد رأسُ مال، ورأس مال الدّلال الكذب!

---

(١) القصار هو مبيِّض الثياب.

• (أبو بَراقِش): طائر منقَّش بألوان النقوش، يتلوَّن في اليوم ألواناً، ويُضرب به المثل للمتلوِّن.

وقال الخليل: هو طائر من طير البرِّ يُشبه القنفذ، أعلى ريشه أغبر، وأوسطه أسود وأحمر، فإذا أهيج انتفش وتغيَّر لونه.

• (أبو رياح): تمثالُ فارس من نحاسٍ بمدينة حمص، يدور مع الريح حيث هبَّت، ويمينه ممدودة وأصابعها مضمومة إلا السبّابة، فإذا أشكل على أهل حمص مهبُّ الريح عرفوا ذلك به، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه، ولذلك كُنى بأبي رياح. وقد يقال للرجل الطائش الذي لا ثبات له: أبو رياح، تشبيهاً به.

• (أبو ضَوْطَرى): إذا سبَّت العربُ إنساناً قالت له: أبو ضَوْطرى، وأبو حُباحب، وأبو جخادب.

• (أبو الأخطل): كنية البغل.

• (أم الكتاب): سورة الفاتحة، وقد ألغز فيها الشاعر فقال:

وأُمٌّ لم تلد ولداً وليست بأمِّ الرأسِ يعرفُها اللبيبُ

• (أم الحروف): سمَّى النحويون حروف المدِّ واللين أمَّ الحروف. وأمَّهات الأفعال عندهم: فَعَل وجَعَل وأنشأ وأقبل.

• (أم الطعام): هي الحنطة، لأن لها فضلاً على سائر الحبوب. ومن أبيات كتاب الحماسة:

ربَّيْتُه وهو مثل الفرخ أُطعمه أمَّ الطعام ترى في جلده زَغَبا

• (أم حُبَيْن): هي دويبة على قدر كفِّ الإنسان، تأكل الأعرابُ ما دبَّ ودرج سواها! ولذلك قال فيها من قال:

لَتهنئِنْ أمُّ حبين العافيه

• (ابن الأرض): نبتٌ يخرج في رؤوس الآكام. وله أصل ولا يطول، وهو سريع الخروج، سريع الهَيْج، يُضرب به المثل في سرعة الإدراك والفناء.

• (بنات البطون): هي الأمعاء. يقال للجائع: سكِّن بنات بطنك، إذا أُمر بالأكل.

• (بنات الليل): هي الأحلام، والنساء، والأهوال، والمنايا. وبكلِّها جاء الشعر.

• (بنات التنانير): هي الرُّغفان. وقيل لأعرابي قدم من الحضر فأضافه بعض المياسير: أين كنتَ اليوم؟ وبم اشتغلت؟ فقال: كنتُ والله عند كريم خطير، أطعمني بنات التنانير، وأمها الأباريز (هي التوابل)، وحلواء الطناجير.

• (رغيف الحولاء): من أمثال العرب: أشأم من رغيف الحولاء! وكانت خبَّازة في بني سعد بن زيد بن مناة، فمرَّت وعلى رأسها طبق خبز، فتناول رجلٌ من رأسها رغيفاً، فقالت: والله مالك عليَّ حق ولا استطعمتني فلِمَ أخذتَ رغيفي؟ أما إنك ما أردت بهذا إلا فلاناً ـ تعني رجلاً كانت في جواره ـ فمرَّت إليه شاكية، فثار، وثار معه قومه إلى الرجل الذي أخذ الرغيف وقومه، فقُتل من بينهم ألف نفس! وسار رغيف الحولاء مثلاً في الشيء اليسير يجلب الخَطْبَ الكبير!

• (نكاح أم خارجة): يضرب به المثل في السرعة... فكان يأتيها الخاطب فيقول: خِطْب، فتقول: نِكْح!

ومما ينخرط في هذا السلك ما حدَّث به ابن عائشة قال: كان للحسن بن قيس بن حصين ابنٌ شيعي، وابنةٌ حرورية، وامرأة معتزلية، وأخت مرجئية، وهو سنِّي جماعي! فقال لهم ذات يوم: أراني وإياكم طرائق قِدَدا!

● (سوق العروس): يضرب به المثل في الحُسن..

وكان الخوارزمي إذا وصف جارية بالحُسْن قال: كأنها سوقُ العروس، وكأنها العافية في البدن، وكأنها مائة ألف دينار!

● (أصابع زينب): ضربٌ من الحلواء ببغداد يدعى أصابع زينب. وفيها يقول أبو طالب المأموني:

فما حملت كفُّ الفتى متطعمّاً   ألذَّ وأشهىٰ من أصابع زينبِ

● (عينُ القلب): من ألطف ما قيل فيها قولُ أبي عثمان الناجم:

لئن راح عن عينيَّ أحمدُ غائباً   فما هو عن عين الفؤاد بغائبِ

● (أصابع الأيتام): قال بعض السلف: احذروا أصابع الأيتام. يعني رفعهم إياها في الدعاء على الظالم.

● (حُمْرُ النَّعَم): هي كرائم الإبل، يُضرب بها المثل في الرغائب والنفائس، فيقال: ما يسرُّني به حُمْرُ النَّعَم.

● (بَوْلُ الجمل): يضربُ به المثل في الإدبار، لأنه يبول إلى خلف! قال الشاعر:

وأخلف من بولِ البعير لأنه   إذا هو للإقبال وُجِّه أَدْبَرا

● (بغلة أبي دُلامة): كان لأبي دلامة بغلة مشهورة، يُضرب بها المثل في كثرة العيوب، لأنه قال فيها قصيدة طويلة تشتمل على ذكر عيوبها. ومما ورد فيها:

فأهونُ عيبها أني إذا ما   نزلتُ فقلتُ إمشي لا تُبالي
تقوم فما تسيرُ هناك سيراً   وتَرْمَحُني وتأخُذ في قتالي
وتكسر سَرْجها أبداً شِماساً   وتسقطُ في الرِّمال وفي الوِحال

وتفزعُ من صياح الديك شهراً   وتنفِرُ للصفيرِ وللخيالِ
إذا استعجلتُها عثرتْ وبالتْ   وقامتْ ساعةً عند المبال

● (حمار أبي الهذيل): يُضربُ مثلاً في الأمر الصغير يتكلم فيه الرجل. ومن قصته أن أبا الهذيل دخل على المأمون: فاحتبسه ليأكل معه، فلما وُضعت المائدة وأخذوا في الأكل قال أبو الهذيل: يا أمير المؤمنين، إن الله لا يستحيي من الحق! غلامي وحماري بالباب. فقال: صدقتَ يا أبا الهُذيل. ودعا بالحاجب فقال له: اخرج إلى غلام أبي الهُذيل وحماره فتقدَّمْ بما يُصلحهما. فخرج وفعل.

وكان محمد بن الجهم إذا تعذَّر عليه أمرٌ يقول: إن الذي سخَّر المأمون لحمار أبي الهذيل وغلامه قادرٌ على أن يسهِّل لنا هذا الأمر(١)!

● (داء الأسد): هي الحُمَّى، لأنها كثيراً ما تغزو الأسد، حتى إنه قلَّما يخلو منها ساعة!

● (نكهة الأسد): الأسد موصوف بالبَخَر، وكذلك الصقر.

وقال أحدهم لأبي هفان يوماً: أنا الأسد! فردَّ عليه: ليس فيك من الأسد إلا النكهة!

● (داء الذئب): هو الجوع، فالعرب تقول في الدعاء على العدو: رماه الإله بداء الذئب، لأنه دهرَهُ جائع!

والأسد والذئب يختلفان في الجوع والصبر عليه، لأن الأسد

---

(١) قلت: قد يبتسم القارىء عند قراءته هذا الخبر، وهذا لا بأس به! لكن العبرة فيه أن هذا الرجل العاديَّ عندما قُدِّم له أكلٌ شهيٌّ قد لا يجده في بيته عمرَه كلَّه، لم ينسَ حماره وغلامه أثناء شدة شهوته للطعام.. وكان على المأمون أن يعتبر بهذا، فلا ينسى رعيته ـ وبينهم فقراء معوزون ـ وكان والده خيراً منه.. يبكي إذا ذُكِّر بمثل هذا!

رغيب حريص، وهو مع ذلك يحتمل أن يبقى أياماً فلا يأكل شيئاً، والذئب وإن كان أقفرَ منزلاً وأقلَّ خِصْباً، وأكثرَ كدّاً وإخفاقاً، فلا بدَّ له من شيء يلقيه في جوفه، فربّما استفَّ التراب!

● (بقلة الذئب): هي اللحم، لأن الذئب لا يحوم حول شيء من البقول والنبات، وإنما بقله اللحم لا غير.

وقيل لأبي الحارث: أيُّ البقول أحبُّ إليك؟ قال: بقلة الذئب! قال الشاعر:

الخبز أفضلُ شيء أنتَ آكلُه وأفضلُ البقلِ بقلُ الذئب يا صاحِ

● (كلبةُ حَوْمل): يُضرب بها المثل فيقال: أجوع من كلبة حومل!

وحَوْمل امرأة من العرب، كانت تُربِّى كلبةً لها للحراسة، وتجيعها وتطردها بالنهار...

● (كلب الحارس): يُضرب مثلاً للساقط ينتسب إلى الساقط فيزداد ضَعةً!

● (قتيل الكلاب): هو مِسْمَع بن سنان. سُمِّي بذلك لأنه لجأ في الردَّة إلى قوم من بني عبد القيس، فكان كلبُهم ينبحُ عليه، فخاف أن يدلَّ على مكانه، فقتله، فقُتِل به! فكان ابنه مالك إذا نُسب قيل له: ابن قتيل الكلاب!

● (رَوغان الثعلب): يضرب المثل بخبثه ومكره وحيلته ودهائه...

قال الجاحظ: ومن خبثه ودهائه أن له حيلةً عجيبة في طلب مقتلِ القنفذ، فإنه إذا مدَّ شوكَ فَرْوَتهِ واستدار كأنه كُرَة، قربَ من ظهره فبال عليه! فإذا فعل ذلك انبسط القنفذ! فعندها يقبض على أسفل بطنه!

قال: ومن العجب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله، والثعلب يصيدُ القنفذ فيأكله، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها، والحيَّة تصيد الفأرة فتأكلها، والفأرة تصيد الفراخ وبيضَ كلِّ شيء في مكانه فتأكله، والنحلة تصيد بالذبابة فتأكلها، والذبابة تصيد البعوضة، ولا بدَّ للصائد من أن يُصاد...

● (صيد ابن آوى): يُضرب مثلاً لما يُشَقُّ طلبه ويَصْعُبُ الظفرُ به، فإذا وُجد لم يكن له طائل! قال الشاعر:

كـان ابـنَ آوى وهـو صعـبٌ فـإذا ... ما صِيدَ يوماً لا يُساوي خَرْدَلَهْ!

● (ظباء مكة): يُضرب به المثل في الأمن، لأنها لا تُهاج ولا تُصاد في الحرم لمجاورتها الحرم، فهي ترتع وتلعب آمنة.

● (سِنَّوْر عبد الله): يُضرب مثلاً لمن يكون مرجوّاً في صغره، فإذا كبر تراجع ولم يُفلح. قال الفرزدق:

رأيـتُ الـنـاسَ يـزداودن يـومـاً ... فيوماً في الجميل وأنت تَنْقُصْ

كـمـثـلِ الـهـرِّ فـي صَـغـرٍ يُـغـالـىٰ ... بـه حـتـى إذا مـا شـبَّ يَـرْخُـصْ!

● (فأرة البيش): قال الجاحظ: فأرة البيش دوِيِّبة تغتذي السموم فلا تضرُّها، وحكمُها حكمُ الطائر الذي يقال له السَّمْنَدل، فإنه يدخل في التنور ولا يحترق ريشه!

● (عقوقُ الضَّب): من عقوقها أنها تأكل أولادها! وذلك أن الضبَّة إذا باضت حرست بيضها، فإذا أخرجت أولادها ظنَّتْها شيئاً يريد بيضَها، فوثبت عليها فقتلتها وأكلتها!

ومن العجائب أن الهرَّة تأكل أولادها فتُنسب إلى البِرّ، فيقال: أبرُّ من هرَّة! والضَّبَّة تأكل أولادها فتنسب إلى العقوق، فيقال: أعقُّ عن ضبَّة، ولا يقال: أعقُّ من هرَّة!

● (نَسْو الظَّرْبان): يُضرب به المثل في النَّتْن. والظَّرِبان دوِّيبة فوق جَرْو الكلب، كريهةُ النَّتْن، وأنتنُ خلقِ الله فَسْواً، وقد عرف ذلك من نفسه فجعله سلاحه... وهو يدخل على الضبِّ جحره وفيه بيضه وصغاره، فيأتي أضيق موضع في الجحر فيسدُّه بيده، ويحوِّل دبره إليه، فما يفسو ثلاث فسوات حتى يصرع الضبَّ فيخرَّ مغشياً عليه، فيأكله، ثم يُقيم في جحره حتى يأتي على آخر صغاره!

وتقول الأعراب: ربما دخل بين قطيع من الإبل، فيفسو، فلا يتمُّ له ثلاث فسوات حتى تتفرَّق الإبل وتنْفِر.. فلا يردُّها الراعي! إلا بالجَهْد الشديد؛ فمن أجل هذا سمَّت العرب الظربان مفرِّق النَّعَم!

● (أفاعي سجستان): يضرب بها المثل في الخبث وسوء الأثر!

وقد جاء في عهد أهل سجستان على المسلمين حين افتتحوها: ألاّ يقتلوا قنفذاً ولا يصيدوه؛ لأنها بلاد أفاعي. قال الجاحظ: ولولا كثرة قنافذها لما كان لهم بها قرارٌ ولا إقامة! والقنفذ لا يبالي أيَّ موضع قبضَ من الأفعى، وذلك أنه إن قبض على رأسها أو قفاها فهي مأكولة على أسهل الوجوه، وإن قبضَ على وسطها أو على ذَنَبها جذب ما قَبضَ عليه فاستدار... وطلبُه لها وجرأتُه عليها على قدر هربها منه وضعفها عنه!

● (دودة القز): تُضرب مثلاً فيمن يضرُّ نفسَهُ وينفعُ غيرَه، فيقال: ما فلان إلا دورة القز، وفتيلة المصباح، وعُود الدُّخنة!

● (عضُّ النملة): وهو يُضرب المثلُ بما يُستهان ولا يُبالى به، فيقال: ما عسى أن يكون عضُّ النملة، وقَرْصُ القملة، ولسعُ النحلة، ووقع البقَّة على النخلة، ونُباح الكلاب على السحاب، وما موقع الذُّباب على ذي ناب؟!

● (شَمُّ الذَّرَّة): قال الجاحظ: للذرَّة مع لطافة شخصها وخفَّة وزنها من الشمِّ والاسترواح ما ليس لشيء.

وربما أكل الإنسانُ الجرادَ وما يُشبهه فتسقطُ من يده واحدة، أو رِجْلُ واحدة فيها، وليس يرى بقربه ذرَّة، ولا له بالذرِّ عهد في ذلك المَنزل، فلا يلبث أن يرى الذرَّة قد أقبلت إلى تلك الجرادة. . . فإذا أعجزتها أقبلت وخلفها كالخيط الممدود من الذرّ، حتى يتعاونَّ عليها فيحملنها!

● (صحة الظليم): يقال في المثل: أصحُّ من ظليم ـ وهو ذكرُ النعام ـ لأنه لا يشتكي، فإذا اشتكى لا يلبث أن يموت!

● (شَيْب الغراب): يُضرب مثلاً لما لا يكون، فيقال: لا يكون ذلك حتى يشيب الغراب!

● (خَرْقُ الحمامة): يُتَمثَّل بذلك لأنها لا تُحكم عشَّها، وربما جاءت إلى الغصن في الشجرة فتبني عليه عشَّها في الموضع الذي تهبُّ فيه الريح؛ فبيضُها أضيعُ شيء، وما ينكسرُ منه أكثر مما يسلم!

● (ديكُ مزبِّد): يضربُ مثلاً للحقير يجلب النفع الكثير!

وقصتُه أنه كان لمزبِّد[1] ديكٌ قديم الصحبة، نشأ في داره، وعُرف بجواره. فأقبل عيدُ الأضحى، ووافق من مزبِّد رقَّة الحال، وخلوَّ بيته من كلِّ خَيْر ومَيْر. فلما أراد أن يغدو إلى المصلَّى، أوصى امرأته بذبح الديك، واتخاذ الطعام لإقامة رسم العيد. فعمدت المرأة لتمسكه، فجعل يصيح ويثب من جدار إلى جدار، ومن دار إلى دار، حتى أسقط على هذا من الجيران لَبِنة، وكسر لذلك غضّارة، وقلبَ للآخر قارورة. فسألوا المرأة عن القصة في تعرُّضها له، فأخبرتهم، فقالوا: والله ما نرضى أن يبلغ حال أبي إسحاق (مزبِّد) إلى مانرى ـ وكانوا أجواداً ـ فبعث بعضُهم إلى داره بشاة، وبعضُهم بشاتين، وأنفذَ بعضُهم بقرة، وتغالَوْا في الإهداء، حتى

---

(١) وهو اسم رجل، صاحب نوادر.

غصَّت الدار بالشِّياه والبقر! وذبحت المرأة ما شاءت، ونصبَت القِدْر، وسجرت التنّور، وكرَّ مزبِّد راجعاً إلى منزله، فرأى روائح الشِّواء قد امتزجت بالهواء، فقال للمرأة: أنَّى لكِ هذا الخير؟ فقصَّت عليه قصة الديك، وما ساق الله إليهم ببركته من الخيرات. فامتلأ سروراً وقال لها: احتفظي بهذا العِلْق النفيس، وأكرمي مثواه...

● (رِجْلا الطاوس): يُضرب مثلاً لما يُستقبح من جملة حسنة، لأن رِجْلَي الطاوس قبيحتان جداً، والطاوس هو ما هو في الحسن!

● (صِدْقُ القطاة): يُضرب بها المثل فيقال: أصدقُ من قطاة! لأن لها صوتاً واحداً لا تغيِّره. وصوتها حكايةٌ لاسمها، تقول: قَطَا قَطا.

● (كَمَدُ الحُبارىٰ): يُضرب مثلاً لمن يموت كمداً. وذلك أن الحُبارى تُلقي ريشها كلَّه مرة واحدة، وغيرُها من الطير يُلقي الواحدة بعد الواحدة. والحباري إذا تحسَّرت فترتْ همَّتُها، فإذا نظرت إلى صويحباتها يَطِرْنَ ولا نهوضَ لها فربّما ماتت كمداً.

● (دير هِزْقِل): يضرب به المثل لمجتمع المجانين، وذلك أنه مأوى المجانين بإحدى الديارات، يشدُّون هناك ويداوون.

● (ماء السماء): المنذر بن ماء السماء يُنسب لأمه، وكانت تسمَّى ماء السماء تشبيهاً بها في الحسن والصفاء والطهارة. وهو المنذر بن امرىء القيس بن النعمان بن امرىء القيس بن عدي. وأمُّه من النَّمِر بن قاسط، وأبوها عَوْف بن جُشم.

● (نارُ التهويل): كانت العرب توقد ناراً يهوِّلون بها على الأسود إذا خافوها. والأسدُ إذا عاين النار حدَّق إليها وتأمَّلها، فما أكثرَ ما يشغله عن السابلة!

● (نار الصيد): هي التي توقد للظباء وصيدِها لتَعْشىٰ إذا رامت

النظرَ إليها ولا تخيَّل مَنْ وراءها.

● (نار الحُمَّى): يقال: إن النيران ثلاث: نارٌ تأكل وتشرب وهي نارُ الحُمَّى، تأكل اللحم وتشرب الدم، ونارٌ تأكل ولا تشرب وهي نار الدنيا، ونار لا تأكل ولا تشرب، وهي نار جهنم (نعوذ بالله منها).

● (نارُ الذُّبالة): يشبَّه به الحاسد الذي يضحك لك وهو يحترق حسداً عليك.

● (سَرْوة بُست): كانت بقرية كشمير - من رستاق بُسْت نيسابور - شجرةُ سَرْوٍ ضخمة، من غرس يستاسف، لم يُرَ مثلها طولاً وعرضاً واستواءً ونضارة. وكانت من مفاخر خراسان، إذ لم يكن لها شبيه في الحسن في الآفاق. وكان المَثَلُ يُضرب بها في الحسن والأعجوبة. وكانت ظلالها فرسخاً!

فجرى ذكرُها غيرَ مرَّةٍ في مجلس المتوكل، فأحبَّ أن يراها، وحين لم يقدَّر له النهوض إلى خراسان كتب إلى واليها طاهر بن عبد الله يأمره بقطعها وبعثِ أقطاع جذعِها وأغصانها كلِّها في اللُّبود وحملِها على الجِمال إلى دار الخلافة، لينصبها النجارون بين يديه، حتى لا يفقد أوراقها. فأشار جلساء الوالي عليه بالإضراب عنها، وخوَّفوه عاقبة أمرها، وأخبروه بما في قطعها من المفاسد.. ولكن لم ينفع السروةَ شفاعة، ولم يجد الوالي بدّاً من امتثال الأمر فيها. وأنفذ النجّارين لقطعها، والجمالَ لحملها.

ويحكى أن أهل بُست ضمنوا لطاهر مالاً جزيلاً على إعفائها من القطع، فأبى وقال: لو ضمنتم مكان كلِّ درهم ديناراً لم أقدْر على مخالفة أمر أمير المؤمنين.

ولما قطعت عظمت المصيبة بها على أهل الناحية وارتفعت ضجّاتهم بالبكاء عليها، وقالت شعراؤهم في رثائها.

ثم عُبّئت في اللبود، وحُملت على ثلاثمائة جَمل إلى دار الخلافة.

ولكن قُتل المتوكِّل قبل وصول السَّروة إليه!

● (ريح الجورب): يُضرب مثلاً في النَّتن. قال الشاعر:

أَثني عليَّ بما علمتِ فإنني أُثني عليكِ بمثلِ ريحِ الجوربِ!

● (بقيَّة السيف): قال علي رضي الله عنه: بقيَّة السيف أنمى عدداً وأكثر ولداً. فوُجد ذلك عياناً في ولده وولد المهلَّب، وذلك أنه قتل مع الحسين بن علي رضي الله عنهما عامَّةُ أهل بيته، فلم ينجُ منهم إلا عليُّ بن الحسين بن علي، وإنما تُرك لصغره. فلما أدرك أخرج الله من صلبه الكثير الطيب..

● (خلاخيل الرجال): وهي القيود. قال علي بن الجهم وهو في الحبس:

فلا تجزعي إمّا رأيتِ قيودَه فإن خلاخيل الرجالِ قيودُها

● (ليلة التّمام): ليلة التمام أطول ليلة في السنة. قال امرؤ القيس:

فبتُّ أكابدُ ليلَ التما مِ والقلبُ من خشيةٍ مقشعرّ

● (ليلة الخلافة): هي ليلة لم يتفتّق مثلُها، ويقال لها «ليلة الخلفاء» أيضاً. وكانت ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ: مات فيها خليفة، ووُلد خليفة، واستُخلف خليفة! مات الهادي، ووُلد المأمون، واستُخلف الرشيد.

● (زمن الفِطَحْل): هو زمن الخصب والسَّعة...

وزعموا أن القطا قالت للحَجَل: حَجَل حجَل، كفرس في الجبَل، يَهْمِزُ من خوف الأَجَل!

فقال لها الحجل: قطا قطا، أرى قفاكِ أمعطا، بيضُك ثنتانِ وبيضي مائتا!

● (قمر الشتاء): يُضرب به المثل في الضياع فيقال: أضيع من قمر الشتاء، لأنه لا يجلس فيه كما يُجلس في قمر الصيف. قال ابن حجاج:

غير أني أصبحتُ أضيعَ في القو ... مِ من البدر في ليالي الشتاءِ

● (شمس العصر): تُضرب مثلاً للشيخ المُسِنِّ الذي خَرِف وبلغ ساحل الحياة، فيقال: ما هو إلا شمسُ العَصْرِ على القَصْر!

● (عادة القمر): تُضرب مثلاً لمن لا يجيء إلا ليلاً.

● (أثافيُّ الشرّ): قال الأصمعي: كان جرير والفرزدق والأخطل يسمَّون أثافيَّ الشر، تهاجّوا أربعين سنة!

● (بكاء السرور): السرور إذا أفرط أبكى، والغمُّ إذا أفرط أضحك. قال بعضهم:

وكنتُ أبكي قرير العين من فرحٍ ... والآن من عجبٍ في ضحك مكروبِ

● (جَهْد البلاء)...

يروى أن المأمون قال يوماً لجلسائه: ما جَهْد البلاء؟

فقال عمرو بن مسعدة: طولُ الليلة الساهرة، من خوف ذي البطشة القادرة.

فقال: إن هذا الجَهْد لم يَبْلُغ أن يكون كلَّ الجَهد.

فقال صالح العباسي: جَهْد البلاء زوال النعمة، وانتهاك الحرمة، والأمرُ الغُمَّة.

فقال المأمون: إن الأمر الغُمَّة لناهيك به.

فقال الحجّاج بن خيثمة: بل جَهْدُ البلاء على من غضب عليه أمير المؤمنين فلا يقبلُ له عذراً ولا يَعِدُه صفحاً، فالأرض لا تقلُّه، والسماء لا تُظِلُّه!

فقال ثمامة: جهدُ البلاء جَرْيُ حكمِ جاهلٍ على عالم!

فقال المأمون: ينبغي أن يكون لحديثك قصة!

قال: نعم يا أمير المؤمنين! حبسني الرشيد ووكَّل بي مسروراً، فمنعني النعاسَ، وقربَ الناس.

ثم دخل عليَّ يوماً وهو يقرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ - لعله بضمِّ التاء! - ويقول: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ - بفتح الذال - فقلت: إن المكذَّبين هم الرسل، والمكذِّبين قومُهم. فقال: قد قيل لي إنك قَدري ولكني لم أصدِّق إلا الآن!

فأيُّ جَهْد يكونُ أجهدَ من هذا؟!

فقال المأمون: صدقت يا ابن معن!

● (جِلْسَة الخطيب): تَمَثَّلَ بها في الخِفَّة بعض الظرفاء فقال: جِلْسة فلانٍ عندي أخفُّ من جلسة الخطيب فيما بين الخطبتين!

● (خبط الفيل): يُضرب به المثل في ثِقْل الوطأة. وكانت الأكاسرة ربما قتلت الرجلَ بوطء الأفيلة، وكانت قد دَرِبَتْ على ذلك وعلمتْ، فإذا أُلقي إليها الرجلُ تركت العَلَف وقصدت نحوه فضربتْهُ بخراطيها وخبطته بقوائمها حتى يموت! وكان ممن ألقي تحت أرجل الفيلة النعمان بن المنذر.

● (داءُ الكِرام): كناية عن الدَّيْن؛ لأن الكرام كثيراً ما يُبْتَلون به.

● (سِرُّ الزُّجاجة): يُضرب مثلاً لما لا يُكتمُ من الأسرار، لأن الزجاجة جوهر لا يُكتم فيه شيء.

● (صحبةُ السفينة): يُضرب مثلاً في الصحبة التي لا صداقة معها. وذلك أن الناس ربما تصاحبوا في السفينة، ثم لا يتصادقون بعدها. قال الشاعر:

من غاب عنكم نسيتموه ... وروحُه عندكم رهينهْ
أظنُّكم في الوفاءِ ممَّن ... صُحْبَته صحبةُ السفينهْ!

● (مجالس الكرام): كان أبو مسلم الخولاني ـ رحمه الله ـ يُكثر الجلوس في المساجد ويقول: المساجد مجالسُ الكرام

● (مفتاح النجاح): قال لبعض الحكماء: مفتاح النجاح الصبرُ على طولِ مدَّته.

● (معترك المنايا): هو ما بين الستين إلى السبعين من أعمار الناس.

● (مَدْرَجة الشَّرَف): قال أكثم بن صينعي: المناكح الكريمة مدارجُ الشرف.

● (جنَّة الدنيا): كان يقال للشام جنَّةُ الدنيا. ولما أفرجَ هرقل عن بلاد الشام للمسلمين وخرج منها هارباً إلى الروم، بكى حتى اخضلَّت لحيتُه وغُشي عليه! فلما أفاق قال: السلام عليك يا سوريّا، يا جنة الدنيا، سلامَ غيرِ مُلاقٍ!

● (جنَّةُ عَدْن): من الأبيات السائرة على وجه الأرض قول القائل:

الموتُ بابٌ وكلُّ الناس داخلُه ... يا ليت شعري بعدَ الباب ما الدارُ

الجواب:

الدارُ جنَّةُ عَدْنٍ إن عملتَ بما ... يُرضي الإلَه وإن خالفتَ فالنارُ

الحدائق الغناء في أخبار النساء(*)
لابن جميل

● قال أحمد بن أبي الحواري: سمعت مؤمنة بنت بهلول ـ

(*) الحدائق الغناء في أخبار النساء/ تأليف أبي الحسن علي بن محمد المعافري المالقي؛ تحقيق وتقديم عائدة الطيبي ـ ليبيا؛ تونس: الدار العربية للكتاب، ١٣٩٨هـ، ٢١٠ص.

عدت المحققة هذا الكتاب ذا قيمة مضاعفة، إذ هو النسخة الوحيدة لكتاب يكاد يكون فريداً في بابه، كتاب صنفه مؤلفه في القرن السادس الهجري بغرض واحد، ألا وهو جمع أخبار في مجلد واحد عن عدد من النساء اللواتي برزن في وقتهن بحيث خلدن أسماءهن على صفحات التاريخ.

ولم تنشر المحققة المخطوط بأكمله، المؤلف من (١١) جزءاً لطيفاً، بل أوردت (٩) منها فقط، واستبعدت الأول والثاني المخصص حديثهما عن حواري السيد المسيح وحواء، عليهما السلام. والعاشر يروي قصة بلقيس وسليمان عليه السلام، والحادي عشر يدور حول أيوب عليه السلام وزوجته.

والمؤلف هو علي بن محمد بن علي بن جميل المعافري، ينتسب إلى قبيلة معافر اليمنية الشهيرة. وهو أندلسي الأصل والمنشأ، من أهل مالقة، قرأ على شيوخها، ورحل إلى المشرق، واستقر في القدس. ولما افتتحها صلاح الدين بحث عن إمام يكون خطيبه وصاحب الصلاة به، فأجمع العلماء على اختيار ابن جميل. فاستمر معروف الجلالة إلى أن توفي بها. وكان ورعاً، حافظاً للحديث، عارفاً بالقراءات، علامة في النحو، حسن الخط. عندما توفي لم يتخلف عن جنازته أحد، حتى إن النصارى الذين كانوا بالكنيسة اتبعوا جنازته ورموا بعض ثيابهم على نعشه... توفي سنة ٦٠٥هـ.

وهي زاهدة دمشق ـ تقول: الغافل ينام ولا يقوم، ولا تطيب ساعةٌ لا يكون فيها ذكرُ الله عز وجل.

● ميسون بنت بحدل الكلبية كانت بدوية لبيبة، ولما زوِّجت من معاوية بن أبي سفيان ونقلت إلى دمشق وأسكنت قصراً من قصور الخلافة، حنَّت ذات يوم إلى البادية فأنشأت تقول:

لَلبسُ عباءةٍ وتَقَرُّ عيني ... أحبُّ إليَّ من لُبس الشفوفِ
وبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيه ... أحبُّ إليَّ من قصرٍ منيفِ
وكلبٌ ينبحُ الطرَّاقَ عني ... أحبُّ إليَّ من هرٍّ ألوفِ

. . . ثم إن معاوية طلَّقها وألحقها بأهلها.

● خطب نائلة بنتَ الفرافصة قومٌ من قريش بعد موت زوجها الخليفة عثمان، فدعت بمرآة، فنظرت فيها، وكانت من أحسن الناس ثغراً، فأخذت حجراً، فدقَّت به أسنانها، فسال الدمُ على صدرها، فبكى جواريها وقلن لها: ما صنعتِ بنفسك؟ قالت: إني رأيتُ الحزن يبلىٰ كما يبلىٰ الثوب، وإني خفتُ أن يبلى حزني على عثمان فيطّلع مني رجلٌ ما اطّلع عليه عثمان، وذلك ما لا يكون أبداً.

● عن طعمة بن عمرو ـ وكان رجلاً قد يبس وشحب من العبادة ـ فقيل له: ما شأنك؟ قال: إني كنتُ حلفت أن ألطم عثمان، فلما قُتل جئتُ فلطمتُه، فقالت لي امرأته: أشلَّ الله يمينك، وصَلَىٰ وجهكَ النار. فقد شُلَّت يميني، وأنا أخاف!

● قال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ لأم الدرداء الصغرى: لا تسألي أحداً شيئاً. قالت: إن احتجتُ؟ قال: تتبَّعي الحصّادين فانظري ما يسقط منهم، فخذيه فاخبطيه ثم اطحنيه ثم اعجنيه ثم كُليه، ولا تسألي أحداً شيئاً.

● وتقول أم الدرداء: إذا أتى أحدَكم شيء فليقبل، فإن كان

غنياً عنه فليضعه في ذي الحاجة من إخوانه، وإن كان إليه محتاجاً فليستعن به عن حاجته ولا يردَّ على الله تعالى رزقه الذي رزقه.

● عُرِضت على معاوية جارية فأعجبته، فسأل عن ثمنها فإذا ثمنها مائة ألف درهم. فابتاعها، ونظر إلى عمرو بن العاص فقال: لمن تصلح هذه الجارية؟ فقال: لأمير المؤمنين. قال: ثم نظر إلى غيره، فقال له كذلك. فقال: لا. فقيل: فلمن؟ قال: للحسين بن علي بن أبي طالب، فإنه أحقُّ بها لما له من الشرف، ولما كان بيننا وبين أبيه. فأهداها له. فأمر من يقوم عليها، فلما مضت أربعون يوماً حملها وحمل معها أموالاً عظيمة وكسوة وغير ذلك وكتب: إن أمير المؤمنين اشترى جارية فأعجبته فآثرك بها.

فلما قدمت على الحسين بن علي دخلت عليه، فأعجب بجمالها فقال لها: ما اسمك؟ فقالت: هوى. قال: أنت هوى كما سميّت، هل تحسنين شيئاً؟ قالت: نعم، أقرأ القرآن وأنشد الأشعار. قال: اقرئي: فقرأت: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[1] قال: أنشديني. قالت: ولي الأمان؟ قال: نعم. فأنشأت تقول:

أنتَ نِعمَ المتاعُ لو كنتَ تبقى ... غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسانِ

فبكى الحسين ثم قال: أنت حرة، وما بعث به معاوية معك فهو لك. ثم قال لها: هل قلتِ في معاوية شيئاً؟ فقالت:

رأيت الفتىٰ يمضي ويجمعُ جهده ... رجاءَ الغنىٰ والوارثونَ قُعُودُ
وما للفتى إلا نصيبٌ من التُّقى ... إذا فارقَ الدنيا عليه يعودُ

فأمر لها بألف دينار وأخرجها. ثم قال: رأيت أبي أمير المؤمنين كثيراً ما يُنشد:

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

ومن يطلب الدنيا لحالٍ يسرّهُ فسوف لعمري عن قليل يلومُها
إذا أدبرت كانت على المرء فتنةً وإن أقبلت كانت قليلاً دوامُهَا

ثمَّ بكى، وقام إلى صلاته!

● خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أم أبان بنت عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس فأبته، فقيل: ولِمَ؟ قالت: إن دخل دخل ببأس، وإن خرج خرج ببأس، قد أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه، كأنه ينظر إلى ربه بعينه.

ثم خطبها الزبير بن العوّام رضي الله عنه فأبته، فقيل لها: ولِمَ؟ قالت: ليس لزوجته منه إلا شارة في قراملها.

ثم خطبها علي رضي الله عنه، فأبت، فقيل لها: ولِمَ؟ قالت: ليس لزوجته منه إلاّ قضاء حاجته ويقول: كنت وكنت، وكان وكان.

ثم خطبها طلحة، فقالت: زوجي حقاً. قالوا: وكيف ذلك؟ قالت: إني عارفة بخلائقه؛ إن دخل دخل ضحاكاً، وإن خرج خرج بسّاماً. إن سألت أعطى، وإن سكتّ ابتدأ، وإن عملتُ شكر، وإن أذنبتُ غفر. فلما ابتنى بها قال علي: يا أبا محمد إن أذَنْتَ لي أن أكلم أم أبان، قال: كلّمها، قال: فأخذ سجف الحجلة ثم قال: السلام عليك يا غريرة نفسها، قالت: وعليك السلام. قال: خطبك أمير المؤمنين وسيد المسلمين فأبيته؟! قالت: كان ذلك. قال: وخطبك الزبير ابن عمّة رسول الله ﷺ وأحد حواريه فأبيته؟! قالت: وقد كان ذلك. قال: وخطبتك أنا وقرابتي من رسول الله ﷺ. قالت: قد كان ذلك. قال: أما والله لقد تزوّجت أحسننا وجهاً، وأبذلنا كفاً، يعطي هكذا وهكذا.

● دخلت عَزَّة كثيِّر على أم المؤمنين أخت عمر بن عبد العزيز فقالت لها: ما سبب قول كثير:

قضى كلُّ ذي دَيْن علمتُ غريْمَهُ وعَزَّةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها

قالت: كنتُ وعدتُه قبلةً فتحرَّجتُ منها!

فقالت أم البنين: أنجزيها وعليَّ إثْمُها!

قال: فندمت أم البنين على قولها هذا، فأعتقت لكلمتها هذه سبعين رقبة!

● كانت أم سعيد بنت سعيد بن عثمان بن عفان عند هشام بن عبد الملك، ثم طلَّقها فندم على طلاقها! فتزوَّجها العباسُ بن الوليد بن عبد الملك، ثم طلَّقها وندم على طلاقها!

فتزوَّجها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فدَّس إليها العباسُ أشعبَ بأبيات قالها وقال له: إن أنشدتها إياها فلك ألف دينار. قال: فأتاها فأنشدها، فقالت له: دسَّك العباسُ وجعل لك ألف دينار؟ فأخبره عنِّي ولك ألف دينار! ثم قالت: وما قال؟ فقال: قال:

أسعدةُ هل إليكِ لنا سبيلٌ ولا حتى القيامة من تلاقِ

قالت: إن شاء الله. فقال:

بلى فلعلَّ دارَكِ أن تُوافىٰ بموتٍ من حليلكِ أو فراقِ

قالت: بفيك الحجر. قال:

فأرجعَ شامتاً وتقرَّ عيني ويُجمع شملُنا بعد انشقاق

قالت: بل يشمت بك إن شاء الله!

● أم مسلم الخولانية زوجة أبي مسلم العالم الرباني، مات عنها، وتزوجت بعده عمرو بن عبد.. ثم سُئلت: أي الرجلين أفضل؟ قالت: أما أبو مسلم فإنه لم يكن يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وأما عمرو بن عبد فإنه كان يُنار عليه في محرابه، حتى إني

كنت أختدم على ضوء نوره من غير مصباح!

● روى الأصمعي عن ابن أبي الزناد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو أدركتُ عفراء وعروة جمعتُ بينهما!

وعفراء بنت عقال العدوية هي صاحبة عروة بن حزام وابنة عمه، كانت بنواحي بُصرىٰ، وهي شاعرة، وكان بينهما حب، وكانت متزوجة من غيره.. ثم إنها ناحت عليه بأبيات حتى ماتت.

● أنشد الحسن بن رشيق لنفسه:

في الناس من لا يُرتجى نفعُه إلا إذا مُسَّ بإضرارِ
كالعودِ لا يُطمع في طِيْبهِ إن أنت لم تمسسْه بالنارِ

● وأنشد أبو الحسن علي بن أحمد الأندلسي لنفسه:

وسائلةٍ لتعلمَ كيف حالي فقلتُ لها بحالٍ لا تُسَرُّ
دُفعتُ إلى زمانٍ ليس فيه إذا فتشْتَ عن أهليه حُرُّ

● حدَّث الأصمعي قال: دخلتُ في الطواف عند السّحَر، فإذا أنا بغلام شاب حسن الوجه، حسن القامة، عليه شملة، وله ذؤابتان، وهو متعلق بأستار الكعبة يقول:

ألا أيها المأمول في كلِّ ساعةٍ شكوتُ إليك الضُّرَّ فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت كاشف كربتي فهب لي ذنوبي كلَّها واقضِ حاجتي
فزادي قليلٌ ما أراه مبلِّغي أللزادِ أبكي أم لبُعدِ مسافتي
أتيتُ بأعمالٍ قِباحٍ رديئةٍ فما في الورىٰ خلقٌ جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنىٰ فأين رجائي ثم أين مخافتي

قال: فتقدمتُ إليه وكشفتُ عن وجهه، فإذا به الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب! فقلت: يا سيدي، مثلُك من يقول

هذه المقالة؟ وأنت من بيت أهل النبوة ومعدن الرسالة؟

قال: هيهات يا أصمعي! إن الله خلق الجنة لمن أطاعه وإن كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه وإن كان ولداً قرشياً. أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾[1].

● دخلت عَزَّة على عبد الملك بن مروان، وهو لا يعرفها، ترفع مظلمةً لها. فلما سمع كلامها تعجَّب منه! فقال له بعض جلسائه: هذه عَزَّة كثيِّر. فقال عبد الملك: إن أردت أن أردَّ عليك مظلمتكِ فأنشديني ما قال فيك كثير. فاستحيت وقالت: والله ما أعرف كثيِّراً، لكني سمعتهم يحكون عنه أنه قال فيَّ:

قضىٰ كلُّ ذي دَيْنٍ علمتُ غريمَهُ وعَزَّةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها

فقال عبد الملك: ليس عن هذا أسألك، ولكن أنشديني من قوله:

وقد زعمتْ أني تغيّرتُ بعدها ومن ذا الذي يا عَزُّ لا يتغيَّرُ
تغيَّر جسمي والخليقةُ كالذي عهدتِ ولم يُخبَرْ بسرّك مُخبَرُ

قالت: قد سمعت هذا، ولكني سمعت الناس يحكون عنه أنه قال فيّ:

كأني أنادي صخرةً حين أعرضتْ من الصمِّ لو تمشي بها العصمُ زلَّتِ
صفوحٌ فما تلقاكَ إلا بخيلةً فمن ملَّ منها ذلك الوصلَ ملَّتِ

فقضى حاجتها وردّ مظلمتها وقال: أدخلوها على الجواري يأخذن من أدبها!

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.

● قالت أم البنين ابنة عياض بن الحسن الأسلمية:

سارت علينا عزّة في جماعة من قومها، فنزلت على بئر ابن يَربْوعٍ الجهني، فسمعنا بها، فاجتمعت جماعة من نساء الحاضر أنا فيهن فجئناها. فرأينا امرأة حُميَراء حلوة لطيفة. فتضاءلتُها ومعنا نسوة كلهنّ لهنّ الفضل عليها في الجمال والخلق، إلى أن تحدّثت عزّة، فإذا هي أبرع الخلق وأحلاه حديثاً. فما فارقناها إلا ولها الفضل في أعيننا، وما نرى أن امرأة تفوقها حسناً وجمالاً وحلاوة.

● دخل كُثَيِّر على عبد الملك بن مروان ـ وكان كثيّر دميماً ـ فلما نظر إليه عبد الملك قال: تسمع بالمُعَيْديّ لا أن تراه، فقال كثير:

ترى الرجل النحيفَ فتزدريه ... وتحتَ ثيابه أسدٌ يزيرُ
ويعجبُك الطوير فتبتليه ... فيُخلفُ ظنك الرجلُ الطرير
وما عِظَمُ الرجالِ لها بزَينٍ ... ولكنْ زَيْنُها كرمٌ وخيرُ
فقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ ... فلم يستغنِ بالعِظَمِ البعير
يُصَرِّفُه الصبيُّ بكل وجهٍ ... ويحملُه على الخسف الجريرُ
شرارُ الأسدِ أكثرُها زئيراً ... وخيرتُها اللواتي لا تزير
بُغاثُ الطير أكثرُها فراخاً ... وأمّ الصقرِ مِقلاتٌ نَزورُ

فقال عبد الملك: إن كنا أسأنا لك اللقاء فلسنا نسيء لك الثواب، فاذكر حاجتك. فقال: حاجتي أن تزّوجني عزّة.

فوجّه إلى أهلها، فأحضرهم وأمرهم بتزويجه إياها. فقالوا: يا أمير المؤمنين، هي امرأة بالغ لا يُولّىٰ على مثلها، ونحن نعرض ذلك عليها، فإن أجابت إليه امتثلناه.

فأمر بإحضارها، فأحضرت. فعرض عليها التزويج به، فقالت: بعد ما شهرني في العرب وشبّب بي فأكثر ذكري؟ ما إلى هذا سبيل!

فقال لها: فإذا أبيت هذا وكرهته فاكشفي وجهك.

فثقل ذلك عليها، ثم فعلت ومضت مكشوفة الوجه إلى بعض حجر عبد الملك. فدخلت الحجرة ونظرت إلى كثير مغضبة، فقال بعض من حضرها: جُنّت جُنّت. فأنشأ كثير يقول:

أصاب الردىٰ من كان يهوىٰ لكِ الردىٰ ... وجُنَّ اللواتي قلن عَزَّةُ جُنَّتِ
فهنَّ لأولىٰ بالجنونِ وبالخنا ... وبالسيئاتِ ما حيينَ وحيّت
ولما رأت من حولها نقص الحيا ... رمتني بباقي وصلها ثم ولَّت
أسيئي بنا أو أحسني لا ملومةٌ ... لدينا ولا مقليَّةٌ إن تقلَّت

فحلف أن لا تكلِّم كثيِّراً سنة...

● وخرج كثيِّر يريد عبد العزيز بن مروان، فأكرمه ورفع منزلته وأحسن جائزته، وقال: سلني ما شئت من الحوائج!

قال: نعم، أحب أن تنظر لي من يعرف قبر عَزَّة فيقفني عليه.

فقال له رجل من القوم: إني لعارف به! فوثب كثير فقال لعبد العزيز: حاجتي أصلحك الله.

فانطلق به الرجل حتى انتهى إلى موضع قبرها، فوضع يده عليه وعيناه تجري وهو يقول:

وقفت على ربعٍ لِعزَّة ناقتي ... وفي البُرْد رشّاشٌ من الدمعِ يسفَحُ
فيا عزُّ أنتِ البدرُ قد حال دونه ... رجيعُ التراب والصفيحُ المضرَّحُ
وقد كنتُ أبكي من فراقك خيفةً ... وأنتِ لعمري اليومَ أنأىٰ وأنزحُ
ألا لا أرى بعد ابنةِ النَّضر لذَّةً ... لشيءٍ ولا مِلْحاً لمن يتملَّحُ
فإن التي أحببتُ قد حال دونها ... طوال الليالي والضريحُ المصفَّحُ
أربُّ بعيني البكا كلَّ ليلةٍ ... فقد كاد مجرى دمع عيني يَقْرَحُ

● نظرت فاطمة بنت الحسين إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن، ثم غطَّت وجهها وقالت:

وكانوا رجاءً ثم أمسَوا رزيَّةً لقد عَظُمَتْ تلك الرزايا وَجَلَّتِ

● قال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان: جمعتنا أمُّنا فاطمة بنت الحسين فقالت: يا بَنيَّ، إنه والله ما نال أحدٌ من أهل السَّفه بسفههم ولا أدركوه من لذَّاتهم إلا وقد أدركه أهل المروءات بمروءاتهم، فاستتروا بجميل ستر الله.

● يُروى عن سُكينة بنت الحسين أنها جاءت وهي صغيرة إلى أمها وهي تبكي فقالت لها: مالك؟ فقالت: مرَّت بي دُبَيْرة، فلسعتني بأُبَيْرة، فأوجعتني قُطَيرة!

● قال عبد الله بن مسلم: حدثني أبي قال: كنت في مجلس ضمَّ أشرافاً من قريش، فتذاكروا الخنساء وليلى الأخيلية، ثم أجمعوا على أن الأخيلية أفصحهما، فشهدوا كلاً للأخيلية بالفصاحة.

● مدحت ليلى الأخيلية الحجاج بأبيات فقال: قاتلها الله! ما أصاب صفتي شاعرٌ منذ دخلتُ العراق غيرُها.. ثم قال: يا غلام، اذهب بها إلى فلان فقل له اقطع لسانها.

فذهب فقال له: يقول لك الأمير اقطع لسانها.

فأمر بإحضار الحجَّام، فالتفت إليه فقالت له: ثكلتك أمك! أما سمعت ما قال؟ إنما أمرك أن تقطع لساني بالبر والصلة!

فبعث إلى الحجاج يستثبته، فاستشاط الحجاج غضباً، وهمَّ بقطع لسانه! فقال: اردها. فلما دخلت عليه قالت: كاد وأمانة الله أيها الأمير أن يقطع مِقْوَلي! ثم أنشأت تقول:

حجاجُ أنت الذي ما فوقه أحدُ إلا الخليفةُ والمستغفَرُ الصَّمدُ
حجاجُ أنت شهابُ الحرب إن لقحتْ وأنت للناس نورٌ في الدجى يَقِدُ

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها الأمير، إلا إننا لم نرَ امرأة قط أفصح لساناً، ولا أحسن محاورة، ولا أملح وجهاً، ولا أرصن شعراً منها! فقال: هذه ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبّها...

● وخرج زوج ليلى الأخيلية بها، فمّرا على قبر توبة، فقال لها: يا ليلى، هذا الذي يقول فيك:

فلو أن ليلى الأخيلية سلمتْ   عليَّ وفوقي تربةٌ وصفائحُ
لسلمتُ تسليمَ البشاشة أو زقا   إليها صدىً من جانب القبر صائحٌ

فقال: أنت طالق إن لم تسلمي عليه حتى أنظر ما يردُّ عليك! فقالت: وما دعاك إلى عظامٍ قد رُمَّت؟ قال: هو ما سمعتِ!

فدنت منه فقالت: السلام عليك يا توبة، فتى الفتيان وسيد الشبان.

وكانت قطاةٌ قد عششت في جانب القبر، فلما سمعت الصوت نفرت فخرجت تقول: «قطا قطا». فلما سمعت ناقة ليلى الصوت نفرت بليلى، فسقطت واندقت عنقها، فدفنت إلى جانبه!

وقيل إنها ماتت بعد المرور على قبره بأيام.

● قال بعض المحدثين في معاتبته بعض ذوي الخيانة من الإخوان:

وكنتَ أخي بإخاء الزمان   فلما انقضىٰ صرتَ حرباً عوانا
وكنتُ أعدُّك للنائباتِ   فها أنا أطلبُ منك الأمانا

الدرُّ المنظوم فيما يزيل الهموم والغموم(*)
للإقليشي

- **في الكلمة الواحدة:**

ـ قيل لبعض الزهاد: دلَّنا على موعظة واحدة تكون أبلغ المواعظ.

فقال: عليك بالنظر في محلَّة الأموات!

(*) الدرُّ المنظوم فيما يزيل الهموم والغموم/ تأليف أحمد الإقليشي؛ تحقيق أبي حذيفة إبراهيم بن محمد ـ طنطا: دار الصحابة للتراث، ١٤١٠هـ، ٨٦ص.

وصايا وآداب وحكم، ووعظ وإرشاد، كلها دينية، جعلها المؤلف في عشرة فصول، بدأها بالحكم والوصايا التي تتألف من كلمة واحدة، وثناها في الفصل الثاني بذوات الكلمتين، إلى أن ختمها في الفصل العاشر بذات العشر الكلمات.

ويذكر بإيجاز في مقدمته أن كتابه هذا «يعذب للمسامع، ويزيد في عقل اللبيب البارع، وينتقل من العقول إلى الصدور..».

والمؤلف هو أحمد بن معد بن عيسى التُّجيبي ثم الوافي المالكي، شهاب الدين، أبو العباس، المعروف بالإقليشي. ولد بإقليش إحدى مدن الأندلس، ونشأ بها، ورحل إلى المشرق، وتوفي بقوص من صعيد مصر، وقيل بمكة. وهو عالم مشارك في أنواع العلوم، كالحديث واللغة والأدب. من تصانيفه الأخرى: النجم من كلام العرب والعجم، شفاء الظمآن في فضل القرآن، أنوار الآثار في فضل النبي المختار، حلي الأولياء. ت ٥٥٠هـ.

ـ قال الفضيل بن عياض رحمه الله.

جُعل الشرُّ كله في بيت واحد، وجُعل مفتاحه حبُّ الدنيا.

وجعل الخيرُ كلُّه في بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

● **في الكلمتين:**

ـ قال رسول الله ﷺ: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**.

متفق عليه.

ـ قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: من أراد التوبة فليترك شيئين: يترك المظالم، ويترك مخالطة من كان مخالطه، وإلا لم ينل ما يريد.

ـ قال عبد الله بن المعتز: شيئان لا أدري أيُّهما أفضل: موت الغني، أو عيش الفقير!

ـ قال بعضهم: خصلتان يسود بهما العبد: بذلُ المال، والتجاوز عن زلل الإخوان.

ـ قال إبراهيم النخعي رحمه الله: ما أوتي العبد بعد الإيمان بالله عز وجل أحبَّ إلى الله تعالى من خصلتين: توبةٍ من ذنب، ودعوةٍ من قلب.

ـ قال لقمان لابنه:

شيئان لا تذكرهما: إحسانك إلى الناس، وإساءتهم إليك.

وشيئان لا تنسهما: ذكر الله، والموت.

ـ روى أن موسى عليه السلام قال: يا رب، كيف أعرف من أحببتَ ممن أبغضت؟

قال: يا موسى، إني إذا أحببتُ عبداً جلعت فيه علامتين.

قال: يا رب وما هما؟

قال: ألهمه ذكري لكي أذكره في ملكوت السماوات، وأعصمه عن محارمي كيلا يحلَّ عليه عذابي ونقمتي.

ما موسى، إني إذا أبغضت عبداً جعلت فيه علامتين.

قال: يا رب وما هما؟

قال: أنسيه ذكري، وأخلِّي بينه وبين نفسه لكي يقع في محارمي وسخطي فيحلَّ عليه عذابي!

● **في الثلاثة:**

ـ قال بشر الحافي: الجوع يورث ثلاثة أشياء: يصفِّي الفؤاد ويميت الهوى، ويورث العلم الدقيق.

ـ قال رجل لابنه: يا بني، اجتنب صحبة ثلاثة..: الفاسق: فإنه يشغلك بأكلهِ وشربهِ، والجبار: فإنه يشتمك ويشتم والديك، والبخيل: فإنه يخذلك أحوجَ ما كنت إليه.

ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثة أخلاق كانت في الجاهلية والمؤمنون أولى بها:

أحدها: أنهم كانوا إذا نزل بهم ضعيف اجتهدوا في برِّه.

الثاني: كانوا إذا تزوجوا امرأة فكبرت عندهم لا يطلِّقونها مخافة أن تضيع.

الثالث: كانوا إذا لحقَ جارهم دَيْن أو أصابته شدةٌ اجتهدوا في

قضائه وأخرجوه من تلك الشدة.

- وعن حاتم الأصم - رحمه الله: أنه قال: ثلاث إذا كنَّ في مجلس فالرحمة عنهم مصروفة: ذكر الدنيا، والضحك، والوقيعة في الناس.

- وعن يحيى بن معاذ أنه قال: ليكن حظُّ المؤمن منك ثلاثَ خصال تكن من المحسنين، أحدها: أنك إن لم تنفعه فلا تضرَّه، والثانية: إن لم تسرَّه فلا تغمَّه، والثالثة: إن لم تمدحه فلا تذمَّه.

- وقال سهل التستري - رحمه الله -: العلماء ثلاثة:

عالمٌ بأمر الله لا بأيَّامه، وهم المفتون في الحلال والحرام، وهذا علم لا يورث الخشية.

وعالم بالله وبأيام الله، وهم الصدِّيقون، فالخشية والخشوع إنما تغلب عليهم. وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السابقة.

فمن أحاط عليه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه. (وهو الثالث).

- وقال حاتم الأصم - رحمه الله -: الشهوات ثلاث: شهوةُ الأكل، وشهوة الكلام، وشهوة النظر؛ فاحفظ الأكلَ بالصدقة، واللسانَ بالصدق، والنظرة بالعبرة.

- قال عمار بن ياسر رضي الله عنه: الناس ثلاثة: رحماني، ونفساني، وشيطاني.

فالرحماني همَّتُه الشوق.

والنفساني قائم في هواه.

والشيطاني يغرِّر للعصاة.

ـ وقال أيضاً: أشدُّ الحسرات يوم القيامة على ثلاثة:

رجل مملوك يدخل الجنة ومولاه لا يدخل!

ورجل جمع مالاً فمنع منه حقَّ الله، فيموت، فينفقه ورثته في الطاعة، فينجون به، والذي جمعه في النار!

ورجل عالم ينجو الناسُ بعلمه وهو يصير إلى النار!

ـ وقال بعضهم: ثلاثة أشياء من طابع الجهّال: الغضب من غير شيء، والإعطاء في غير حق، وترك التميز بين العدو والصديق.

ـ وقالوا: ثلاثة تورث المحبة: الدين، والأدب، والتواضع.

وثلاثة تكسب المقت: الكبر، والبخل، والظلم.

ـ جاء رجل إلى حاتم الأصم فقال: يا أبا عبد الرحمن، أي شيء رأس الزهد، ووسط الزهد، وآخر الزهد؟

فقال: رأس الزهد الثقة بالله. ووسط الزهد الصبر، وآخر الزهد الإخلاص.

ـ وقال بعضهم: ثلاثة يمتحن بها عقولُ الرجال: كثرة المال، والولاية، والمصيبة.

ـ وثلاثة تهدم القوى: فقدُ الأحبَّة، والفقر في الغربة، ودوام الشدة.

ـ الشاكرون على ثلاثة مراتب: فمنهم من يشكر الله رغبة في ثوابه، ومنهم من يشكره رهبة من عقابه، ومنهم من يشكره تلذذاً بالثناء عليه.

● **في الأربعة:**

ـ عن محمد بن جعفر ـ رحمه الله ـ أنه قال: عجبت لمن

ابتلي بأربع كيف يغفل عن أربع:

عجبت لمن يبتلى بالهم كيف لا يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[(١)].

وعجبت لمن خاف شيئاً كيف لا يقول ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾[(٢)].

وعجبت لمن يُمْكَرُ من الناس كيف لا يقول: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾[(٣)].

وعجبت لمن رغب في الجنة كيف لا يقول:

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾[(٤)].

ـ وقال بعضهم: قساوة القلب في أربعة أشياء: أحدها: بطن ممتلىء، والثاني: صحبة صاحب السوء، والثالث: نسيان الذنوب الماضية، والرابع: طول الأمل.

ـ قال بعض الحكماء: أربعة طلبناها فأخطأنا طريقها:

طلبنا الغنى في المال فإذا هو في القناعة.

وطلبنا الراحة في الكثرة فإذا هي في القلة.

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٣) سورة غافر: الآيتان ٤٤ ـ ٤٥.

(٤) سورة الكهف: الآيتان ٣٩ ـ ٤٠.

وطلبنا الكرامة من الخلق فإذا هي في التقوى.

وطلبنا النعمة في الطعام واللباس فإذا هي في الستر والسلامة. يعني ما يستر من الذنوب والعيوب.

- أربعة لا يثبت معها الملك: غش الوزير، وسوء التدبير، وخبث النية، وظلم الرعية.

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أربعة لا أقدر على مكافأتهم:

رجل بدأني بالسلام.

ورجل وسع لي في مجلسي.

ورجل اغبرَّت قدماه في حاجتي.

وأما الرابع، فلا يكافئه إلا الله. قيل: ومن هو؟ قال: رجل نزل بدار فبات مفكراً ليلته بمن ينزل به، ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي!

- قال بعضهم: الثياب أربعة: السخاء ثوب جمال، والكرم ثوب وقار، والندم ثوب رجاء، وإنجاز الوعد ثوب مروءة.

- قال حاتم الأصم رحمه الله: أربعة لا يعرف قدرها إلا أربعة:

قدر الشباب لا يعرفه إلا الشيوخ.

وقدر العافية لا يعرفها إلا أهل البلاء.

وقدر الصحة لا يعرفها إلا المرضى.

وقدر الحياة لا يعرفها إلا الموتى.

- أربعة تعرف بأربعة: الكاتب بكتابته، والعالم بجوابه، والحكيم بأفعاله، والحليم باحتماله.

ـ وقال الشعبي رحمه الله: من أُعطى أربعاً لم يُحرم من أربع:

من أُعطي الشكر لم يمنع من المزيد، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

ومن أُعطي الاستغفار لم يحرم من المغفرة، لقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾[2].

ومن أعطي التوبة لم يمنع من القبول، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[3].

ومن أعطي الدعاء لم يمنع الإجابة، لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4].

ـ وقال بعضهم: أربع لا تشبع من أربعة: عين من نظر، وأرض من مطر، وأذن من خبر، وأُنثى من ذكر.

● **في الخمسة:**

ـ قال عبد الله بن محمد الهروي: خمس خصال تورث خمس خصال:

من كذب ذهب جماله.

ومن ساء خلقه كثر همُّه.

ومن تظاهرت عليه النعم فليكثر من الشُكر.

ومن كثر غمومه فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٢) سورة نوح: الآية ١٠.

(٣) سورة الشورى: الآية ٢٥.

(٤) سورة غافر: الآية ٦٠.

ومن ألحَّ عليه الفقر فليكثر من الاستغفار.

ـ وعن الجنيد رحمه الله أنه قال: علم الأولين والآخرين في خمس كلمات: حبُّ الجليل، وبغض القيل، ومتابعة التنزيل، وخوف التحويل، والتأهب للرحيل.

ـ وقال أبو الليث السمرقندي رحمه الله: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل إلى المحسود: أولها غمٌّ لا ينقطع، الثانية مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة مذمَّة لا يُحمد عليها، الرابعة سخط الرب، الخامسة يغلق عنه باب التوفيق!

ـ قال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقاوة: القسوة في القلب، والجمود في العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

ـ قال سهل بن عبد الله رحمه الله: خمسة أشياء من جواهر النفس: فقير يظهر الغني، وجائع يظهر الشبع، ومحزون يظهر الفرح، ورجل بينه وبين رجل عداوة فيظهر له المحبة، ورجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يُظهر ضعفاً.

ـ روي أنَّ رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم فقال: يا أبا إسحاق، إنني لا أصبر على المعاصي، فقل لي قولاً أنتفع به.

قال: نعم. أقولُ لكَ خمسَ خصالٍ، إن قَدِرْتَ عليها لم تضرَّكَ معصيةٌ!

قال: هاتِ.

قال: إن أردتَ أن تعصيَ اللَّهَ فلا تأكلْ رزقَهُ!

قال: يا أبا إسحاق فمن أينَ آكلُ وكلُّ ما في الأرضِ من رزقِ اللَّهِ؟!

قال: فَيَحْسُنُ أنْ تأكلَ رزقَهُ وتَعصيهِ؟

قال: لا. هاتِ الثانية.

قال: إن أردت أن تعصيه فلا تسكن بلاده!

قال: هذه أشدُّ من الأولى! إذا كانت السماواتُ والأرضُ وما بينهما وما فيهما له فأين أسكن؟

قال: يا هذا، أفيحسنُ أن تأكلَ رزقه وتسكنَ بلاده وتَعصيه!

قال: لا. هاتِ الثالثة.

قال: فإذا أردتَ أن تَعصيه فانظرْ موضعاً لا يراك فاعصهِ فيه.

قال: يا أبا إسحاق، فكيف أصنعُ وما في السماءِ والأرضِ والجبالِ والبحارِ موضعٌ إلا وهو بارزٌ له، يرى ما في قعرِ البحار، وتحت أطباقِ الجبال؟

قال: يا هذا، أفيحسنُ أن تأكلُ رزقَهُ، وتسكنَ بلادَهُ، وتجاهرَه بمعصيته!

قال: لا. هات الرابعة.

قال: إذا جاءك مَلَكُ الموتِ ليقبضَ روحكَ فقل: أخِّرني حتى أتوبَ.

قال: لا يقبلُ مني.

قال: يا هذا، فإذا كنتَ تعصيه، ولا تأمنُ مفاجأة الموت، ولا يقبلُ منك فيؤخرَك؛ فتموتُ على غير توبة، فكيف يكونُ حالك؟!

قال: هات الخامسة.

قال: إذا جاءتك الزبانية ليأخذوك إلى النار فلا تمضي معهم.

قال: لا يَدَعونني.

قال: فإذا كنتَ لا تقدر على الامتناع منهم، ولا تدعَ المعصية، فكيف ترجو الخلاص؟

قال: حسبي.

ولزم إبراهيم، فعبد الله حتى مات.

● **في الستة:**

ـ عن الإمام علي رضي الله عنه قال: لأنسبنَّ الإسلام بنسبة لم ينسبها أحد قبلي ولا ينسبها أحد بعدي إلا بمثل ذلك: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو العمل، والعمل هو النية.

ـ أوصى حكيم ولده فقال: يا بني، اعلم أن أصعب ما على الإنسان ستة أشياء:

أن يعرف نفسه، ويعلم عيبه، ويكتم سره، ويهجر هواه، ويخالف شهوته، وأن يمسك عما لا يعنيه.

ـ وقال آخر: اعلم أن النَّيْل في ستة أشياء: مؤاخاة الأكفاء، ومداراة الأعداء، والحذر من السقطة، والتيقظ من الورطة، وتجرُّع الغُصَّة، ومعالجة الفرصة.

● **في السبعة:**

ـ أوصى حكيم ولده فقال: اعلم يا بني أنه لا خير في سبع إلا بسبع: لا خير في قول إلا بفعل، ولا بمنظر إلا بمخبر، ولا في ملك إلا بحق، ولا في صداقة إلا بوفاء، ولا في فقه إلا بورع، ولا في صدق إلا بنيَّة، ولا في حياة إلا بصحة وأمن.

● **في الثامنة:**

ـ وقال بعضهم: ثمانية إن أُهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم:

الجالسُ على مائدة لم يدعُ لأهلها، والمتكبِّر على ربِّ البيت، وطالبُ الخير من أعدائه، وطالب الفضل من اللئام، والداخل بين اثنين في حديثهما، والمستخفُّ بالسلطان، والجالس مجلساً ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على من لا يسمع منه.

ـ قال يحيى بن خالد البرمكي: لذة الدنيا في ثمانية أشياء: الطعام الطيب، والماء البارد، والثوب اللين، والفراش الوطيء، والدار الواسعة، والمرأة الموافقة، والجارية الفارهة، والمقدرة على الإحسان.

ـ وقال: الذلُّ في ثمانية أشياء: في الكذب، والغربة، والعليل، والمحزون، والمديون، والفقير بين الأغنياء، والجاهل بين العلماء، ومن ترادفت عليه المصائب.

ـ كان حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخي ـ رحمهما الله ـ فقال له بعد أن صحبه مدة طويلة: يا حاتم منذ كم صحبتني؟ قال: منذ ثلاث وثلاثين سنة. قال: فما تعلمت مني في هذه المدة؟ قال: ثمان مسائل.

قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ذهب عمرك معي ولم تتعلم إلا ثمان مسائل!! قال: نعم يا أستاذ، وما أحب أن أكذب. قال شقيق: هات هذه الثمان مسائل حتى أسمعها.

قال حاتم: أما **الأولى**: فإني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كلَّ محبوب يحب محبوباً فهو مع محبوبه، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه، فجعلتُ الحسنات محبوبي، فإذا دخلتُ القبر دخل معي محبوبي.

فقال: أحسنت يا حاتم.

وأما الثانية: فإني نظرت في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ

﴿رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾[1] فعلمتُ أن قوله حق، فاجتهدت في دفع الهوى عن نفسي حتى استقرت في طاعة الله تعالى.

وأما الثالثة: فإني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كلَّ من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت إلى قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[2] فكلما وقع لي شيء له قيمة ومقدار وجهته إليه ليبقى لي عنده.

وأما الرابعة: فإني نظرت إلى هذا الخلق فرأيتُ كلَّ واحد منهم يرجع إلى المال والحسب والشرف والنسب، فنظرت إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[3] فعملت بالتقوى حتى أكون عند الله كريماً.

وأما الخامسة: فإني نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[4] فتركت الحسد، وأحببت الخلق كلهم، وعلمت أن القسمة من الله تعالى، وتركت عداوة الخلق عني.

وأما السادسة: فإني نظرت إلى هذا الخلق وهم يبغض بعضهم بعضاً، فرجعت إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[5] فعاديتُه وحده، واجتهدت في أخذ حذري منه، لأن الله شهد عليه أنه عدوي، فتركتُ عداوة الخلق عني.

---

(١) سورة النازعات: الآيتان ٤٠ ـ ٤١.
(٢) سورة النحل: الآية ٩٦.
(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٣٢.
(٥) سورة فاطر: الآية ٦.

وأما السابعة: فإني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكثرة، فيذلُّ نفسه ويدخل فيما لا يحلُّ له، ثم نظرت إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(١) فاشتغلت بالله تعالى وتركت مالي عنده.

وأما الثامنة: فإني نظرت إلى هذا الخلق، فرأيت هذا متكلاً على صنعته، وهذا متكلاً على صحة بدنه، وكلُّ مخلوق متكل على مخلوق، فرجعت إلى قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(٢).

فقال شقيق: وفقك الله يا حاتم فإني نظرت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فرأيت هذه في الكتب الأربعة تدور على هذه الثماني مسائل، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة.

● **في التسعة**:

ـ أوصى حكيم ابنه فقال: اعلم يا بني أن العلماء ما ذمُّوا شيئاً كذمِّهم لتسع: التكبر، والعُجب، والجزع، والحسد، والخيانة، والعجلة، وسوء الخُلق، والجهل.

ـ وقال بعضهم: أقسام الملاحة تسعة أشياء: الصباحة في الوجه، والجمال في الأنف، والحلاوة في العينين، والملاحة في الفم، والعذوبة في اللسان، والرشاقة في القد، واللباقة في الشمائل، والدماثة في الخُلق، وتتمة الجمال في الشعر.

ـ وافتخر علي رضي الله عنه بتسع كلمات من جواهر الحكم:

ثلاث في المناجاة، وهي: كفى بي عزّاً أن تكون لي ربّاً. وكفى بي فخراً أن أكون لك عبداً. أنت لي كما أحب فوفقني كما تحب.

---

(١) سورة هود: الآية ٦.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

وثلاث في العلم: المرء مخبوء تحت لسانه. تكلموا تُعرفوا. قيمة كل امرىء ما يحسنه.

وثلاث في الأدب وهي: أنعم على من شئت تكن أميره، واستغنِ عمَّن شئت تكن نظيره، واسأل من شئت تكن أسيره.

● **في العشرة:**

ـ قال بعضهم: الخلق على عشرة أصناف: حليم، ومطيع، وجاهل، ومبتلى، وعاقل، وأحمق، وصاحب دين، وصاحب دنيا، ومَنْ فوقك، ومن دونك.

فاصحب الحليم بالطاعة، والمطيع بالتعظيم، والجاهل بالصبر، والمبتلى بالرحمة، والعاقل بالاقتداء، والأحمق بالمداراة، وصاحب الدِّين بالمعرفة، ومن فوقك بالتواضع، ومن دونك بالشفقة.

ـ قال سفيان الثوري رحمه الله: عشرة أشياء من الجفاء:

أولها: رجل يدعو لنفسه ولا يدعو لأبويه وللمؤمنين والمؤمنات.

الثاني: رجل يتعلم القرآن ولا يقرأ في كل يوم.

الثالث: رجل يدخل المسجد ويخرج ولا يصلي ركعتين.

الرابع: رجل مرَّ على المقابر ولا يسلم عليهم ولا يدعو لهم.

الخامس: رجل دخل يوم الجمعة بلداً ولا يصلي الجمعة.

السادس: رجل أو امرأة نزل في محلتهم عالم ولا يذهبون إليه ولا يتعلمون منه شيئاً من العلم.

السابع: رجلان يترافقان ولا يسأل كلٌّ واحد منهما عن اسم صاحبه.

الثامن: رجل لا يجيب الدعوة إذا دعاه إخوانه.

التاسع: شاب يضيِّع شبابه وهو فارغ ولا يطلب العلم والأدب.

العاشر: رجل شبعان وجاره جائع ولا يطعمه شيئاً من طعامه.

روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين(*)
لابن قيِّم الجوزية

. . . سبحان من صرَّف المحبَّة أنواعاً وأقساماً بين بريَّته، وفصَّلها تفصيلاً، فجعل كلَّ محبٍّ لمحبِّه نصيباً، مخطئاً كان في محبته أو مصيباً، وجعله بحبِّه منعَّماً أو قتيلاً، فقسمها بين محبٍّ

(*) روضة المحبين ونزهة المشتاقين/ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية؛ راجعه وحقق أصوله وعلق عليه السيد الجميلي. - بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ، ٤٨٩ص.

قال المؤلف: هذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس، عوناً على الدين وعلى الدنيا، ومرقاةً للذة العاجلة ولذة العقبى. وفيه ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها، وصحيحها وفاسدها، وآفاتها وغوائلها، وأسبابها وموانعها، وما يناسب ذلك من نكت تفسيرية، وأحاديث نبوية، ومسائل فقهية، وآثار سلفية، وشواهد شعرية، ووقائع كونية، ما يكون ممتعاً لقاريه، مروِّحاً للناظر فيه، فإن شاء أوسعه جداً وأعطاه ترغيباً وترهيباً، وإن شاء أخذ من هزله ومُلَحه نصيباً، فتارة يضحكه وتارة يُبكيه، وطوراً يُبعده من أسباب اللذة الفانية، وطوراً يرغِّبه فيها ويدنيه. فإن شئت وجدته واعظاً ناصحاً، وإن شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوة. . .

وقد جعله المؤلف في تسعة وعشرين باباً هي: أسماء المحبة، اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها، نسبتها إلى بعضها البعض، العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالمحبة ولأجلها، دواعي المحبة ومتعلَّقها، أحكام النظر وغائلته، مناظرة بين القلب والعين، الشُّبه التي احتجَّ بها من أباح النظر إلى ما لا يحلُّ له الاستمتاع به، الجواب عليها، حقيقة العشق وأوصافه، هل هو اضطراري أم اختياري، سكرة العشاق، اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان، فيمن مدح =

الرحمن، ومحبِّ الأوثان، ومحبِّ النيران، ومحبِّ الصُّلبان، ومحبِّ الأوطان، ومحبِّ الإخوان، ومحبِّ النسوان، ومحبِّ الصبيان، ومحبِّ الأثمان (يعني الأموال)، ومحبِّ الإيمان، ومحبِّ الألحان، ومحب القرآن. وفضَّل أهل محبَّته ومحبَّةِ كتابه ورسوله على سائر المحبين تفضيلاً. فبالمحبة وللمحبة وُجدت الأرض والسماوات، وعليها فُطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتصلت بداياتها بناياتها...

● من أي لفظ اشتقت كلمة «المحبة»؟

- قيل: أصلها الصفاء، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَب الأسنان.

- وقيل: مأخوذة من الحَباب، وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد، فعلى هذا: المحبةُ غليان القلب وثورانه عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب.

- وقيل: مشتقة من اللزوم والثبات، ومنه: أحبَّ البعير إذا برك فلم يقم. فكأن المحبَّ قد لزم قلبُه محبوبَهُ فلم يُرِم عنه انتقالاً.

= العشق وتمناه، فيمن ذمَّ العشق وتبرَّم به، الحكم بين الفريقين، استحباب تخيُّر الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله، دواء المحبين، فضيلة الجَمال، علامات المحبة وشواهدها، اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالمحب وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه، غيرة المحبين على أحبابهم، عفافهم معهم، ارتكاب سبل الحرام وما يفضي إليه من المفاسد والآلام، رحمة المحبين والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يبيحه الدين. ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في أعلاهما، فيمن ترك محبوبه حراماً فبُذل له حلالاً، فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام، ذم الهوى وما في مخالفته من نيل المنى.

والمؤلف عالم كبير مشهور، مولده ووفاته بدمشق، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، مصنفاته كثيرة. ت ٧٥١هـ.

- وقيل: بل هي مأخوذة من القلق والاضطراب، ومنه سمي القُرْط حِبّاً لقلقه في الأذن واضطرابه!

- وقيل: بل هي مأخوذة من الحَبِّ، جمع حَبَّة، وهو لباب الشيء وخالصه وأصله، فإن الحَبَّ أصل النبات والشجر.

- وقيل: بل هي مأخوذة من الحُبِّ الذي هو إناءٌ واسع يوضع فيه الشيء فيمتلىء به بحيث لا يسع غيره، وكذلك قلب المحب، ليس فيه سعة لغير محبوبه!

- وقيل: مأخوذة من الحُبِّ، وهو الخشبات الأربع التي يستقرُّ عليها ما يوضع عليها من جرَّة أو غيرها، فسمي الحبُّ بذلك لأن المحب يتحمل لأجل محبوبه الأثقال كما تتحمل الخشبات ثقل ما يوضع عليها!

- وقيل: بل هي مأخوذة من حَبَّة القلب وهي سويداؤه، ويقال: ثمرته، فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب.

● قال بعضهم:

ومن عجبٍ أني أُحِنُّ إليهمُ وأسألُ عنهم مَنْ لقيتُ وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاق قلبي وهم بين أضلعي!

● الوجد: هو الحب الذي يتبعه الحزن.

● التيتم: هو التعبد، وتيم الله أي عبد الله. وأصله من قولهم: تيَّمة الحُبُّ إذا عبَّده وذلَّله.

● الخِلابة: هي الحُبُّ الخادع، وهو الحُبُّ الذي وصل إلى الخِلْب، وهو الحجاب الذي بين القلب وسواد البطن. وسمي الحب خِلابة لأنَّه يخدع ألباب أربابه!

● الوَهَل: أصله الفزع والرَّوْع... وكثير من الناس يرى

محبوبه فيصفرُّ ويرتعد! ولا يدري أكثر المحبين سبب ذلك! فقيل: سببه أن الجمال سلطان على القلوب، وإذا بدا راع القلوبَ بسلطانه كما يروِّعها الملك ونحوه ممن له سلطان على الأبدان، فسلطان الجمال والمحبة على القلوب، وسلطان الملوك على الأبدان..

- والوَصَب: ألم الحب ومرضه، فإن أصل الوصب المرض.
- ولوعة الحب حرقته، والتاع فؤاده أي احترق من الشوق.
- والودُّ خالص الحبِّ وألطفه وأرقُّه، وهو من الحبِّ بمنزلة الرأفة من الرحمة.
- والخُلَّة توحيد المحبة، فالخليل هو الذي توحَّدَ حبُّه لمحبوبه، وهي رتبة لا تقبل المشاركة.

ولهذا اختصَّ بها في العالم الخليلان إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾(١) وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»(٢).

- والغرام هو الحب اللازم. يقال: رجلٌ مغرم بالحب، أي قد لزمه الحب.
- أما الوَلَه فهو ذهاب العقل والتحيُّر من شدة الوجد!
- والتعبُّد هو غاية الحبِّ وغاية الذُّل. يقال: عَبَده الحبُّ أي ذلَّله. وطريق معبَّد بالأقدام أي مذلَّل، وكذلك المحبُّ قد ذلَّله الحبُّ ووطَّأه. ولا تصلح هذه المرتبة لأحد غير الله عز وجل.

ولا يغفر الله سبحانه لمن أشرك به في عبادته، ويغفر ما دون

---

(١) سورة النساء: الآية ١٢٤.

(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي.

ذلك لمن يشاء. فمحبة العبودية هي أشرف أنواع المحبة، وهي خالصُ حقِّ الله على عباده.

● عشّاق العلم أعظم شغفاً بالعلم وعشقاً له من كل عاشق بمعشوقه، وكثير منهم لا يَشْغَلُه عنه أجمل صورة من البشر.

وقيل لامرأة الزبير بن بكار أو غيره: هنيئاً لكِ إذ ليست لك ضرَّة! فقالت: والله لهذه الكتب أضرُّ عليَّ من عدَّة ضرائر!

وورد عن ابن تيمية الجدِّ أنه كان إذا دخل الخلاء يقول لحفيده عبد الرحمن: اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع!

قال المؤلف: وأعرف من أصابه مرضٌ من صداع وحُمَّى وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غُلب وضعه. فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك، فذكر أن هذا مما يفوِّت المطلوب من العلاج..

● ذُكر لبقراط رجل يحبه وفيه نقص، فاغتمَّ لذلك وقال: ما أحبَّني إلا وقد وافقتُه في بعض أخلاقه!

وأخذ المتنبي هذا المعنى فقلبه وأجاد فقال:

وإذا أتتك مذَمتي من ناقصٍ ... فهي الشهادةُ لي بأني فاضلُ

● يُحكى أن رجلاً مرض من يُحبُّه، فعاده المحبُّ فمرض من وقته! فعوفي محبوبه، فجاء يعوده، فلما رآه عوفي من وقته! وأنشد:

مرضَ الحبيبُ فعدتُه ... فمرضتُ من حَذري عليه

وأتى الحبيبُ يعودني ... فبرئتُ من نظري إليه!

● عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله، عندنا يتيمة قد خطبها رجلان، موسرٌ ومعسر، وهي تهوي المعسر، ونحن نهوى الموسر! فقال: «**لم يُرَ للمتحابّين مثل**

الزواج»[1].

● الجماع الحرام يُفسد الحب، ولا بد أن تنتهي المحبة بينهما إلى المعاداة والتباغض والقِلىٰ كما هو مشاهد بالعيان. فكلُّ محبة لغير الله آخرها قِلى وبغض. فكيف إذا قارنها ما هو من أكبر الكبائر؟ وأما الجماع المباح فإنه يزيد الحبَّ إذا صادف مراد المحب. يقول الله عز وجل: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

● من أقوال العقلاء: من سرَّح ناظره أتعب خاطره، ومن كثرت لحظاتُه دامت حسراته، وضاعت عليه أوقاته، وفاضت عبراته.

قال الناظم:

نظر العيونِ إلى العيون هو الذي ... جعل الهلاك إلى الفؤاد سبيلا
ما زالت اللحظاتُ تغزو قلبه ... حتى تشحَّط بينهنَّ قتيلا

● قال بعضهم:

عاتبتُ قلبي لمّا ... رأيتُ جسمي نحيلا
فألزم القلبُ طرفي ... وقال كنتَ الرسولا
فقال طرفي لقلبي ... بل كنتَ أنت الدليلا
فقلتُ كُفّا جميعاً ... تركتماني قتيلا

● قال الأصمعي: سألتُ أعرابياً عن العشق فقال: جلَّ واللّهِ عن أن يُرىٰ، وخَفي عن أبصار الورىٰ، فهو في الصدور كامنٌ ككمون النار في الحجر، إن قُدح أورى، وأن تُرك توارى.

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم، وصححه السيوطي في الجامع الصغير ٢/١٢٧.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٦٧.

● قال ابن حزم: قال رجلٌ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، إني رأيتُ امرأة فعشقتها! فقال عمر: ذاك ما لا يُمْلَك.

● حدث أن مرَّ أحمد بن طُولون أمير مصر بصيادٍ في يوم باردٍ وعنده بُنَيٌّ له، فرقَّ عليهما، وأمر غلامه أن يدفع إليه ما معه من الذهب، فصبَّه في حِجْره ومضىٰ فاشتدَّ فرحه به، فلم يتحمَّل ما ورد عليه من الفرح، فقضى مكانه! فعاد الأميرُ من شأنه، فوجد الرجل ميّتاً والصبي يبكي عند رأسه، فقال: من قَتله؟ فقال: مرّ بنا رجلٌ ـ لا جزاه الله خيراً ـ فصبَّ في حِجْر أبي شيئاً فقتله مكانه، فقال الأمير: صدق نحن قتلناه. أَتاه الغنى وهلةً واحدةً، فَعَجِزَ عن احتماله فقتله، ولو أعطيناه ذلك بالتدريج لم يقتله. فحرّض الصبيَّ عَلَى أن يأخذ الذهب فأَبى وقال: والله لا أُمسك شيئاً قتل أبي!

● كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقرأ القرآن، فإذا فرغ قال: أين العزّاب؟ فيقول: ادنوا مني ثم قولوا: اللهم ارزقني امرأةً إذا نظرتُ إليها سرَّتني، وإذا أمرتُها أطاعتني، وإذا غبتُ عنها حفظت غَيْبتي في نفسها ومالي.

● قال بعض السلف: ما من عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وعد به من لا أَصْدَقُ منه حديثاً، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما هو عليه...

● ذكر الخرائطي أنه كان بالمدينة جارية ظريفة، فهويت رجلاً من قريش، وكان لا يفارقها ولا تفارقه، فملَّها، وزاد حبُّها له، فسقمت، وجعل مولاها لا يعبأ بشكواها ولا يرقُّ لها، حتى هامت على وجهها ومزقت ثيابها، وانتهت إلى أمر عظيم..! فلما رأى ما

صارت إليه عالجها فلم ينفع فيها العلاج، وكانت تدور في السكك.. وتقول:

من ذا يُطيق كما نطيق من الهوى غلبَ العزاءُ وباحت الأسرارُ

● قال أعرابي:

ألا ما الهوى والحبُّ بالشيء هكذا يذلُّ به طوعُ اللسان فيوصفُ
ولكنه شيءٌ قضى الله أنه هو الموتُ أو شيءٌ من الموت أعنفُ
فأوله سقمٌ وآخره ضنىً وأوسطه شوقٌ يشُفُّ ويُتْلِفُ
وروعٌ وتسهيدٌ وهمٌّ وحسرةٌ ووجدٌ على وجدٍ يزيدُ ويَضْعُفُ

● قال عديُّ بن ثابت: كان في زمن بني إسرائيل راهب يعبد الله، حتى كان يؤتىٰ بالمجانين يعوِّذهم فيبرؤون على يديه، وأنه أُتي بامرأة ذات شرف من قومها قد جُنَّت، وكان لها إخوة، فأتوه بها، فلم يزل الشيطان يزين له حتى وقع عليها، فحملت، فلما استبان حملُها لم يزل يخوفه ويزين له قتلها حتى قتلها ودفنها. فذهب الشيطانُ في صورة رجل حتى أتى بعض إخوتها، فأخبره بالذي فعل الراهب، ثم أتى بقية إخوتها رجلاً رجلاً، فجعل الرجلُ يلقى أخاه فيقول: والله لقد أتاني آت فذكر لي شيئاً كبر عليَّ ذكرُه.

فذكر ذلك بعضُهم لبعض حتى رفعوا ذلك إلى ملكهم، فسار الناسُ إليه حتى استنزلوه من صومعته، فأقرَّ لهم بالذي فعل، فأُمر به فصُلب، فلما رُفع على الخشبة، تمثّل له الشيطان فقال: أنا الذي زينتُ لك هذا وألقيتُك فيه، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك وأخلِّصك؟ قال: نعم. قال: تسجد لي سجدة واحدة.

فسجد له، وقُتل الرجل!

• قال سعيد بن المسيب: ما أيس الشيطانُ من أحد قطُّ إلا أتاه من قبل النساء!

• قال المؤلف: العشق لا يُحمد مطلقاً ولا يُذَمُّ مطلقاً، وإنما يُحمد ويُذَمُّ باعتبار متعلِّقه، فإن الإرادة تابعة لمرادها، والحبُّ تابعٌ للمحبوب، فمتى كان المحبوب مما يُحَبُّ لذاته أو وسيلةً توصِّله إلى ما يُحَبُّ لذاته، لم تُذَمَّ المبالغة في محبته، بل تُحمد. وصلاحُ حالِ المحبِّ كذلك بحسب قوَّة محبته. ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يصرف قوى حبِّه كلَّها لله تعالى وحده، بحيث يحب الله بكلِّ قلبه وروحه وجوارحه، فيوحِّد محبوبه ويوحِّد حبَّه...

• حجَّ عبد الملك بن مروان ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خالد هذا من رجالات قريش المعدودين، وكان عظيم القدر عند عبد الملك بن مروان. فبينما هو يطوف بالبيت، إذ بصر برملة بنت الزبير بن العوام، فعشقها عشقاً شديداً، ووقعت بقلبه وقوعاً متمكناً. فلما أراد عبد الملك الرجوع، همَّ خالد بالتخلف عنه.

فوقع بقلب عبد الملك تهمَةٌ، فبعث إليه فسأله عن أَمره، فقال: يا أمير المؤمنين، رَمْلَةُ بنت الزُّبير، رأيتها تطوف بالبيت فأذهلت عقلي، واللَّهِ ما أبديتُ إليك ما بين جوانحي حتى عِيلَ صبري. ولقد عرضتُ النوم عَلَى عيني فلم تقبله، والسَّلُوَّ عَلَى قلبي فامتنع منه.

فأَطال عبد الملك التَّعجُّبَ من ذلك وقال: ما كنتُ أقول إن الهوى يستأسر مثلَك، قال: فإني لأشدُّ تعجُّباً من تعجُّبك مني. ولقد كنت أَقول: إن الهوى لا يتمكّن إلاَّ من صنفين من الناس: الشعراء والأعراب. أما الشعراء فإنهم ألزموا قلوبهم الفكرَ في النساء ووصفهنَّ والتغزُّل فمال طبعهم إلى النساء فضعفت قلوبُهم عن دفع الهوى فاستسلموا إليه منقادين. وأما الأعراب، فإن أحدهم يخلو بامرأته فلا

يكون الغالب عليه غير حبِّه لها، ولا يَشْغَلُه عنه شيء، فضعُفوا عن دفع الهوى فتمكن منهم. فما رأيت نظرةً حالت بيني وبين الحزم، وحسنت عندي ركوبَ الإِثم، مثل نظرتي هذه.

فتبسَّمَ عبد الملك فقال: أفكل هذا قد بلغ بك؟ فقال: والله ما عرتني هذه البلية قبل وقتي هذا.

فوجَّه عبدُ الملك إلى الزُّبير يخطُب رَمْلَةَ على خالد، فذكروا لها ذلك فقالت: لا والله أو يطلِّقَ نساءه!

فطلق امرأتين كانتا عنده، ورحل بها إلى الشام، وكان يقول:

أَليس يزيدُ الشوقُ في كلِّ ليلةٍ ... وفي كل يوم من حبيبتنا قُرْبا
خليليَّ ما من ساعةٍ تَذْكرَانِهَا ... من الدهر إلاَّ فرَّجت عني الكَربا
أحبُّ بني العَوَّامِ طُرًّا لحبِّها ... ومن أَجلها أَحببتُ أَخوالها كَلْبا
تجولُ خَلاخيلُ النساء ولا أَرى ... لِرَمْلَةَ خَلْخالاً يجول ولا قُلْبا

● قوله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**». رواه مسلم... هذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست روحُه من تلك الصفات، فإن المؤمن يُعطىٰ مهابةً وحلاوةً بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه. وهذا أمر مشهود بالعيان، فإنك ترى الرجلَ الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة، وإن كان أسود أو غير جميل، ولا سيما إذا رُزق حظاً من صلاة الليل، فإنها تنوِّر الوجه وتحسِّنه.

وقد كان بعض النساء تكثر صلاة الليل، فقيل لها في ذلك فقالت: إنها تحسِّن الوجه، وأنا أحبُّ أن يحسنَ وجهي!

● كما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده،

فالجمال الظاهر نعمةٌ منه أيضاً على عبده يوجب شكراً، فإن شكره بتقواه وصيانته ازداد جمالاً على جماله، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه قَلَبَه له شيئاً ظاهراً في الدنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وحشةً وقبحاً وشَيْناً...

وكان النبي ﷺ يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر، كما قال جرير بن عبد الله - وكان عمر بن الخطاب يسميه يوسف هذه الأمة - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أنت امرؤٌ قد حسَّنَ الله خَلْقَكَ فأحسنْ خُلُقك**». رواه الديلمي.

● كان مصعب بن الزبير من أجمل الناس، وكان يحسدُ الناسَ على الجمال. فبينما هو يخطب يوماً، إذ دخل ابن جودان من ناحية الأزد، وكان جميلاً، فأعرض بوجهه عن تلك الناحية إلى ناحية أخرى. فدخل ابن حُمران من تلك الناحية، وكان جميلاً، فرمى ببصره إلى مؤخَّر المسجد، فدخل الحسن البصري، وكان من أجمل الناس، فنزل مصعب عن المنبر!

● قال الأصمعي: كنت في بعض مياه العرب، فسمعتُ الناس يقولون: قد جاءت، قد جاءت. فتحوَّل الناس فقمتُ معهم، فإذا جاريةٌ قد وردت الماء ما رأيتُ مثلها قطُّ في حسن وجهها وتمام خَلْقها، فلما رأت تشوُّفَ الناس إليها أرسلت بُرْقُعَها، فكأنه غمامةٌ غطَّت شمساً!

● الحُسْن معنى لا تناله العبارة، ولا يحيط به الوصف، وإنما للناس منه أوصافٌ أمكن التعبير عنها. وقد كان رسولُ الله ﷺ في الذروة العليا منه. ونظرت إليه عائشة رضي الله عنها يوماً ثم تبسَّمت، فسألها ممَّ ذاك؟ فقالت: كأن أبا كبير الهذلي إنما عناك بقوله:

وإذا نظرتَ إلى أسرَّةِ وجهه ... بَرَقَت كبرقِ العارض المتهلِّل

وكان ﷺ مع هذا الحُسن قد أُلقيت عليه المحبة والمهابة، فمن وقعت عليه عيناه أحبَّه وهابه، وكمَّل الله سبحانه له مراتب الجمال ظاهراً وباطناً. وكان أحسنَ خلق الله خَلْقاً وخُلُقاً، وأجملهم صورةً ومعنى. وهكذا كان يوسف الصِّديق عليه السلام، ولهذا قالت امرأة العزيز للنسوة لمَّا أرتهنَّ إياه ليعذرنها في محبته: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، أي: هذا هو الذي فُتنت به وشغفتُ بحبِّه، فمن يلومني على محبَّته وهذا حسنُ منظره؟!

● ذكر المؤلف أن تقي الدين بن شقير حدَّثه قال: خرج شيخ الإسلام ابنُ تيمية يوماً، فخرجتُ خلفه، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد سمعته يتمثّل بقول الشاعر:

وأخرجُ من بين البيوت لعلَّني أحدِّثُ عنك القلبَ بالسرِّ خاليا

خلوة المحبِّ لمحبوبه هي غاية أمنيته، فإن ظفر بهذه الأمنية، وإلا خلا به في سرِّه..

● في أخبار العشاق أن عاشقاً عشق السراويلات من أجل سراويل معشوقه، فوُجد في تركته اثنا عشر حملاً وفردة من السراويلات!

وعشق آخر الهاونات من أجل صوت هاون محبوبته! فوُجد في تركته عدة آلاف منها!

وعند الناس من هذا عجائب كثيرة!

● قال بعضهم:

مساكينُ أهل الحبِّ حتى قبورُهم عليها ترابُ الذُّلِّ دون المقابر!

● من أمثال الناس: ليس في القلب حُبَّان، ولا في السماء ربَّان.

● وقالوا: القلبُ حمّال، فما حمّلته تحمَّل، فإذا حمَّلته الأثقال حملها، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه. فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجُّه إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عباده، ولا يَشْغَلُه واحدٌ من ذلك عن الآخر، فقد كان رسول الله ﷺ قلبه متوجهاً في الصلاة إلى ربِّه، وإلى مراعاة أحوال من يصلي خلفه، وكان يسمع بكاء الصبيِّ فيخفِّف الصلاة خشية أن يشقَّ على أمِّه. أفلا ترى قلبه الواسع كيف اتَّسع للأمرين؟

●... والتحقيق أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً. ومستحيلٌ أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما.. فليس الذي يُحَبُّ لذاته إلا الإله الحقُّ الغنيُّ بذاته عن كلِّ ما سواه. وكلّ ما سواه فقيرٌ بذاته إليه. وأما ما يُحَبُّ لأجله سبحانه فيتعدَّد، ولا تكون محبةُ العبدِ له شاغلةً له عن محبَّة ربِّه، ولا يشركه معه في الحب، فقد كان رسول الله ﷺ يحبُّ زوجاته، وأحبُّهنَّ إليه عائشة رضي الله عنها، وكان يحبُّ أباها، ويحبُّ عمر رضي الله عنهم، وكان يحبُّ أصحابه، وهم مراتب في حبِّه لهم، ومع هذا فحبُّه كلُّه لله، وقُوىٰ حبِّه جميعُها منصرفةٌ إليه سبحانه.

● كان سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

تفنىٰ اللذاذةُ ممن نال صفوتَها ... من الحرام ويبقى الوزرُ والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ في مغبَّتِها ... لا خيرَ في لذَّةٍ من بعدها النارُ

● قال الإمام أحمد بن حنبل: الفتوَّة تركُ ما تهوىٰ لما تخشىٰ.

● قال ابن الأحمر: بينا أنا أطوف بالبيت، إذ بصرتُ بامرأة متبرقعة تطوف بالبيت وهي تقول:

لا يقبل الله من معشوقةٍ عملاً ... يوماً وعاشقُها غضبانُ مهجورُ

ليست بمأجورةٍ في قتل عاشقها　　لكن عاشقها في ذاك مأجور

فقلت لها: في هذا الموضع؟ فقالت: إليك عني، لا يَعْلَقْكَ الحب!

قلت: وما الحب؟ قالت: جلَّ والله عن أن يخفى، وخفيَ أن يُرى، فهو كالنار في أحجارها، إن حركته أورى، وإن تركته توارى. ثم أنشدت:

غِيدٌ أوانسُ ما هممنَ بريبةٍ　　كظباءِ مكةَ صيدُهنَّ حرامُ
يُحْسَبْن من لينِ الحديث أوانساً　　ويصُدُّهنَّ عن الخنا الإسلامُ

● قال عوانة بن الحكم: كان عبد المطلب، جد الرسول ﷺ، لا يسافر إلا ومعه ابنه الحارث، وكان أكبر ولده، وكان شبيهاً به جمالاً وحسناً، فأتى اليمن، وكان يجالسُ عظيماً من عظمائهم، فقال له: لو أمرتَ ابنك هذا يجالسني وينادمني. ففعل، فعشقت امرأتُه الحارثَ، فراسلَتْهُ، فأبىٰ عليها، فألحّت عليه، فأخبر بذلك أباه، فلما يئست منه سقته سُمّاً. فارتحل به عبد المطلب، حتى إذا قدم مكة مات الحارث.. وكان مما رثاه به أبوه:

والحارثُ الفيّاض أكرم ماجدٍ　　أيام نازعه الهمام الكاسا

● وقال ابن عُلاثة: دخلتُ على رجل من الأعراب خيمتَهُ وهو يئن، فقلت: ما شأنك؟ قال: عاشق. فقلت له: ممن الرجل؟ قال: من قومٍ إذا عشقوا ماتوا عفّةً.

فجعلتُ ألومه وأزهِّده فيما هو فيه، فتنفَّس الصعداء ثم قال:

ليس لي مسعدٌ فأشكو إليه　　إنما يُسْعِدُ الحزينَ الحزينُ

● وقال سفيان بن زياد: قلت لامرأة من عذرة، ورأيتُ بها هوىً غالباً خفتُ عليها الموتَ منه: ما بال العشق يقتلكم معاشر

عُذرة من بين أحياء العرب؟ فقالت: فينا جمالٌ وتعفُّف، والجمال يحملنا على العفاف، والعفاف يورثنا رقة القلوب، والعشق يفني آجالنا، وإنا نرى عيوناً لا ترونها.

● وقال سعيد بن عبد الله بن راشد: علقتْ فتاةٌ من العرب فتىً من قومها ـ وكان عاقلاً ـ فجعلت تكثر التردُّد إليه، فلما طال عليها ذلك مرضت وتغيَّرت واحتالت في أن خلا لها وجهُه، فتعرضتْ إليه ببعض الأمر، فصرفها ودفعها عنه، فتزايد المرضُ حتى سقطت على الفراش، فقالت له أُمُّهُ: إنَّ فلانة قد مرضت ولها علينا حق، قال: فعوديها وقولي لها: يقول لك: ما خبرك؟

فسارت إليها أُمه وسألتها: ما بك؟ فقالت: وجعُ في فؤادي هو أصل علتي، قالت: فإن ابني يسألك عن علتك، فتنفَّست الصُّعَدَاءَ ثم قالت:

يسائلني عن علَّتي وهو علَّتي ... عجيبٌ من الأنباء جاء به الخبر

فانصرفت إليه أُمه وأخبرته وقالت له: تريد أَن تصير إليك؟ فقال: نعم، فذكرت أُمه لها ذلك فبكت وقالت:

ويُبعدني عن قربه ولقائه ... فلما أَذاب الجسمَ منّي تعطَّفا
فلست بآتٍ موضعاً فيه قاتلي ... كفاني سَقاماً أَن أَموت تلهفا

وتزايدت بها العلَّة حتى ماتت!

● وأحبَّ رجلٌ من أهل الكوفة يسمى أَبا الشعثاء امرأَةً جميلة، فلما علمت به كتبت إليه وقالت:

لأبي الشعثاء حبٌ دائمٌ ... ليس فيه تهمةٌ لمُتَّهَمْ
يا فؤادي فازدجر عنه ويا ... عَبَثَ الحبُّ به فاقعد وقُمْ
جاءني منه كلامٌ صائدٌ ... ورسالاتُ المحبين الكَلِمْ

صائدٌ يأمنه غزلانُه ... مثلَ ما يأمنُ غزلانُ الحَرَمْ
صلِّ إن أحببت أن تُعطىٰ المُنىٰ ... يا أبا الشعثاء لله وصُمْ
ثم ميعادُك بعد الموت في ... جنةِ الخلد إنِ اللَّهُ رَحِمْ
حيث أَلقاك غلاماً ناشئاً ... ناعماً قد كَمُلَت فيه النعم

● قال ﷺ: «**من يلبس الحريرَ في الدنيا لم يلبسهُ في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشر بها في الآخرة**». رواه الشيخان. فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حرَّم الله عليه من النساء والصبيان، ولذَّةَ التمتع بذلك في الآخرة، فليتخيَّر العبد لنفسه إحدى اللذتين، وليطب نفساً عن إحداهما بالأخرى، فلن يجعل الله من أذهب طيباتِهِ في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدنيا إذ لقى الله.

● الزنا يجمع خلال الشر كلها، من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة. فلا تجد زانياً معه ورع، ولا وفاءٌ بعهد، ولا صدقٌ في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرةٌ تامة على أهله.. ومنها الوحشة التي يضعها الله سبحانه في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجه حلاوة وفي قلبه أُنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش به...

● قال الربيع بن زياد: رأيت جاريةً عند قبرٍ وهي تقول:

بنفسي فتى أوفى البرية كلها ... وأقواهمُ في الموت صبراً على الحبِّ

فقلت لها: بمَ صار أوفاهم وأقواهم؟ قالت: هَوِيَني، فكان أهلي إن جاهر بحبِّي لاحوه، وإن كتمه عنفوه، فلما أخذه الأمر قال:

يقولون إن جاهرتُ قد عضَّك الهوى ... وإن لم أَبُحْ بالحبِّ قالوا تصبّرا

وليس لمن يهوىٰ ويكتم حبَّهُ　　من الأمر إلا أن يموت فيُعذرا

ولم يزل يردد هذين البيتين حتى مات، فوالله يا هذا لا أبرح أو يتَّصلُ قبرانا. ثم شهقت شهقة، فصاح النساء وقلن: قضت!

● وقال عامر بن حذافة: رأيت بصُحَار ـ في عُمان ـ جاريةً قد أَلصقت خدَّها بقبرٍ وهي تبكي وتقول:

خدِّي يقيكَ خشونةَ اللحد　　وأقلُّ ما لكَ سيِّدي خدِّي
يا ساكنَ التُّرْب الذي بوفاتِهِ　　عَمِيَتْ عليَّ مسالكُ الرُّشد
اسمع فديتُكَ قصَّتي فلعلَّني　　أَشفي بذلك غُلَّةَ الوجد

قال: فسألتها عن صاحب القبر فقالت: فتىً رافقته في الصبا. ثم أَنشأت تقول:

كنا كزوجِ حمائمٍ في أَيكةٍ　　متنعِّمين بصحَّةٍ وشبابِ
فغدا الزمان مشتِّتاً بفراقه　　إن الزمان مفرِّقُ الأحباب

قال: فبكيت لرقة شعرها، فأنشأت تقول:

تبكي عليه ولستَ تَعرف أَمرَه　　فلأعلمنَّك حالَه ببيان
ما كان للعافين غيرُ نواله　　فإذا استُجير ففارس الفرسان
لا يُتْبِعُ الجيرانَ رفةَ طرفهِ　　ويتابعُ الإِحسان للجيران
عَفُّ السريرةِ والجَهِيرَةُ مثلُها　　فإذا استُضِيم أراكَ فَتْقَ طعان

فقلت: أعلميني من هو؟ قالت: سنان بن وَبْرَة الذي يقول فيه الشاعر:

يا رائداً غيثاً لنَجْعَةِ قومهِ　　يكفيكَ من غيثٍ نوالُ سنانِ

ثم قالت: يا هذا، والله لولا أنك غريب ما بحت لك بهذا...

• قال الزمخشري: هويَ أحمد بن أبي عثمان الكاتب جاريةً لزبيدة بنت أبي جعفر اسمها «نعم» حتى مرض، وقال فيها أبياتاً منها:

وإني ليرضيني المرءُ بابها وأقنعُ منها بالشتيمة والزَّجْر

فوهبتها له.

• كان أبو السائب المخزومي أحد القراء والفقهاء، فرؤي متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم ارحم العاشقين، واعطف عليهم قلوب المعشوقين!

فقيل له في ذلك فقال: الدعاء لهم أفضلُ من عُمرة من الجِعْرانة!

• ذكر إبراهيم بن الجنيد أن رجلاً راود امرأةً عن نفسها فقالت له: أنت قد سمعتَ القرآن والحديث، فأنت أعلم. قال: فأغلقي الأبواب. فأغلقتها، فلما دنا منها قالت: بقي بابٌ لم أغلقه. قال: أي باب؟ قالت: الباب الذي بينك وبين الله! فلم يتعرَّض لها.

• قال اليزيدي: دخلتُ على هارون الرشيد، فوجدته مكبّاً على ورقة ينظر فيها مكتوبة بالذهب. فلما رآني تبسَّم، فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟

قال: نعم، وجدتُ هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتُهما، فأضفتُ إليهما ثالثاً، ثم أنشدني:

إذا سُدَّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ فدعْهُ لأخرى ينفتح لك بابُها
فإن قُراب البطن يكفيك ملأهُ ويكفيك سوءاتِ الأمور اجتنابُها
فلا تكُ مبذالاً لدينك واجتنب ركوبَ المعاصي يجتنبك عقابُها

• قال شعبة: كلَّم رجلٌ من العُبّاد امرأةً، فلم يزل بها حتى

وضعَ يده على فخذها. فانطلق فوضع يده على النار حتى احترقت وجفّت.

● عن وهب بن منبه قال: قال موسى عليه السلام: أي ربِّ، أيُّ عبادك أحبُّ إليك؟ قال: من أُذْكَرُ برؤيتهِ.

● وقال عبد الله بن المبارك: قال الصبيان ليحيى بن زكريا عليهما السلام: اذهب بنا نلعب. قال: أو للعب خُلقنا؟

● قال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه، وشوقه إلى ربه.

● وقال ذو النون: لكلِّ شيء عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله!

● المحبة شجرة في القلب، عروقُها الذلُّ للمحبوب، وساقُها معرفتُه، وأغصانُها خشيتُه، وورقُها الحياء منه، وثمرتُها طاعتُه، ومادتُها التي تسقيها ذكرُه، فمتى خلا الحبُّ عن شيء من ذلك كان ناقصاً.

وقد وصف الله سبحانه نفسَهُ بأنه يحبُّ عباده المؤمنين ويحبُّونه، فأخبر أنهم أشدُّ حبّاً لله، ووصف نفسه بأنه الودود، وهو الحبيب. قاله البخاري: والود خالص الحب، فهو يَوَدُّ عباده المؤمنين ويودُّونه.

● من أسماء الله الحسنى: الجميل. ومن أحقُّ بالجمال ممن كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صنعه؟ فله جمال الذات، وجمال الأوصاف، وجمالُ الأفعال، وجمال الأسماء، فأسماؤه كلُّها حُسنى، وصفاتُه كلُّها كمال، وأفعاله كلُّها جميلة، فلا يستطيع بشرٌ النظر إلى جلاله وجماله في هذه الدار، فإذا رأوه سبحانه في جنات عدن أنستهم رؤيتُه ما هم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذ إلى شيء غيره.

● سئل الجنيد: من أي شيء بكاء المحب إذا لقي المحبوب؟

فقال: إنما يكون ذلك سروراً به ووجداً من شدَّة الشوق إليه.

● سئل أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما أقربُ ما يتقرَّبُ به إلى الله عز وجل؟

فبكى ثم قال: مثلي يُسأل عن هذا؟ أقربُ ما يُتَقَرَّبُ به إليه أن يطَّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو.

● قال سهل بن عبد الله: ما من ساعةٍ إلا والله سبحانه يطَّلع فيها على قلوب العباد، فأيُّ قلب رأى فيه غيرَه سلَّط عليه إبليس!

● كان شيخ من الأعراب يدور على المجالس ويقول: من سرَّه أن تدوم له العافية فليتَّقِ الله.

● وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى: بلغني عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرةٍ فإذا جاريةٌ حسناءُ عليها ثيابُ سوادٍ، فنظر إليها فعلقت بقلبه، فكتب إليها:

قد كنتُ أحسبُ أَن الشمس واحدةٌ ... والبدرَ في منظرٍ بالحسن موصوفُ
حتى رأيتُكِ في أثواب ثاكلةٍ ... سُودٍ وصدغُك فوقَ الخدّ معطوفُ
فرحتُ والقلبُ مني هائمٌ دنفٌ ... والكبد حرَّى ودمعُ العين مذروفُ
رُدَّى الجواب ففيه الشكرُ واغتنمي ... وصلَ المحبِّ الذي بالحبِّ مشغوفُ

ورمى بالرقعة إليها، فلما قرأتها كتبت:

إن كنتَ ذا حسبٍ زاكٍ وذا نسبٍ ... إن الشريف بغضِّ الطرفِ معروفُ
إن الزناة أناسٌ لا خلاق لهم ... فاعلم بأنك يوم الدين موقوفُ
واقطع رجاك لحاك الله من رجلٍ ... فإن قلبي عن الفحشاء مصروف

فلما قرأ الرقعة زجر نفسه وقال: أليس امرأة تكون أشجع

منك؟ ثم تاب.. والتجأ إلى الحرم...

● ومن أفضل ما سئل اللَّهُ عزّ وجلّ: حبُّه، وحبُّ من يحبّه، وحبُّ عملٍ يقرِّبُ إلى حبِّه، ومن أَجمع ذلك أن يقول: «اللهمَّ إني أسألك حبَّكَ، وحبَّ من يحبُّك، وحبَّ عملٍ يقرّبني إلى حبِّك، اللهمَّ ما رزقتني مما أُحبُّ فاجعله قوَّةً لي فيما تحب، وما زَويْتَ عني مما أُحبّ فاجعله فراغاً لي فيما تحبّ، اللهم اجعلْ حبَّكَ أحبَّ إليَّ من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ، اللهمّ حبِّبني إليك وإلى ملائكتك وأَنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، واجعلني ممن يحبُّك ويحبُّ ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، واجعلني ممن يحبُّك ويحبُّ ملائكتك وأنبياءك ورسلك وَعبادك الصالحين، اللهمَّ أَحي قلبي بحبِّك، واجعلني لك كما تحبّ، اللهمَّ اجعلني أُحبَّك بقلبي كلِّهِ، وأُرضيك بجُهدي كلِّه، اللهمّ اجعل حبي كلَّه لك، وسعيي كلَّه في مرضاتك».

وهذا الدُّعاء هو فُسطاط خيمة الإِسلام الذي قيامُها به، وهو حقيقة شهادة أَن لا إله إلا الله وَأَن محمداً رسولُ الله، والقائمون بحقيقة ذلك هم الذين بشهاداتهم قائمون.

● كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً، فدخلت عليه امرأة بيتَهُ، فسألته نفسَهُ فامتنع عليها، فقالت: إذن أفضحك!

فخرج هارباً عن منزله وتركها فيه!

● رُئي رجل من الأنصار مهموماً وهو يُعَزَّى في ولده، وكان حسن الوجه، حسن الثياب، فسئل عن قصته فقيل: أصيب بابنه وكان به بارّاً قد كفاه جميع ما يعنيه، وموته عجب! فقد أحبته امرأة، فأرسلت إليه تشكو حبَّه وتسأله الزيارة، وكان لها زوج. فألحَّت عليه، فأفشىٰ ذلك إلى صديق له فقال له: لو بعثتَ إليها بعض أهلك فوعظَتْها وزجرتها رجوتَ أن تكفَّ عنك. فأمسك.

ثم أرسلت إليه: إما أن تزورني وإما أن أزورك. فأبى. فلما

يئست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر، فجلعت لها العطاء الجزل في تهييجه. فعملت لها في ذلك، فبينا هو ذات ليلة مع أبيه، إذ خطرَ ذكرُها بقلبه، وهاج منه أمرٌ لم يكن يعرفه. واختلط عقله، فقام مسرعاً فصلى واستعاذ، والأمر يشتد، فقال: يا أبه أدركني بقيد. فقال: يا بني ما قصتك؟ فحدَّثه بالقصة. فقام وقيَّده وأدخله بيتاً، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور، ثم هدأ فإذا هو ميت، والدم يسيل من منخره!

● قال أبو عثمان التيمي: مرَّ رجلٌ براهبة من أجمل النساء، فافتتن بها، فتلطَّف في الصعود إليها، فراودها عن نفسها، فأبت عليه وقالت: لا تغترَّ بما ترى.. فأبى حتى غلبها على نفسها. وكان إلى جانبها مجمرة، فوضعت يدها فيها حتى احترقت! فقال لها بعد أن قضى حاجته منها: ما دعاكِ إلى ما صنعتِ؟ قالت: إنك لما قهرتني على نفسي خفتُ أن أشاركك في اللذة فأشاركك في المعصية، ففعلتُ ما رأيت!

فقال الرجل: والله لا أعصي الله أبداً! وتاب مما كان عليه.

● وأحبَّ رجلٌ جاريةً من العرب ـ وكانت ذات عقل وأدب ـ فما زال يحتال في أمرها حتى اجتمع منها في ليلةٍ مظلمة شديدة السواد. فحادثها ساعة، ثم دعته نفسه إليها فقال: يا هذه، قد طال شوقي إليك. قالت: وأنا كذلك. فقال: هذا الليل قد ذهب والصبح قد اقترب. قالت: هكذا تفنىٰ الشهوات وتنقطع اللذات. فقال لها: لو دنوتِ مني. فقالت: هيهات! أخافُ البعدَ من الله. قال: فما الذي دعاكِ إلى الحضور معي؟ قالت: شقوتي وبلائي. قال لها: فمتى أراكِ؟ قالت: ما أنساك، وأما الاجتماع معك فلا أراه يكون. ثم تولت.

قالت: فاستحييتُ مما سمعتُ منها، وأنشد:

توقَّت عذاباً لا يُطاق انتقامُه ... ولم تأتِ ما تخاف به أن تعذَّبا
وقالت مقالاً كدتُ من شدة الحيا ... أهيم على وجهي حياً وتعجُّبا
ألا أُفّ للحبِّ الذي يورث العمى ... ويورد ناراً لا تملُّ التلُّهبا

● ليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالةٍ لا يلتذُّون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بدَّ لهم منه. ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذُّ به عُشر معشار التذاذ من يفعله نادراً في الأحيان، غير أن العادة مقتضية ذلك فيُلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة. ولو زال عنه غشاوة الهوى لعلم أنه قد شقي من حيث قدَّر السعادة، واغتمَّ من حيث ظنَّ الفرج، وأَلِمَ من حيث أراد اللذة، فهو كالطائر المخدوع بحبةِ القمح، لا هو نال الحبة، ولا هو تخلص مما وقع فيه.

فإن قيل: فكيف يتخلص مِن هذا مَن وقع فيه؟ قيل: يمكنه التخلُّصُ بعون الله وتوفيقه له بأمور:

- عزيمة حُرٍّ يغار لنفسه وعليها.

- جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

- إيثاره لذَّة العفَّة وعزَّتها وحلاوتها على لذَّة المعصية.

- إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده، وهو خيرٌ وأنفع له من لذَّة موافقة الهوى.

- فرحه بغلبة عدوه وقهره له وردِّه خاسئاً بغيظه.

- التفكر في أنه لم يُخلق للهوى، وإنما هُيِّءَ لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى.

- أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوانُ البهيمُ أحسن حالاً منه،

فإن الحيوان يميِّز بطبعه بين مواقع ما يضرُّه وما ينفعه، فيؤثر النافع على الضار...

ـ أن يتفكر في عواقب الهوى.. فكم من شهوة كسرت جاهاً، ونكست رأساً، وأعقبت ذلاً، وألزمت عاراً...

ـ أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة...

ـ أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يُطيف به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلاً إلا من باب الهوى، فيسري معه سريان السم في الأعضاء.

ـ أن الله سبحانه وتعالى شبَّه أتباع الهوى بأخسِّ الحيوانات صورة ومعنى، فشبَّههم بالكلب تارة، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾(١)، وبالحمر تارة، كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠﴾(٢)، وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة.

ـ أنه يُخاف على من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يؤمنُ أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به**».

ـ أن مخالفة الهوى تورث العبد قوةً في بدنه وقلبه ولسانه.. وفي الحديث الصحيح المرفوع: «**ليس الشديد بالصُّرَعة، ولكن**

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٢) سورة المدثر: الآية ٥٠.

الشديد الذي يملك نفسَهُ عند الغضب».

ـ إن الهوى داء، ودواؤه مخالفته. قال بشر الحافي: البلاءُ كلُّه في هواك، والشفاءُ كلُّه في مخالفتك إياه.

ـ أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح.

ـ أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوىً وعقلاً، فأيهما ظهر توارى الآخر، كما قال أبو علي الثقفي: من غلبه هواه توارى عنه عقله.

ـ أنك إذا تأملت السبعة الذين يُظلِّهم الله عز وجل في ظلِّ عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظله، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظلَّ بمخالفة الهوى...

الزهد الكبير(*)
للبيهقي

كان الإمام الحسن البصري كثيراً ما يقول: يا معشر الشباب، عليكم بالآخرة فاطلبوها، فكثيراً رأينا من طلب الآخرة فأدركها مع الدنيا، وما رأينا أحداً طلب الدنيا فأدرك الآخرة مع الدنيا.

● قال أبو حازم: أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى الدنيا: من خدمكِ فأتعبيه، ومن خدمني فاخدميه!

(*) كتاب الزهد الكبير/ تأليف أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي؛ حققه وخرَّج أحاديثه وفهرسه عامر أحمد حيدر. - بيروت: دار الجنان: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٨هـ، ٤٣٩ص.

وكتب الزهد معروفة في موضوعاتها، تحتوي على أخبار نادرة، وسير أعلام من علماء وسادات هذه الأمة يندر أن يتكرر أمثالها في كل عصر، ولا يجد المرء تجاه ما يقرأ عنهم سوى الإكبار والإعجاب بما كانت عليه همَّتهم العالية في العلم والعبادة والسلوك.

وكتب في هذا الجانب علماء أعلام أيضاً، أبرزهم وأقدمهم سيد الزهاد في عصره عبد الله بن المبارك رحمه الله، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل، والفضيل بن عياض، وابن أبي شيبة، والحارث المحاسبي، وأبو زرعة، والحافظ أبو داود، وأبو حاتم الرازي، وابنه، وغيرهم كثير، رحمهم الله وإيانا.

وكان لا بد من عرض كتاب في الزهد في هذه السلسلة، وكان «كتاب الزهد الكبير» هو الذي وقع بين يدي لعرضه، وليس اختياراً من بين تلك الكتب، =

● سُئل أبو صفوان الرعيني: أي شيء أول حدود الزهد؟

فقال: استصغار الدنيا.

● سئل الفضيل بن عياض عن الزهد فقال: طلب الحلال.

● وسئل الشبلي عن الزهد فقال: تحويل القلب من الأشياء إلى ربِّ الأشياء.

● قال بُنان الحمّال: الحرُّ عبدٌ ما طمع، والعبدُ حرٌّ ما قنع.

● وقال علي بن عبد العزيز: من عدم القناعة لا يُغنيه شيء بحال.

● قال محمد بن يوسف الجوهري: سمعت بشر بن الحارث يقول: اللهم إن كنتَ شهرتني في الدنيا لتفضحني في الآخرة فاسلبه عني.

● قال الإمام الشافعي: طُبع ابن آدم على اللوم، فمن شأنه أن يتقرَّب ممن يتباعد منه، ويتباعد ممن يتقرَّب منه!

● قال الجنيد بن محمد: سمعت السري السقطي يقول: إني إذا نزلتُ أريدُ صلاة الجماعة أذكر مجيء الناس إلي فأقول: اللهم

= وإنما مثالاً، ومن بينها ما هو أفضل منه، ومنها ما هو أشمل، مثل كتاب الزهد لهناد بن السري الذي صدر محققاً في ثلاثة أجزاء. والإمام البيهقي من أئمة الحديث، من قرى بيهق بنيسابور، طلب العلم طويلاً ورحل، ومات بنيسابور. قال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي، فإن له الفضل والمنة على الشافعي؛ لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آرائه. وقال الذهبي: لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهباً يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك؛ لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف. صنف زهاء ألف جزء، منها السنن الكبرى، والأسماء والصفات، والجامع المصنف في شعب الإيمان، والبعث والنشور، وفضائل الصحابة.. ت ٤٥٨ هـ.

هب لهم عبادةً يجدون لذَّتها تشغلهم بها عني!

● قال أبو هريرة رضي الله عنه: ذهب الناس وبقي النسناس! قيل له: وما النسناس؟

قال: الذين يشبهون الناس وليسوا بالناس!

● قال الفضيل بن عياض: لا تستوحش طريق الهدى لقلة أهله، ولا تغترَّ بكثرة الناس.

● قال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج همُّ الآخرة من قلبك، فبقدر ما تحزن للآخرة كذلك يخرج همُّ الدنيا من قلبك.

● حدَّث إبراهيم بن بشار قال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: ليس من أعلام الحب أن تحبَّ ما يُبغضه حبيبُك! ذَمَّ مولانا الدنيا فمدحناها، وأبغضها فأحببناها، وزهَّد فيها فآثرناها ورَغِبْنا في طلبها، ووعَدكم خرابَ الدنيا فحصَّنتموها، ونهاكم عن طلبها فطلبتموها، وأنذركم الكنوز فكنزتموها...

● قال الفضيل بن عياض لأبي تراب: يا أبا تراب، الدخول في الدنيا هيِّن، ولكنَّ التخلُّص منها شديد.

● وقال بشر بن الحارث: لو لم أبغض الدنيا إلا أن الله عزَّ وجلَّ يُعصىٰ فيها، كان ينبغي أن نبغضها.

● وقال الشبلي: الدنيا خيال، وطلبها وبال، وتركها جمال، والإعراض عنها كمال، والمعرفة بالله اتصال.

● قال إبراهيم بن أدهم: أشدُّ الجهاد جهاد الهوى، من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلاها، وكان محفوظاً معافى من أذاها.

● وعن يوسف بن أسباط قوله: من صبر على الأذى وتركِ الشهوات، وأكلَ الخبزَ من حلاله فقد أخذ بأصل الزهد.

● قال إبراهيم بن أدهم: الجوعُ يُرقُّ القلب.

● وعن الفضيل: خصلتان تقسيان القلب: كثرة النوم، وكثرة الأكل.

● خطب علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بالكوفة فقال: أيها الناس، إن أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل واتباعَ الهوى. فأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق. ألا إن الدنيا قد ولَّت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

● ومن قول الفضيل: ما أطال رجلٌ الأملَ إلا أساء العمل.

● قال أبو القاسم النصر أباذي: مراعاة الأوقات من علامات التيقظ.

● وسُمع من السري السقطي قوله: اجعل قبرك خزانتك، احشها من كل عمل صالح يمكنك، فإن وردتَ على قبركَ سرَّك ما ترى فيه.

● قالت رابعة العدوية: ما رأيتُ ثلجاً قط إلا ذكرتُ تطاير الصحف، ولا رأيتُ جراداً قط إلا ذكرتُ الحشر، ولا سمعتُ أذاناً قط إلا ذكرت منادي القيامة!

● قال داود الطائي لسفيان: إذا كنتَ تشربُ الماءَ البارد والمروَّق، وتأكلُ اللذيذ الطيب، وتمشي في الظل الظليل، متى تحبُّ الموت والقدوم على الله عزَّ وجل؟ فبكى سفيان.

● وعن المطرِّف قوله: أفسدَ الموتُ على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه.

• قال قبيصة: ما جلستُ مع سفيان الثوري مجلساً إلا ذَكَرَ فيه الموت، وما رأيتُ أحداً كان أكثر ذكراً للموت منه!

• التقى حسان بن أبي سنان وحوشب، فقال له حوشب: كيف أنت يا أبا عبد الله؟ كيف حالك؟

قال: ما حالُ من يموت، ثم يُبعث، ثم يُحاسب؟!

• نصح لقمان ابنه فقال: يا بني لا تؤخِّر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة.

• قال أبو عثمان: بلغت نحواً من ثلاثين ومائة سنة، وما مني شيء إلا قد عرفتُ النقصَ فيه إلا أملي، فإني أرى أملي كما هو!

• قال مسلم النحّات: إذا مات أقران الرجل فقد مات.

• وقال القاضي أبو يوسف: ما هدَّني شيء مثلما هدَّني موت الأقران!

• وقال أيوب السختياني: ما نُعي إليَّ أحدٌ من إخواني إلا خُيِّل إلي أن عضواً من أعضائي سقط!

• سُمع محمد بن أعين يقول: كان عندنا فتى قلَّما ينام الليل، يصلِّي، ويقرأ، ويسبِّح، فإذا كان آخر الليل يبكي ويقول:

تفكرتُ طولَ الليل فيما جنيتُه ... وذكَّرتُ نفسي كلَّ ذنبٍ أتيتُه
وأنكرتُ منها ما تعاطيتُ في الصبا ... كأن شبابي كان سهماً رميتُه
وسوَّد صحفي بالذنوب أوانه ... وولَّى سريعاً مثلُ حُلْم رأيتُه

• أنشد أبو سعد عبد الرحمن بن الكاتب لنفسه:

ألا فارجُ عفوَ الله عن هفواتكا ... وبادر إلى الخيرات قبل فواتكا
ولا تمضِ بالتسويفِ عمرك إنني ... رأيتُ المنايا بالنفوس فواتكا

● وأنشد أبو بكر بن المؤمل:

وما حالاتنا إلا ثلاث: شباب ثم شيب ثم موت

● ولمحمود الوراق:

يبكي على مَيْتٍ ويغفلُ نفسه كأن بكفَّيهِ أمانٌ من الرَّدى
وما الميِّتُ المقبور في صدر يومه أحقُّ بأن يبكيه من ميت غدا

● سُئل بعض الحكماء: من أنعم الناس عيشاً؟ فقال: بدنٌ في التراب، قد أمنَ العقاب، ينتظر الثواب.

● قال حذيفة: من أراد أُنساً بلا جماعة، وعزّاً بلا عشيرة، فليتَّخذ طاعة الله بضاعة.

● وعن إبراهيم بن أدهم: أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان. ومن وفَّى العمل وُفي له الأجر، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير.

● وعظ أعرابي قوماً فقال: رحم الله امرءاً كان قوياً فاستعمل قوَّته في طاعة الله، وكان ضعيفاً فعجز عن معاصي الله.

● أوصى لقمان ابنه فقال: يا بني، إذا فعلتَ الخيرَ فارجُ الخير، وإذا فعلت الشرَّ فلا تشكَّ أن يُفعل بك الشر.

● سئل سهل التستري: متى يكون العبدُ عبداً؟

فقال: إذا رضي بالله وباختياره له.

● جاء رجل إلى حاتم الأصم فقال: ما تشتهي؟ قال: أشتهى عافية يوم إلى الليل. فقيل له: أليست الأيامُ كلُّها عافية؟ فقال: إن عافية يوم أن لا أعصي الله فيه.

● وعظ الجنيد رجلاً فقال له: جماعُ الخير كلِّه في ثلاثة

أشياء: إن لم تُمضِ نهارك بما هو لك فلا تُمضه بما هو عليك، وإن لم تصحب الأخيار فلا تصحب الأشرار، وإن لم تُنفق مالك فيما لله فيه رضا فلا تنفقه فيما لله فيه سخط.

● قال خالد بن خداش: حدثنا الفضيل بن عياض قال: ممن أنت؟ قلت: مهلبيّ. قال: إن كنتَ رجلاً صالحاً فأنت الشريف كلُّ الشريف، وإن كنتَ رجلَ سوءٍ فأنت الوضيعُ كلُّ الوضيع.

● كان صلة بن أشيم يخرج إلى مسجد له في الجبّان، فيمرُّ على شباب يلهون، فيقول لهم: أيْ قوم، أخبروني عن قوم أرادوا سفراً، فجاوزا بالنهار عن الطريق، وناموا الليل، متى يقطعون سفرهم؟ فانتبه منهم شاب فقال: إن هذا الشيخ إنما يعنيكم بقوله، إذا كنتم بالنهار في لهوكم، وبالليل تنامون، فمتى تريدون أن تقطعوا سفركم؟

قال: ولزم الشابُّ صلةَ بن أشيم، فتعبَّد معه حتى مات.

● قال أبو العباس الدينوري: ليس في الدنيا والآخرة أعزُّ وألطف من الوقت والقلب، وأنت مضيِّع للوقت والقلب!

● أنشد عامر بن العباس الهمداني الزاهد:

إنما الدنيا إلى الجنةِ والنارِ طريقُ   والليالي مَتجرُ الإنسانِ والأيامُ سوقُ

● عن قتادة في قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[1] قال: إي والله، ودّاً في قلوب أهل الإيمان.

● قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا أراد الله بعبدٍ خيراً عسَّله**».

قيل: يا رسول الله، وما عَسَّله؟

قال: «**يفتحُ له عملاً صالحاً قبل موته حتى يرضى عنه مَنْ**

(١) سورة مريم: الآية ٩٦.

حولَه». رواه الحاكم في المستدرك وقال: إسناده صحيح، ووافقه الذهبي.

● جاء رجل إلى يونس بن عبيد ـ رحمه الله ـ فقال له: أنت يونس بن عُبيد؟ قال: نعم. قال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى رأيتك. قال: وما حاجتك؟ قال: أريد أن أسألك عن مسألة. قال: سل عما بدا لك. قال: أخبرني ما غاية الورع؟ قال: محاسبة النفس مع كل طرفة، والخروج من كلِّ شبهة. قال: فأخبرني ما غاية الزهد؟ قال: تركُ الراحة!

● وعنه رحمه الله قال: عجبتُ من كلمات ثلاث:

عجبتُ من كلمة مورِّق العجلي: «ما قلتُ في الغضب شيئاً فندمتُ عليه في الرضا».

وعجبت من كلمة محمد بن سيرين: «ما حسدتُ أحداً على شيء من الدنيا: إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من الدينا وهو صائر إلى النار»؟!

وعجبت من كلمة حسان بن أبي سنان: «ما شيءٌ أهونُ عندي من الورع، إذا رابني شيء تركتُه»!

● قال أبو قتادة وأبو الدهماء: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوي: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فجعل يعلمني مما علَّمه الله، فكان فيما حفظتُ عنه أنه قال: «**إنك لا تدع شيئاً اتِّقاء الله إلا أعطاك الله خيراً منه**». رواه أحمد بأسانيد، ورجالها رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١٠/٢٩٦).

● عن يحيى بن معين أنه قال:

المالُ يذهبُ حِلُّه وحرامُه يوماً وتبقى في غدٍ آثامُه

ليس التقيُّ بمتَّقٍ لإلهِهِ		حتى يَطِيْبَ شرابُه وطعامُه
ويطيبَ ما يحوي ويكسبُ كفُّه		ويكونَ في حُسْنِ الحديثِ كلامُه
نطقَ النبيُّ لنا به عن ربِّه		فعلى النبيِّ صلاتُه وسلامُه

● قال يوسف بن أسباط: إذا تعبَّد الشابُّ يقول إبليس: انظروا من أين مطعمه. فإن كان مطعمه مطعمَ سوءٍ قال: دعوه لا تشتغلوا به، دعوه يجتهد وينصب فقد كفاكم نفسَهُ!

● وقال سليمان بن حرب: من كان أزهدَ من الأسود بن شيبان؟ حجَّ على ناقةٍ له، فشرب من لبنها، وركب ظهرها حتى رجع، لم يأكل في خروجه غير لبنها!

● أقام بشرُ بن الحارث بعبّادان عشر سنين يشرب من ماء البحر ولا يشرب من حياض السلاطين، حتى أضرَّ بجوفه. فرجع إلى أخته، وأخذه وجع لا يقومُ به إلا أخته!

قال: وهو يتَّخذُ المغازل فيبيعه، فذاك كسبُه.

● قال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: «**تدرون ما أكثر ما يُدخل الناسَ النارَ**»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**أكثر ما يُدخل الناس النار الأجوفان: الفرج والفم. تدرون ما أكثر ما يُدخل الناس الجنة**»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**فإن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق**».

أخرجه الترمذي وقال: صحيح غريب. والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

زهر الآداب وثمر الألباب(*) للحصري

● من كلام عمر رضي الله عنه:

- قلَّما أدبر شيءٌ فأقبل.

- أشكو إلى الله ضعف الأمين، وخيانة القوي.

(*) زهر الآداب وثمر الألباب/ لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني؛ عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه وشرحه ووضع فهارسه علي محمد البجاوي. ـ ط٢، فيها زيادة شرح وتعليق. ـ القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٩هـ، ٢ مج (١١٧٨ص).

وهو من أمهات كتب الأدب، ويشبه في طريقته ـ كما يقول المحقق ـ الأمالي لأبي علي القالي، والبيان والتبيين للجاحظ، فمؤلفه يرسل القول إرسالاً، ويُتْبِع المُلحة بالطُّرفة، والقصيدة بالرسالة، وينتقل من جد إلى فكاهة، ويستدرج قارئه من حديث إلى حديث.

ويقول المؤلف في التعريف بكتابه: «هذا كتاب اخترتُ فيه قطعة كافية من البلاغات، في الشعر والخبر، والفصول والفِقَر، مما حسن لفظُ معناه، واستُدِلَّ بفحواه على مغزاه، ولم يكن شارداً حُوشياً، ولا ساقطاً سوقياً... ولم أذهب في هذا الاختيار إلى مطوَّلات الأخبار.. وليس لي في تأليفه من الافتخار أكثر من حسن الاختيار، واختيارُ المرء قطعةٌ من عقله، تدلُّ على تخلُّفه أو فضله، ولا شكَّ ـ إن شاء الله ـ في استجادة ما استجدت، واستحسان ما أردت، إذ كان معلوماً أنه ما انجذبت نفسٌ، ولا احتج حِسٌّ، =

ـ من لا يعرف الشرَّ كان أجدر أن يقع فيه!

● قال علي رضي الله عنه: الدنيا بالأموال، والآخرة بالأعمال.

● وقال الأحنف بن قيس: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات.

● عزّى جعفر الصادق رجلاً فقال: أَعْظِمْ بنعمةٍ في مصيبة جلبت أجراً، وأَفْظِعْ بمصيبة في نعمة أكسبت كفراً. هذا كقول الطائي:

قد يُنْعِمُ الله بالبلوى وإن عَظُمَت ويبتلي اللّهُ بعضَ القوم بالنِّعمِ

● ولدت هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن موسى ولها ستون سنة، ولا يُعلم امرأةٌ ولدت بنت ستين سنة إلا قرشية!

● قال برزجمهر: الكتب أصداف الحِكَم، تَنْشَقُّ عن جواهر الكَلِم.

● ما كُتِبَ قَرَّ، وما حُفِظَ فَرَّ!

● قال المتوكل لأبي العيناء: ما تحسن؟ قال: أَفْهَم وأُفْهِم.

= ولا مال سِرٌّ، ولا جال فكر، في أفضل من معنى لطيف ظهر في لفظ شريف...

وقد رغبت في التجافي عن المشهور في جميع المذكور.. لأن أول ما يقرع الآذان أدعىٰ إلى الاستحسان مما مجَّته النفوس لطول تكراره، ولفظته العقول لكثرة استمراره، فوجدتُ ذلك يتعذَّر ولا يتيسَّر، ويمتنع ولا يتَّسع، ويُوجب ترك ما نَدر إذا اشتهر.. فلما أُعرض إلا عمّا أهانه الاستعمال، وأذاله الابتذال... وفيه لطائف الابتداع، وتوليدات الاختراع... فوشحتُ تأليفه، وطرَّزتُ ديباجه، ورصَّعتُ تاجه، ونظَمتُ عقوده، ورقمت بروده، فنُوْرُها يرفُّ، ونَوْرُها يشفُّ، في روضٍ من الكلم مونق، وورنق من الحكم مشرق..».

والمؤلف سبق التعريف به عند عرض كتابه «جمع الجواهر في الملح والنوادر» وهو ذيل «زهر الآداب» هذا. وهو أديب من أهل القيروان، نسبتُه إلى عمل الحصر، وهو ابن خالة الشاعر أبي الحسن الحصري ناظم «يا ليل الصب». ت ٤٥٣هـ.

● كان يقال: مقطَّعات الأدب قُراضات الذهب!

● قال عبد الله بن سالم الخياط في رجل كثير الكلام:

لي صاحبٌ في حديثه البركة يزيدُ عند السكونِ والحركه
لو قال لا في قليلِ أحرُفِها لردَّها بالحروف مشتبكه

● قال ابن الماجشون: إني لأسمع بالكلمة المليحة وما لي إلا قميصٌ واحد، فأدفعه إلى صاحبها، وأستكسي الله عز وجل!

● رأى سفيانُ الثوري الغاضريَّ وهو يُضحك الناسَ، فقال: يا شيخ، أو ما علمتَ أن لله يوماً يخسرُ فيه المبطلون؟

فوجم الغاضري، وما زال ذاك يُعْرَفُ فيه حتى لقي الله عز وجل!

● كان عروة بن أُذينة على زهده، وورعه، وكثرة علمه وفهمه، رقيق الغزل كثيره، وهو القائل:

إذا وجدتُ أُوارَ الحبِّ في كبدي أقبلتُ نحو سِقاءِ القوم أبْتَرِدُ
هبني بَرَدْتُ ببردِ الماء ظاهره فمن لنارٍ على الأحشاء تتَّقدُ؟

وقد روي هذان البيتان لغيره.

● تجمع قوم من أهل الصناعات، فوصفوا بلاغاتِهم، من طريق صناعاتهم:

فقال الجوهري: أَحسنُ الكلامِ نِظاماً ما ثقبته يَدُ الفكرة، ونظمته الفِطْنة، ووُصِل جَوْهَرُ معانيه في سُموط[1] أَلْفَاظه، فاحتملته نحورُ الرواة.

---

(١) السمط: خيط النظم.

وقال العطار: أَطيبُ الكلامِ ما عُجِنَ عَنْبُر ألفاظه بمسْك مَعَانيه، ففاح نسيمُ نَشَقِه[1]، وسطعت رائحةُ عَبَقِه؛ فتعلقت به الرُّوَاة، وتعطَّرت به السّراة.

وقال الصائغ: خيرُ الكلام ما أَحْمَيْتَه بِكِير الفِكر، وسبَكْتَه بمشَاعِل النّظر، وخلَّصته من خَبَث الإطناب؛ فبرز بروزَ الإبريز، في معنى وَجيز.

وقال الصيرفي: خيرُ الكلام ما نَقَدَتْهُ يدُ البصيرة، وجَلته عينُ الرويَّة، ووزنْتَه بمِعْيَار الفصاحة، فلا نظر يُزَيّفه، ولا سماعَ يُبَهْرِجُه.

وقال الحداد: أحسنُ الكلام ما نصبت عليه مِنْفَخة القريحة، وأشعلْتَ عليه نار البصيرة، ثم أخرجْتَه من فحم الإفحام، ورقَّقته بفطِّيس[2] الإفهام.

وقال النجار: خيرُ الكلام ما أحكمتَ نَجْرَ معناه بقدُّوم التقدير، ونَشَرْتَه بمنشار التدبير؛ فصار باباً لبيت البيان، وعارِضة لسَقْفِ اللسان.

وقال النجاد: أحسنُ الكلام ما لطُفت رَفَارِف ألفاظه. وحَسُنت مَطَارِح معانيه؛ فتنزهت في زَرَابيِّ محاسنه عيونُ الناظرين، وأصاخت لنمارِقِ بَهجْتَه آذانُ السامعين.

وقال الماتح[3]: أبْيَن الكلام ما علقت وَذَمُ ألفاظه ببكرة[4] معانيه، ثم أرسلته في قَلِيب الفطن، فمتحتَ به سِقَاء يكشِفُ الشبهات، واستنبطت به معنى يروي من ظمأ المشكلات.

---

(١) نشقه: شمُه.
(٢) الفطِّيس: المطرقة العظيمة.
(٣) الماتح: الذي يُخرج الماء من البئر بالدلو.
(٤) الوذم: السيور بين آذان الدلو.

وقال الخياط: البلاغةُ قميص؛ فجُرُبَّانه البيان، وجَيْبُه المعرفة، وكُمَّاه الوجازة، ودَخارِيصه الإفهام، ودُرُوزُه الحلاوة، ولابِسُ جَسَدُه اللفظ، ورُوحه المعنى[1].

وقال الصبّاغ: أَحسنُ الكلام ما لم تنْضَ بهجة إيجازه[2]، ولم تكشف صبغة إعجازه، قد صَقَلَتْه يَدُ الروّية من كُمُود[3] الإشكال، فَراعَ كواعِبَ الآداب، وألَّف عَذَارى الألْبَاب.

وقال الحائِك: أحسنُ الكلامِ ما اتَّصَلت لُحْمَةُ ألفاظه بسَدَى معانيه، فخرج مُفَوَّفاً مُنيراً، ومُوَشَّى محبَّراً.

وقال البزاز: أحسنُ الكلام ما صدقَ رقم أَلْفَاظه، وحسن نَشْرُ معانيه؛ فلم يستَعْجِم عنك نَشر، ولم يستبهم عليك طَيّ.

وقال الرائض: خيرُ الكلام ما لم يخرج عن حَدِّ التَّخْليع[4] إلى منزلة التَّقْرِيب إلا بعد الرياضة، وكان كالمُهْرِ الذي أطمع أوَّلُ رياضته في تمام ثَقَافته.

وقال الحمَّال: البليغُ من أخَذ بخِطام كلامِه، فأناخَه في مَبْرك المعنى، ثم جعل الاختصارَ له عِقَالاً، والإيجاز له مَجَالاً، فلم يَنِدّ عن الآذان، ولم يشذَّ عن الأذهان.

وقال الفُقَّاعي: خيرُ الكلام ما رَوَّحَتْ ألفاظه غَبَاوة الشكّ، ورفعت رِقَّتُه فظاظةَ الجهل، فطاب حِسَاءُ فطنته، وعذُب مَصُّ جُرعة.

وقال الطبيب: خيرُ الكلام ما إذا باشر دواءُ بيانه سقم الشّبهة استطلقت طبيعةُ الغباوة؛ فشُفِي من سوءِ التفهم، وأورث صحةَ التوهّم.

---

(١) الجربان للقميص: جيبه، والدخريص: مايوصل به البدن ليوسعه.

(٢) لم تنض: لم تمح.

(٣) الكمدة: تغير اللون وذهاب صفائه.

(٤) تخلّع في مشيته: هزَّ منكبيه ويديه.

وقال الكحَّال: كما أن الرّمد قَذَى الأبصارِ، فكذا الشبهةُ قَذَى البصائر، فاكْحَل عَيْنَ اللُّكنة بميل[1] البلاغة، واجلُ رَمَص الغَفَلة بِمِرْوَدِ اليقظة.

ثم قال: أجمعوا كلهم على أن أبلغَ الكلام ما إذا أشرقت شَمْسُه انكشف لَبْسه، وإذا صدقت أنواؤه اخضرَّتْ أحماؤه[2].

● قال السفاح العباسي: إن من أدنى الناس ووضعائهم من عَدَّ البخل حَزْماً، والعفوَ ذُلاً.

● قال أمير المؤمنين علي: من فكَّر في العواقب لم يشجُع.

● قال المعتصم: إذا نُصِرَ الهوى بطلَ الرأي.

● ومما نظمه الشاعر الواعظ محمود الوراق:

يحبُّ الفتى طولَ البقاء كأنه ... على ثقةٍ أن البقاءَ بقاءُ
إذا ما طوى يوماً طوى اليومُ بعضَه ... ويطويه إنْ جنَّ المساءُ مساءُ
زيادتُه في الجسم نقصُ حياتِهِ ... وأنّى على نقص الحياةِ نماءُ
جديدان لا يبقى الجميع عليهما ... ولا لهما بعدَ الجميع بقاءُ

● وقال شمس المعالي:

وفي السماء نجومٌ ما لها عددٌ ... وليس يُكْسَفُ إلا الشمسُ والقمرُ!

● لما ولي أبو الصقر إسماعيل بن بلبل الوزارة، مدحه ابن الرومي بقصيدته النونية، وهي أكثر من مائتي بيت، فأنشدها أبا الصقر، فلما سمع قوله:

(١) الميل: المحكال.

(٢) الأحماء: المكان يحميه الرجل ويمنعه.

قالوا أبو الصقر من شَيْبانَ قلت لهم كـلا لـعـمـري ولـكـن مـنـه شَـيْـبـانُ

قال: هجاني. قيل له: إن هذا من أحسن المدح، ألا تسمع ما بعده:

وكم أبٍ قد علا بابنٍ ذُرىٰ شَرَفٍ كـمـا عَـلَـتْ بـرسـولِ الله عـدنـانُ

قال: أنا بشيبانَ لا شيبانُ بي. فقيل له: فقد قال:

ولـم أُقَـصِّـر بـشيـبـانَ الـتي بلـغـت بـهـا الـمَـبـالـغ أعـراقٌ وأغـصـانُ
لله شـيـبـانُ قـومٌ لا يـشـوبُـهـمُ رَوْعٌ إذا الـروعُ شـابـت مـنـه وِلْـدانُ

فقال: لا والله لا أُثيبه على هذا الشعر وقد هجاني!

ولما نُكب به قال فيه أهاج كثيرة..

● قال الخليفة المتوكل لأبي العيناء: قد أردتُك لمجالستي، قال: لا أُطيق ذاك، وما أقول ذلك جهلاً بما لي في هذا المجلس من الشرف، ولكني محجوب (أي أعمى)، والمحجوب تختلفُ عليه الإشارة، ويخفى عليه الإيماء، ويجوز أن يتكلم بكلام غضبان ووجهك راض، أو بكلام راض ووجهك غضبان، ومتى لم أُميِّز بين هذين هلكت!

قال: صدقت، ولكن تلزمنا.

● وقال له المتوكل يوماً: يا أبا العيناء، لا تكثر الوقيعة في الناس. قال: إن لي في بصري لشُغلاً عن الوقيعة فيهم. قال: ذلك أشدُّ لحيفك في أهل العافية!

● دخل أبو العيناء على المتوكل بعد طول غياب، فقال له: قد والله اشتقتك!

فقال أبو العيناء: إنما يشتاقُ العبدُ، لأنه يتعذَّرُ عليه لقاءُ مولاه، وأما السيدُ فمتى أراد عبدَه دعاه!

● وقال له المتوكل: مَنْ أسخى مَنْ رأيت؟ قال: ابن أبي

دؤاد. قال المتوكل: تأتي إلى رجلٍ رفضتُه فتنسبه إلى السخاء؟

قال: إن الصدق يا أمير المؤمنين ليس في موضعٍ من المواضع أنفق منه في مجلسك، وإنَّ الناس يغلطون فيمن ينسبونَه إلى الجود، لأن سخاء البرامكة منسوبٌ إلى الرشيد، وسخاءُ الفضل والحسن ابني سهل منسوب إلى المأمون، وجودُ ابن أبي دؤاد منسوب إلى المعتصم. فإذا نَسب الناسُ الفتحَ وعبيد الله ابني يحيى إلى السخاء فذلك سخاؤك يا أمير المؤمنين.

قال: صدقت، فمن أبخل من رأيت؟. قال: فلان.. قال: وما رأيت من بخله؟

قال: رأيته يخدم القريب كما يخدم البعيد، ويعتذر من الإحسان كما يعتذر من الإساءة!

فقال له: قد وقعتَ فيه عندي مرتين، وما أحبُّ لك ذلك، فالقه واعتذر إليه، ولا يعلم أني وجهتُ بك!

● وذكر أبو العيناء رجلاً فقال: ضحكٌ كالبكاء، وتودُّدٌ كالعزاء، ونوادر كَذِبِ الموتى!

● لما قُتل ذو الرياستين دخل المأمونُ على أمِّه فقال: لا تجزعي، فإني ابنُكِ بعد ابنك!

فقالت: أفلا أبكي على ابنٍ أكسبني ابناً مثلك؟!

● أهدى عمرو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سوابق خيل مصر، فعُرضت عليه وعنده عقبة بن سنان بن يزيد الحارثي، فقال له معاوية: كيف ترى هدايانا يا أبا سعيد؟ فإن أخاك عمراً قد أطنب في وصفه.

فقال: أراها يا أمير المؤمنين على ما وصف، وإنها لمخيَّلةٌ[1]

(١) تشبيه بالسحابة المخيلة، وهي التي تحسبها ماطرة.

بكل خير، إنها لسامية العيون، لاحقة البطون، مصغية الآذان، قبَّاء الأسنان[1]، ضخام الرُّكبات، مشرفات الحَجَبات[2]. رحاب المناخر، صلاب الحوافر، وقْعُها تحليل، ورفعها تعليل[3]، فهذه إن طُلبت سَبَقت، وإن طَلَبت لَحِقَت.

قال له معاوية: اصرفها إلى رَحْلك، فإنَّ بنا عنها غنى، وبفتيانك إليها حاجة!

● مدح أبو العتاهية عمر بن العلاء فقال:

إن المطايا تشتكيك لأنها ... قطعتْ إليك سباسباً ورمالا
فإذا وردْنَ بنا وردْنَ مُخِفَّةً ... وإذا صدرن بنا صدرْنَ ثقالا

وهي قصيدة سهلة الطبع، سلسلة النظام، قريبة المتناول.

وروي أن عمر بن العلاء وصله عليها بسبعين ألف درهم! فحسدته الشعراء وقالوا: لنا بباب الأمير أعوامٌ نخدُم الآمال، ما وصلنا إلى بعضِ هذا! فوصل إليه الخبر، فأمر بإحضارهم وقال لهم: بلغني الذي قلتم، وإن أحدكم يأتي فيمدحني بالقصيدة يشبِّب فيها، فلا يصل إلى المدح حتى تذهب لذةُ حلاوته ورائق طلاوته، وإن أبا العتاهية أتى فشبَّب بأبيات يسيرة، ثم قال: إن المطايا تشتكيك لأنها... وأنشد الأبيات.

● الأماني تخدعك، وعند الحقائق تَدَعك.

● من أقوال ابن المعتز في العلماء:

ـ العلماء غرباء، لكثرة الجهل.

---

(١) قبت الناب: صوتت وقعقعت.
(٢) الحجبتان: حرفا الوركين.
(٣) التحليل والتعليل: من حركات الخيل.

ـ زلَّة العالِم كانكسار سفينةٍ تغرق ويغرق معها خلق كثير.

ـ المتواضع في طلاب العلم أكثرهم علماً، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء.

● الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك.

● من أكثرَ مذاكرة العلماء لم ينسَ ما علم، واستفاد ما لم يعلم.

● إذا علمتَ فلا تذكر من دونك من الجهال، واذكر من فوقك من العلماء.

● أزهدُ الناسِ في عالمٍ جيرانُه.

● لمّا أنشد أبو تمام قصيدته في المعتصم (السيف أصدق أنباءً من الكتب) قال له: لقد جلوتَ عروسك يا أبا تمام فأحسنتَ جلاءها. فقال: يا أمير المؤمنين، والله لو كانت من الحور العين لكان حُسن إصغائك إليها من أوفى مهورها!

● أوصت أعرابية ابنها في سفر فقالت: يا بني، إنك تجاور الغرباء، وترحلُ عن الأصدقاء، ولعلك لا تلقى غير الأعداء، فخالِط الناسَ بجميلِ البِشْر، واتَّقِ الله في العلانية والسر.

● المسافر يسمعُ العجائب، ويَكْسَبُ التجارب، ويَجْلِبُ المكاسب.

● السفرُ يُسفر عن أخلاق الرجال.

● قال بعضُ الرواة: كنا مع أبي نصر راويةِ الأصمعي في رياضٍ من المُذَاكرة، نَجْتَني ثمارَهَا، ونَجْتَلِي أَنْوارَها، إلى أن أفضنا في ذكر الأصمعي؛ فقال: رحم اللَّهُ الأصمعيّ؛ إنه لمَعْدِنُ حِكَم، وبَحْرُ عِلْم، غير أنه لم نر قطّ مثلَ أعرابي وقف بنا فسلّم، فقال:

أيكم الأصمعي؟ فقال: أنا ذاك. فقال: أتأذنون بالجلوس؟ فأَذِنّا له، وعجبنا من حُسْن أَدبه مع جفاء أدب الأعراب.

قال: يا أصمعي، أَنتَ الذي يزعمُ هؤلاء النَّفَر أنك أثقبُهم معرفةً بالشعر والعربية، وحكايات الأعراب؟ قال الأصمعي: فيهم مَنْ هو أعلمُ مني، ومَنْ هُوَ دوني. قال: أفلا تنشدونني من بعض شعر أهل الحضَر حتى أقيسَهُ على شعر أصحابنا؟ فأنشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك:

أمسلمُ أنتَ البحرُ إن جاءَ واردٌ ... وليثٌ إذا ما الحربُ طَارَ عُقَابُها[1]

وأنت كسيف الهِنْدَوَانِيّ[2] إنْ غدَتْ ... حوادثُ من حربٍ يعبُّ عُبابها

وما خُلِقت أُكْرومَةٌ[3] في امرىء لهُ ... ولا غاية إلاّ إليك مآبُها

كأنك ديّانٌ عليها مُوَكَّلٌ ... بها، وعلى كفَيك يَجْرِي حِسابُها

إليك رحلْنَا العِيس[4] إذْ لم نجد لها ... أخا ثقة يُرْجَى لديه ثوابُها

قال: فتبسَّم الأعرابي، وهزّ رأسه؛ فظَننّا أنّ ذلك لاسْتِحْسانه الشعر. ثم قال: يا أصمعيّ؛ هذا شعرٌ مُهَلْهل خَلَق النَّسج، خطؤه أكثرُ من صوابه، يغطى عيوبَه حسنُ الرَّوِيّ، ورواية المنشد؛ يشبّهون الملك إذا امْتُدِح بالأسد، والأسد أبْخَر شَتيم المَنْظَر[5]، وربما طرده شِرْذِمَةٌ من إمَائِنا، وتَلاَعَب به صِبْيانُنا! ويشبّهونه بالبحر، والبحرُ صعبٌ على مَنْ رَكبه، مُرٌّ على من شربه. وبالسيف، وربما خان في الحقيقة، ونَبَا عند الضَّريبة! ألا أَنشدتني كما قال صبيٌّ من حيّنا!

(١) طار عقابها: كناية عن اشتدادها.
(٢) سيف هندواني: منسوب إلى رجال الهند.
(٣) الأكرومة: فعل الكرم.
(٤) العيس: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة.
(٥) شتيم المنظر: كريهه.

قال الأصمعي: وماذا قال صاحبكم؟ فأنشده:

إذا سألت الوَرَى عن كل مكرمةٍ | لم يُعزَ إكرامُها إلاّ إلى الهوْلِ
فتى جَوادٌ أذاب المالَ نائِلُهُ | فالنّيلُ يشكرُ منه كثْرَةَ النَّيْلِ
الموتُ يكره أَن يلقى منيّتهُ | في كرِّه عند لفِّ الخيلِ بالخيلِ
لو زاحم الشمسَ أبقى الشمسَ كاسفةً | أو زاحمَ الصُّمَّ ألْجَاها إلى الميْلِ
أمضَى من النجم إن نابَتْه نَائبةٌ | وعند أعدائه أجْرَى من السَّيْلِ
لا يستريح إلى الدنيا وزينتِها | ولا تراه إليها ساحبَ الذَّيْلِ
يقصُرُ المجدُ عنه في مكارمِه | كما يقصّر عن أفعاله قولي!

قال أبو نصر: فأبهتنا والله ما سمعنا من قوله. قال: فتأنى الأعرابي، ثم قال للأصمعي: ألاَ تنشدني شعراً ترتاحُ إليه النفس، ويسكن إليه القلب؟ فأنشده لابن الرّقاع العاملي:

وناعمةٍ تَجْلُو بعُود أراكةٍ | مؤشَّرَة يَسْبي المعانِقَ طِيبُها
أراك إلى نَجْدٍ تَحِنُّ وإنّما | مُنَى كل نفس حيثُ كان حبيبُها

فتبسّم الأعرابي وقال: يا أَصمعي، ما هذا بدون الأول، ولا فوقه. ألا أنشدتني كما قلت؟ قال الأصمعي: وما قلت؟ جُعلت فداك! فأنشده:

تَعلُّقتُها بِكراً وعُلّقَت حبَّها | فقلبيَ عن كلِّ الورَى فارغٌ بِكْرُ
إذا احتجبَتْ لم يكفك البدرُ ضوءَها | وتكفيك ضوءَ البدر إن حُجِبَ البَدْرُ
وما الصبرُ عنها، إن صبرتَ، وجدتهُ | جميلاً، وهل في مثلها يَحْسُن الصَّبْرُ!
ولو أنّ جلد الذَّر لامس جِلْدَها | لكان لمسِّ الذَّر في جِلْدِها أثْرُ
ولو لم يكُنْ للبَذْر ضِدًّا جمالُها | وتفضلهُ في حُسْنِها لصفا البَذْرُ

قال أبو نصر: قال لنا الأصمعي: اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المُدَىٰ في رِقاق الأكباد!

قال: وأقام عندنا شهراً، فجمَع له الأصمعيُّ خمسمائة دينار، وكان يتعاهدنا في الحِين بعد الحِين، حتى مات الأصمعي وتفرّق أصحابنا!

● وصف أعرابي قومه فقال: ليوثُ حرب، وغيوث جَدْب، إن قاتلوا أبلوا، وإن بذلوا أَغْنَوا.

● ذكر أعرابي مصيبةً نالَتْهُ فقال: إنها والله مصيبة جعلت سودَ الرؤوس بيضاً، وبيضَ الوجوه سوداً، وهوَّنت المصائب، وشيبَّت الذوائب.

● وقال أعرابي: خرجتُ حين انحدرت أيدي النجوم، وشالت أرجلها، فما زلتُ أصدعُ الليل حتى انصدع الفجر.

● وقال أعرابي لصاحبه في شيء ذكره: قل إن شاء الله، فإنها تُرضي الرب، وتُسخط الشيطان، وتُذهب الحنث، وتقضي الحاجة.

● قال الأصمعي: حجَّت أعرابيةٌ ومعها ابنٌ لها فأصيبت به، فلما دُفِن قامت على قبره، وهي موجعة فقالت: والله يا بنيّ لقد غَذَوْتُك رَضِيعاً، وفقدتُك سريعاً؛ وكأنه لم يكن بين الحالين مدةٌ ألتذُّ بعيشك فيها، فأصبحتَ بعد النضارة والغَضَارة، ورونق الحياة والتنسّم في طِيب روائحها، تحت أطباق الثَّرَى جَسداً هامداً، ورُفَاتاً سحيقاً، وصعيداً جُرُزاً. أي بني! لقد سَحَبَتِ الدنيا عليك أَذيال الفنا، وأسكنَتْك دَارَ البِلَى، ورمتني بعدكَ نَكْبَةُ الرَّدَىٰ. أي بني؛ لقد أَسفر لي وجهُ الدنيا عن صباح دَاج ظلامُه.

ثم قالت: أي ربّ ومنك العدل، ومن خَلْقِك الجَوْر، وهَبْتَه لي قُرَّةَ عين، فلم تُمَتِّعني به كثيراً، بل سلَبَتِنيه وَشِيكاً؛ ثم أمرتني بالصبر، ووعدْتني عليه الأَجْر، فصدقتُ وَعْدَك، ورضيتُ قضاءك، فرحم الله من ترحَّم على من استودَعْتُه الرَّدْم، ووسدته الثَّرَى؛ اللهم ارحم غُربته، وآنِسْ وحْشَته، واستُرْ عَوْرَته يوم تُكْشَف الهَنَات والسَّوءات.

فلما أرادت الرجوعَ إلى أهلها وقفت على قبره، فقالت! أي بنيّ؛ إني قد تزوَّدْتُ لسفري، فليت شعري ما زادُك لبُعْدِ طريقك، ويوم مَعَادِك؛ اللهم إِني أَسأَلُكَ له الرضا برضائي عنه.

ثم قالت: استودَعْتُك مَن استودَعَنِيك في أَحْشَائي جنيناً؛ وا ثُكْلَ الوالدات! ما أمضَّ حرارةَ قلوبهن، وأَقْلَق مضَاجِعهنَّ، وأطولَ ليلهنَّ، وأَقصرَ نهارهن، وأقل أنسهن، وأَشدّ وحشتهنّ، وأَبعدهنّ من السرور، وأقربهن من الأحزان!

فلم تزلْ تقولُ هذا ونحوه حتى أَبكتْ كلَّ مَنْ سمِعها. وحمدت الله عز وجل واسترجعَتْ[1]. وصلت ركعات عند قَبْرِهِ وانطلقت.

● وأنشد المفضل الضبي لامرأةٍ من العرب ترثي ابناً لها:

يا عمرو ما لي عنك من صبرِ ... يا عَمْرُو يا أَسَفى على عَمْرِو
لله يا عمرٌو وأيُّ فتًى ... كفَّنْتُ يوم وُضِعت في القبر
أحْثُو الترابَ على مَفَارقهِ[2] ... وعلى غَضارَةِ وجهه النَّضِر
حين استوى وعلاَ الشبابُ بهِ ... وبدا مُنِيرَ الوجهِ كالبدر
ورجا أقَاربُه منافعَهُ ... ورأوا شمائل سَيِّد غَمْرِ[3]
رَّبيْتُه دهراً أفتِّقُه ... في اليسير أغذوه وفي العسر
إذ راعني صوتٌ هببْتُ بهِ ... وذُعِرتُ منه أيَّما ذُعرِ
وإذا منيَّتُه تُسَاوِرهُ ... قد كدَّحت[4] في الوَجْه والنَّحْرِ

---

(١) أي قالت إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) المفارق: مواضع فرق الشعر من الرأس.

(٣) الغمر: الكريم الواسع الخلق.

(٤) كدح وجهه: خدشه أو عمل به ما يشينه.

وإذا لـه عـلَـق[1] وحَـشْـرَجَـةٌ مـمـا يَـجِـيـشُ بـه مـن الـصَّـدْرِ
والـمـوتُ يَـقْـبِـضُـه ويَـبْـسُـطُـه كـالـثـوبِ عـنـد الـطـيِّ والـنَّـشْـرِ
فـدَعَـا لأنْـصُـرَه وكـنـتُ لـهُ مـن قـبـل ذلـك حـاضـرَ الـنَّـصْـر
فـعـجـزتُ عـنـه وهـي زَاهِـقـةٌ بـيـن الـوريـد ومَـدْفَـعِ الـسَّـحْـرِ
فـمـضـى وأيَّ فـتـىً فُـجِـعْـتُ بـهِ جَـلَّـت مـصـيـبـتُـه عـن الـقَـدْرِ
لـو قـيـل تـفـديـه بـذلـتُ لـهُ مـالـي ومـا جـمَّـعـت مـن وَفْـرِ
أو كـنـت مـقـتـدراً عـلـى عُـمْـري آثـرتُـه بـالـشَّـطْـرِ مـن عُـمْـرِي
لـو شـاء ربـي كـان مـتـعـنـي بـا بـنـي وشـدَّ بـأزره أزري
لا يـبـعـدنَّـك الله يـا عـمـري إمّـا مـضـيـتَ فـنـحـن بـالإثْـرِ
هـذي سـبـيـلُ الـنـاس كـلـهـم لا بـدَّ سـالـكـهـا عـلـى سـفـرِ

● وزعم الجاحظ أن بشاراً كان يَدِين بالرَّجعة[2]، ويُكَفِّر جميعَ الأُمة؛ وأنشد له أشعاراً صوّب بها رَأْيَ إبليس في تقديم النار على الطين، منها قوله:

الأرض مُـظْـلِـمَـةٌ والـنـارُ مُـشْـرِقـةٌ والـنـارُ مـعـبـودةٌ مُـذْ كـانـتِ الـنـارُ

وقال داود بن رَزِينُ: أتينا بشاراً فأذِنَ لنا والمائدةُ بين يديه، فلم يَدْعُنَا إلى الطعام، ثم جلسنا فحضر الظهر والعصر والمغرب فلم يصلّ، ودعا بطَسْت فَبالَ بحضرتنا، فقلنا له: أَنت أستاذُنا، وقد رأينا منك أشياءَ أنكرناها قال: ما هي؟ قلنا: دخلنا والطعام بين يديك فلم تدعنا، فقال: إنَّما أذنت لتأكلوا، ولو لم نُرِدْ ذلك لم نَأْذن لكم. قلنا له: ودعوت بالطَّست ونحن حضور، قال: أنا مكفوف، وأنتم مأمورون بغضّ الأبصار دوني. قلنا: وحضرت الصلاة فلم تصلِّ!

(١) العلق: الدم أو الشديد الحمرة.
(٢) الرجعة: الإيمان بالرجوع بعد الموت في الدنيا.

قال: الذي يقبلها تفارِيقَ يقبلها جملة!

● قال الحسن بن سهل: الكذاب لص، لأن اللصَّ يسرق مالك، والكذاب يسرق عقلك.

● قال أعرابي لابنه وسمعه يكذب: يا بني، عجبتُ من الكذاب المُشيد بكذبه، وإنما يدلُّ على عيبه، ويتعرَّضُ للعقاب من ربِّه، فالآثام له عادة، والأخبار عنه متضادة، إن قال حقاً لم يُصَدَّق، وإن أراد خيراً لم يوفَّق، فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدالُّ على فضيحته بمقاله، فما صحَّ من صدقه نُسب إلى غيره، وما صحَّ من كذب غيره نُسب إليه، فهو كما قال الشاعر:

حسبُ الكذوب من المها   نةِ بعضُ ما يحكىٰ عليه
ما إن سمعت بكذبةٍ   من غيرِه نُسبت إليه

● غنّى مغنٍّ بحضرة أحمد بن يوسف، وزير المأمون، ولم يكن محسناً، فلم يُنصتوا إليه وتحدَّثوا مع غنائه. فغضب المغنّي، فقال الوزير: أنت عافاك الله تُحمِّل الأسماع ثقلاً، والقلوب مَلَلاً، والأعين قَباحة، والأنفَ نتانةً، ثم تقول: اسمعوا مني وانصتوا إليّ! هذا إذا كانت أفهامنا مقفلة، وآذاننا صَدِئة، فإمّا رضيتَ بالعفو منا، وإلا قمت مذموماً عنا!

● لقي أبو العباس المبرِّد، برد الخيار المغني في يوم ثلج بالجسر فقال: أنت المبرِّد وأنا برد الخيار، واليوم كما ترى، اعْبُر بنا لا يهلك الناس بالفالج بسببنا!

● من كلام أحمد بن يوسف الوزير: مجالسة البغضاء تثير الهموم، وتجلب الغموم، وتؤلم القلب، وتقدح في النشاط، وتطوي الانبساط.

● قال أبو هفّان: سألتُ ورّاقاً عن حاله فقال: عيشي أضيق

من محبرة، وجسمي أدقُّ من مسطرة، وجاهي أرقُّ من الزجاج، ووجهي عند الناس أشدُّ سواداً من الحبر بالزاج، وحظِّي أخفى من شقِّ القلم، ويداي أضعف من قصبة، وطعامي أمرُّ من العفص، وشرابي أسود من الحبر، وسوء الحال ألزمُ لي من الصمغ!

● وقال بعض الورّاقين:

إذا كنتُ بالليل لا أكتبُ وطول النهار أنا ألعبُ
فطَوْراً يبطِّلني مأكلٌ وَطْوراً يبطِّلني مَشْرَبُ
فإن دامَ هذا على ما أرى فبيتي أولُ ما يَخْرَبُ!

● وقيل لورّاق: ما تشتهي؟ فقال: قلماً مشّاقاً، وحبراً برّاقاً، وجلوداً رِقاقاً!

● أهدى أبو سعيد شاةً هزيلة للحمدوني، فقال فيها شعراً:

أبا سعيدٍ لنا في شاتِكَ العِبَرُ جاءتْ وما إن لها بولٌ ولا بَعَرُ
وكيف تَبْعَرُ شاةٌ عندكم مكثتْ طعامُها الأبيضان: الشمسُ والقمرُ
لو أنها أبصرتْ في نومها عَلَفاً غنَّتْ له ودموعُ العين تنحدرُ!

● قال رجلٌ لبعض الملوك وقد وقف بين يديه: أسألك بالذي أنت بين يديه غداً أذلُّ مني بين يديك اليوم، وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابي؛ إلا ما نظرتُ في أمري نَظَر مَنْ بُرْئي أحبُّ إليه من سقمي، وبراءتي أحبُّ إليه من بليَّتي.

● زعمت الرواة أنها لم تسمع للأحنف بن قيس إلا هذين البيتين:

فلو مدَّ سَرْوي بمالٍ كثير لجدتُ وكنتُ له باذلا
فإن المروءة لا تستطاع إذا لم يكن مالُها فاضلا

وكان يُبَخَّل. وقال لبني تميم: أتزعمون أني بخيل؟ والله إني لأشيد بالرأي قِيمتُهُ عشرة آلاف درهم! فقالوا: تقويمك لرأيك بخل!

وكان الأحنف من الفضلاء الخطباء النسَّاك، وبه يُضرب المثل في الحِلْم.

● مات الأحنف بن قيس بالكوفة، فمشى مصعب بنُ الزبير في جنازته بغير رداء، وقال: اليوم مات سرُّ العرب؛ فلما دُفن قامت امرأةٌ على قَبْره فقالت: لله درُّك من مُجَنٍّ في جنَنٍ، ومُدْرَج في كَفَن، نسأل الذي فَجَعنا بموتك، وابتلانا بفَقْدِك أن يجعلَ سبيلَ الخيرِ سبيلَك، ودليلَ الرّشد دَليلك، وأن يوسّع لك في قبرك، ويغفر لك يوم حَشْرِك؛ فوالله لقد كنتَ في المحافل شريفاً، وعلى الأرامل عَطُوفاً، ولقد كنت في الحيّ مسوَّداً، وإلى الخلفية موفَداً، ولقد كانوا لقولك مستَمِعين، ولرأيك متّبِعين.

ثم أقبلتْ على الناس فقالت: ألاَ إن أولياءَ الله في بلاده شهود على عبادِهِ، وإني لقائلةٌ حقاً، ومثنِيةٌ صِدْقاً، وهو أهلٌ لحُسْنِ الثناء، وطيب الدعاء، أما والذي كنتَ من أَجله في عِدة، ومن الحياةِ إلى مدّة، ومن المقدار إلى غاية، ومن الإياب إلى نهاية، الذي رفع عملَك، لمّا قضى أجلُك، لقد عِشت حميداً مودُوداً، ومُتَّ سعيداً مفقوداً، ثم انصرفت وهي تقول:

لِلَّـهِ درُّك يـا أبـا بَـحْـرِ ... مـاذا تـغـيَّـبَ مـنـكَ فـي الـقَـبْـرِ
لله درُّك أيّ حَـشْـوِ ثـرىً ... أصـبـحـتَ مـن عُـرْفٍ ومِـن نُـكْـرِ
إنْ كـان دهـرٌ فـيـك جـرَّ لـنـا ... حـدَثـاً بـه وهَـنَـتْ قـوَى الـصَّـبْـرِ
فـلـكـم يـد أسـديـتـهـا ويـدٍ ... كـانَـتْ تَـرُدُّ جـرائـرَ الـدهـرِ

ثم انصرَفت، فسُئِل عنها، فإذا هي امرأتُه وابنةُ عمه. فقال الناس: ما سمعنا كلامَ امرأة قطّ أبلغ ولا أصدق منه!

• قالوا: كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم ولا يفهمون العلة في ذلك(!) حتى أوضحها الشاعر علي بن العباس الرومي في قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار، أجبره على بيع داره، واغتصبه بعض جدرانها، فقال:

ولي وطنٌ آليتُ ألاّ أبيعه ... وألاّ أرىٰ غيري له الدهرَ مالكا
عهدتُ به شرخَ الشباب ونعمةً ... كنعمةِ قومٍ أصبحوا في ظلالكا
وحبَّبَ أوطانَ الرجالِ إليهمُ ... مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ ... عهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لذلكا
فقد أَلِفَتْهُ النفسُ حتى كأنه ... لها جسدٌ إن بانَ غودرَ هالكا

ويقول له فيها:

قد عزَّني فيها لئيمٌ وسامني ... فقال ليَ اجهَدْ فيَّ جَهْدَ احتيالكا
وما هو إلا نسجُك الشِّعْرَ ضلَّةً ... وما الشعرُ إلا ضلَّةٌ من ضلالكا

• قال عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه يوماً: ما أحكم أربعة أبيات قالتها العرب في الجاهلية؟ فأنشده:

منع البقاءَ تقلُّبُ الشمسِ ... وطلوعُها من حيث لا تُمسي
وطلوعُها بيضاءَ صافيةً ... وغروبُها صفراءَ كالوَرْسِ
تجري على كبد السماء كما ... يجري حِمامُ الموت في النفس
اليوم تعلم ما يجيء به ... ومضى بفصل قضائه أمسِ

• النمام جسرُ الشر.

• الوعد مرضُ المعروف، والإيجاز برؤه، والمطل تلفه.

• قال أبو العباس الناشىء لأبي سهل:

زعمتَ أبا سهل بأنك جامعٌ ... ضروباً من الآداب يجمعه الكهلُ

وهبك تقول الحق أيُّ فضيلةٍ تكونُ لذي علمٍ وليس له عقلُ؟

● كان المعتصم شهماً شجاعاً، عاقلاً مفوَّهاً. ولم يكن في خلفاء بني العباس أميٌّ غيره. وقيل: بل كان يكتب خطاً ضعيفاً. وكان سبب ذلك أنه رأى جنازة لبعض الخدم فقال: ليتني مثله لأتلَّخص من الكُتّاب! فقال الرشيد: والله لا عذَّبتُكَ بشيءٍ تختارُ عليه الموتَ!

قال أبو القاسم الزجاجي: وهذا شيءٌ يُحكى من غير رواية صحيحة، إلا أن جملته أنه كان ضعيف البصر بالعربية.

● قيل لأبي العيناء: ما أبلغ الكلام؟ فقال: ما أسكتَ المُبطل، وحَيَّر المحقَّ!

● قال أبو عبد الله العتبيُّ في ابن له توفي صغيراً:

إن لم يكن مات صغيراً فالأسى غيرُ صغير
كان ريحاني فأمسى وهو ريحان القبور

● قال أعرابي للحسن البصري: علِّمني ديناً وسطاً، لا ساقطاً سقوطاً ولا ذاهباً فروطاً! قال الحسن: أحسنت، خيرُ الأمور أوساطُها!

● قال الأصمعي: سمعتُ أعرابية تقول لرجلٍ تخاصمه: والله لو صُوِّر الجهلُ لأظلمَ معه النهار، ولو صُوِّر العقلُ لأضاء معه الليل، وإنك من أفضلهما لمُعْدِم، فخفِ الله واعلم أن من ورائك حَكَماً لا يحتاج المدَّعي عنده إلى إحضار البيِّنة.

● قال أحدهم لابن عمه: والله ما أعرف تقصيراً فأقلع، ولا ذنباً فأعتب، وليس أقول إنك كذبت، ولا أنني أذنبت!

● ودعا أعرابي فقال: اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في[1]

(١) في الأصل «إلى» وهو خطأ.

غناك، أو أَضِلَّ في هداك، أو أَذِلَّ في عزِّك، أو أُضام في سلطانك، أو أُضْطَهد والأمرُ إليك.

● قال الأصمعي: وسمعت أعرابياً يقول: إذا ثبتت الأصول في القلوب نطقت الألسنة بالفروع. والله يعلم أن قلبي لك شاكر، ولساني ذاكر، ومُحال أن يظهر الود المستقيم من الفؤاد السقيم.

● ووصف أعرابي قوماً فقال: لهم جودُ كرام اتَّسعت أحوالها، وبأسُ ليوثٍ تتبعها أشبالُها، وهممُ ملوك انفسحت آمالُها، وفخرُ آباءٍ شَرُفت أخوالها.

● قال إبليس لعنه الله: العجب لبني آدم! يحبون الله ويعصونه، ويبغضونني ويطيعونني!

● حدَّث عيسى بن دأب بحديث عند الخليفة الهادي وفي يده لقمة قد رفعها إلى فيه، فأمسكها وقال: ويحك أعْد عليّ! فقال: يا أمير المؤمنين أَسِغْ لقمتك. فقال: حديثك أحبُّ إلي.

● العاقلُ يترك ما يحبُّ ليستغني عن العلاج بما يكره.

● قال بعضهم: خيرٌ من الحياة ما لا تطيبُ الحياة إلا به، وشرٌّ ما الموت يما يُتمنَّى الموتُ له.

● بعث الحجاج إلى عامله بالبصرة: اختر لي عشرة من عندك.

فاختار رجالاً فيهم كثير بن كثير، وكان عربياً فصيحاً، فقال كثير: ما أراني أُفلت من يد الحجاج إلا باللَّحن. فلما دخلنا عليه دعاني فقال: ما اسمُك؟ فقلت: كثير. قال: ابن من؟ فقلت في نفسي: إن قلتُ ابن أبي كثير لم آمن أن يتجاوزها، فقلت: ابن أبا كثير! فقال: اعزب... (أي ابعد).

● قال بعض الظرفاء: الشرابُ أول الخراب، ومفتاح كل باب، يمحق الأموال، ويُذهب الجمال، ويهدم المروءة، ويُوهن القوة،

ويضع الشريف، ويُهين الظريف، ويُذلُّ العزيز، ويفلس التجار، ويهتك الأستار، ويورث الشَّنار!

● قيل لأبي عباد وزير المأمون ـ وكان أسرع الناس غضباً ـ إن لقمان الحكيم قال لابنه: ما الحِمل القثيل؟ قال: الغضب. قال أبو عباد: لكنه والله أخفُّ علي من الريش! قيل له: إنما عنى لقمان أن احتمال الغضب ثقيل. فقال: لا والله لا يقوى على احتمال الغضب من الناس إل الجمل!

● شكا الحجاجُ يوماً سوءَ طاعةِ أهل العراق، وسقم مذهبهم، وسخط طريقتهم، فقال له جامع المُحَاربي: أَما إنهم لو أَحبّوك لأطاعوك، على أنهم ما أبغضوك لبلدك، ولا لذاتِ يَدِك، إلا لِمَا نَقَمُوه من أفعالك؛ فدَعْ مايُبْعِدهم عنك إلى ما يدنيهم منك، والتمس العافيةَ ممن دونك تُعْطَها ممن فوقك، وليكن إيقاعُك بعد وعيدك، ووعيدُك بعد وَعْدك ثلاثاً.

فقال له الحجاجُ: والله ما أَرى أن أردَّهم إلى طاعتي إلا بالسيف.

فقال جامع: أيها الأمير؛ أنّ السيفَ إذا لاقىٰ السيفَ ذهب الخِيار. قال الحجاج: الخيارُ يومئذ لله. قال جامع: أجل، ولكن لا ندري لمن يجعله الله.

فغضب الحجاج وقال: يا هناه؛ إنك من محارب، فقال جامع:

وللحرب سُمِّينا وكنا مُحَارباً   إذا ما القَنَا أَمْسَىٰ من الطعن أحمرا

فقال له الحجاج: والله لقد هممتُ أَن أَخْلَع لسانك، فأَضربَ به وجهك. فقال جامع: إن صَدَقْناك أغضبناك، وإن كذَبْناك أغضبْنا الله. فقال الحجاج: أجل، وسكن ما به، وشُغِل ببعض الأمر، وخرج جامع وانسلَّ من صفوف الناس، وانحاز إلى جبل العراق.

وكان جامع لَسِناً مُفَوَّهاً، وهو الذي يقولُ للحجاج حين بنى واسطاً: بَنَيْتَها في غير بَلدك، وأَورثتها غَيْرَ ولدك.

• قال يحيى بن معاذ: التكبرُّ على المتكبِّر تواضع.

• قال أبو بكر الخوارزمي: من عفَّت أطرافه حسنت أوصافه.

• ذكر الأصمعي أنه أرق ليلة من الليالي بالبادية، وهلع من الغربة، واشتاق إلى أهله، وأصبح وقد عزم على الرجوع إلى العراق. فلما سار قليلاً لقي شيخاً من الأعراب، فأنشده شعراً، منها قصيدة جاء فيها:

تعزَّ فإن الصبرَ بالحُرِّ أجملُ ... وليس على ريب الزمان معوَّلُ
فلو كان يُغني أن يُرى المرءُ جازعاً ... لنازلةٍ أو كان يغني التذلُّلُ
لكان التعزِّي عند كلِّ مصيبةٍ ... ونازلةٍ بالحرِّ أولى وأجملُ
فكيف وكلٌّ ليس يعود حمامهُ ... وما لا مرىءٍ مما قضى الله مَزْحَلُ

قال: فقمتُ إليه وقد نسيتُ أهلي، وهان عليَّ طولُ الغربة، وضنك العيش، سروراً بما سمعت. ثم قال: من لم يكن الأدبُ والعلم أحبَّ إليه من الأهل والولد لم يَنْجُب!

• قال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول: اللهم ارزقني عمل الخائفين، وخوفَ العاملين، حتى أتنعَّم بترك التنعُّم، رجاءً لما وعدت، وخوفاً مما أوعدت.

• قال بعض الأعراب: . . . أتتنا غيوم جَرَاد، بمناجل حِداد، فخرَّبت البلاد، وأهلكت العباد، فسبحان من يُهلك القويَّ الأكول، بالضعيف المأكول!

• فاخر كاتبٌ نديماً، فقال الكاتب: أنا معونة وأنت مؤونة، وأنا للجِدِّ وأنت للهزل، وأنا للشدَّة وأنت للَّذة، وأنا للحرب وأنت للسلم.

فقال النديم: أنا للنعمة وأنت للخدمة، وأنا للحضرة وأنت للمهنة، تقوم وأنا جالس، وتحتشم وأنا مؤانس، تدأبُ لراحتي، وتشقى لسعادتي، فأنا شريك وأنت معين، كما أنك تابعٌ وأنا قرين.

● قال أبو العباس الهاشمي المعروف بأبي العِبَر:

أبكي إذا غَضِبَتْ، حتى إذا رَضِيَتْ ... بكيتُ عند الرضا خوفاً من الغضبِ
فالموتُ إن غَضِبَتْ والموتُ إن رضيتْ ... إنْ لم يُرِحْني سلوٌّ عشتُ في تعبِ

● قال أبو بكر الحنفي: حضرتُ مسجد الجماعة بالكوفة، وقد قام سائل يتكلم عند صلاة الظهر، ثم عند العصر والمغرب، فلم يُعْطَ شيئاً، فقال: اللهم إنك بحاجتي عالمٌ غيرُ معلَّم، واسعٌ غيرُ مكلَّف، وأنت الذي لا يرزؤك نائل، ولا يخفيك سائل، ولا يبلغُ مِدْحَتك قائل، أنت كما قال المُثنون، وفوق ما يقولون، أسألك صبراً جميلاً، وفرجاً قريباً، ونصراً بالهدى، وقرَّة عينٍ فيما تحبُّ وترضى. ثم ولَّى لينصرف.

فابتدره الناسُ يعطونه، فلم يأخذ شيئاً، ثم مضى وهو يقول:

ما اعتاضَ باذلُ وجهه بسؤاله ... عِوضاً ولو نال الغني بسؤالِ
وإذا السؤالُ مع النوال وَزَنْتَهُ ... رجح السؤال وخفَّ كلُّ نوالِ

● لم يلِ الخلافة أحدٌ اسمه عليّ إلا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وعلي بن المعتضد المكتفي بالله.

● سئل خُريمٌ عن لذة الدنيا فقال: الأمن، فإنه لا عيشَ لخائف، والعافية، فإنه لا عيش لسقيم، والغنى، فإنه لا عيش لفقير!

● قيل: من طلب عيباً وجده.

● وُصفت لعبد الملك بن مروان جاريةٌ لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال، فساومه في ابتياعها، فامتنع وامتنعت، وقالت: لا

أحتاجُ للخلافة ولا أرغبُ في الخليفة، والذي أنا في ملكه أَحبُّ إليَّ من الأرض ومن فيها.

فبلغ ذلك عبد الملك فأَغراه بها؛ فأَضعف لصاحبها وأَخذها قَسْراً، فما أعجب بشيء إعجابه بها، فلما وصلت إليه وصارت في يديه أَمرها بلزوم مَجْلِسه، والقيامِ على رأسه؛ فبينما هي عنده، ومعه ابْنَاهُ الوليد وسليمان، قد أَخلاهما للمذاكرة، فأقبل عليهما فقال: أَيُّ بيت قالته العرب أمدح؟ فقال الوليد: قول جرير فيك:

أَلستُم خَيْرَ من رَكبَ المَطايا وأَنْدَى العالمينَ بُطُونَ راحِ

وقال سليمان: بل قول الأخطل:

شُمْسُ العداوة حتى يُستقادَ لهم وأَعظمُ الناسِ أحلاماً إذَا قَدَرُوا

فقالت الجارية: بل أمدح بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت:

يُغشَوْن حتى ما تَهرَّ كلابُهُمْ لا يُسْأَلون عن السَّوادِ المُقْبِلِ

فأطرق، ثم قال: أي بيت قالته العرب أَرَقّ؟ فقال الوليد: قولُ جرير:

إنّ العيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنا ثم لم يُحْيين قَتْلاَنا

فقال سليمان: بل قولُ عمر بن أبي ربيعة:

حبَّذا رَجْعُها يديها إليها من يديْ دِرْعها تحلُّ الإزَارا

فقالت الجارية: بل بيت يقوله حسان:

لو يَدبُّ الحوليّ من ولد الذ رِّ عليها لأَنْدَبَتْها الكُلومُ

فأطرق ثم قال: أيُّ بيت قالته العرب أشجع؟ فقال الوليد: قول عنترة:

إذْ يتَّقون بيَ الأسنَّةَ لم أخِمْ عنها ولو أنّي تَضَايَقَ مُقْدَمي

فقال سليمان: بل قوله:

وأنا المنيةُ في المواطن كلِّها فالموتُ مني سابقُ الآجالِ

فقالت الجارية: بل بيتٌ يقوله كعب بن مالك:

نَصِلُ السيوف إذا قَصُرنَ بخطونا قُدُماً ونلحقها إذا لم تلحقِ

فقال عبد الملك: أحسنْتِ، وما نرىٰ شيئاً في الإحسان إليك أبلغَ من ردِّكِ إلى أهلك.

فأجمل كسوتها، وأحسن صلتها، وردَّها إلى أهلها.

● ذكر أعرابيٌّ النبيَّ ﷺ فقال: بأبي وأمي رسولُ العالمين، خُتمت به الدنيا، وفتحت به الآخرة، ﷺ، به يبدأ الذِّكر الجميل ويُختم.

طراز المجالس(*)

للشهاب الخفاجي

اعلم أن العرب قد حذفت من أصل الألفاظ شيئاً لا يجوز القياس عليه، كقول بعضهم:

(*) طراز المجالس/شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي ـ القاهرة: المطبعة العامرة الشرفية، ـ ١٣٢هـ ٢٨٠ص.

احتوى الكتاب على خمسين مجلساً في موضوعات مختلفة... بينها قطع أدبية ولغوية وتاريخية واجتماعية نادرة. وقد مدح المؤلف كتابه في المقدمة فقال: هذه بنات فكر زففتُها إليك، وأمالي مجالس أمليتها عليك، مما تقرُّ به عين الأدب، ويتحلّى بذوقه لسان العرب. لو رآها ابن الشّجري لقال: هذه ثمرات الألباب، أو ابن الحاجب لقام بين يديها من جملة الحجّاب! أو ثعلب لراغ عما أملاه! أو القالي لهجرَ ما أملاه وقلاه! أودعتُها ما لا يبلى على مرور الحقب، وهد يصدأ مكنون الذهب؟ مما أرجو أن يطنّ على أذن الدهر، ويخصب له نادي القبول وإن كان قد أجدب من الكرم، فإنها خالصة لوجهه الكريم، وهو الفيّاض ذو الجود العميم.

والمؤلف قاضي القضاة. ولد ونشأ بمصر، ورحل إلى بلاد الروم، واتصل بالسلطان مراد العثماني، فولاه قضاء سلانيك. ثم قضاء مصر، ثم عزل عنها فرحل إلى الشام وحلب، وعاد إلى بلاد الروم، فنفي إلى مصر، وولي قضاء يعيش منه. ووفاته ١٠٦٩هـ. من كتبه: ريحانة الألبا، نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، خبايا الزوايا بما في الرجال من البقايا، ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب...

كأن إبريقهم ظبيٌ على شرف مقدَّم بسبا الكتان ملثوم

يريد «سبائب الكتان». وكذا جاء قول الآخر:

يذرين جندل حائر لحبوبها فكأنما تذكى سنابكها الحبا

يريد «الحباحب». فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن، وإن كانت العرب قد استعملته، فإنه لا يجوز لنا أن نستعمله.

وعند سيبويه: كان منهم من يقول لصاحبه: ألا تا؟ أي: ألا تفعل؟ فيقول: بلى سأا.

أي: سأفعل:

وقال ابن مكانس:

فلم يقم إلا بمقدار أن قلت له أهلاً وسهلاً ومر

يريد: ومرحبا.

● تغزَّل خبّاز فقال في نظمه:

قد عجن الهجرُ دقيقَ الهوى في جفنة من خشبِ الصدِّ
واختمر البَيْنُ فنار الجوى تذكى بسرجين من البُعدِ
وأقبل الهجر بمحراكه يفحص عن أرغفة الوجد
جرادق الموعد مسمومة مشرودة في قصعة الجهد

● وتغزَّل كنّاس فقال:

أصبح قلبي بربخاً للهوى تسلح فيه فقحة الهجر
بنات وردان الهوى للبلى أصبر من ذا الوجد في صدري
خنافسُ الهجران أثكلنني يوم تولَّى معرضاً صبري
أسقم ديدانُ الهوى مهجتي إذا سلم البينُ على عمري

● وقال فرّاش أبياتاً في الغزل:

كسر الهجرُ ساحة الوصل لمّا عبر البينُ في وجوه الصفاء
وجرى البينُ في مرافق ريش هي مدخورة ليوم اللقاء
فرش الهجرُ في بيوت هموم تحت رأسي وسادة البرحاء
حين هيأت بين خيش من الـ وصل لأبوابه ستور البهاء
فرش الهجرُ لي بيوت مسوح متكآتها من الحصباء
رقَّ للصبُّ من براغيث وجد تعتري جلده صباح مساء

● قال زياد بن أبيه لحاجبه: يا عجلان، قد وليتك بابي وعزلتك عن أربعة: طارقِ ليل فشرٌّ ما جاء به أو خير، ورسولِ صاحب الثَّغر فإنه إن تأخَّر ساعة بطل به عمل سنة، وهذا المنادي بالصلاة، وصاحب الطعام، فإن الطعام إذاتُرك برد، وإذا أُعيد عليه التسخين فسد.

● قال الحجاج: حاجبُ الرجلِ وجهُه، وكاتبُه كلُّه.

● روى إسحاق الموصلي عن ابن كناسة قال: أُخبرت أن هانىء بن قبيصة وفد على يزيد بن معاوية، فاحتجب عنه أياماً، ثم إن يزيد ركب يوماً يتصيَّد، فتلقاه هانىء فقال: يا يزيد، إن الخليفة ليس بالمحتجب المختلي، ولا المتطرِّف المنتحي، ولا الذي ينزل على الغدران والفلوات ويخلو للذات والشهوات، وقد وليتَ أمرنا، فأقم بين أظهرنا، وسهِّل إذننا، واعمل بكتاب الله فينا، فإن كنت قد عجزت عمّا هاهنا فاردد علينا بيعتنا لنبايع من يعمل بذلك فينا ويقيمه لنا، ثم عليك بخلواتك وصيدك وكلابك.

قال: فغضب يزيد وقال: والله لولا أن أسنَّ بالشام سُنَّة العراق لأقمتُ أودك.

ثم انصرف وما هاجه بشيء، وأذن له، ولم تتغيَّر منزلته عنده،

وترك كثيراً مما كان عليه.

● قال دعبل:

لقطعُ الرمال ونقلُ الجبال وشربُ البحار التي تصطخب
وكشف الغطاء عن الجنِّ أو صعودُ السماء لمن يرتقب
وإحصاءُ لؤم سعيد لنا أو الشكلُ في ولد منتخب
أخفُّ على المرء من حاجةٍ تكلَّف غشيانها مرتقب
له حاجب دونه حاجب وحاجبُ حاجبهِ محتجب!

● وحُجب أبو العتاهية بباب أحمد بن يوسف الكاتب فكتب إليه:

ألم تر أن الفقر يُرجىٰ له الغنى وأن الغنى يُخشىٰ عليه من الفقر
فإن نلت تيهاً بالذي نلت من غنى فإن غَنائي بالتكرُّم والصبر

● الإيداع أمر غريب وسرٌّ عجيب في اللغة العربية، وهو أن يودع في الكلمة ما يدلُّ على المعنى أو صفته، أو معنى وضعه أو لفظه، أو شيءٍ في لفظه كحركاته ونحوها. يقول الأرجاني:

كنا جميعاً والدهرُ يجمعنا مثل حروف الجميع ملتصقه
واليوم جاء الوداع يجعلنا مثل حروف الوداع مفترقه!

● وأنشد المصنف:

بغىٰ عليَّ لئيمٌ دون سابقةٍ تدعوه غير فضول الجهل والجاه
فلم أَلُمْهُ سوى أنْ قلتُ من جزعٍ الموعدُ الحشرُ والقاضي هو الله

● الحاسد غضبان على من لا ذنب له!

● أتى أعرابي رجلاً لا يعرفه يستمنحه، فقال: إني امتطيت إليك الرجاء، وسرتُ على الأمل، ووقفتُ للشكر، وتوسلتُ بحسن

الظن، فحقِّق الأمل، وأحسن المثوبة، وأكرم الصفد، وأقم الأود، وعجِّل السَّراح.

● قال قيس بن الخطيم:

فرأيتُ مثل الشمس عند طلوعها   في الحُسْنِ أو كدنوِّها لغروب

قال بعض الأدباء: خصَّ هذين الوقتين لأنه يتمكن من النظر إليها فيهما.

● لمّا ظفر الحجاج بعمران بن حطان الخارجي، قال: اضربوا عنق ابن الفاجرة! فقال: لبئس ما أدبك أهلك يا حجاج! كيف أمنتَ أن أجيبك بمثل ما لقيتني به؟ أبعد الموتِ منزلة أمانعك عليها؟ فأطرق الحجاج استحياء وقال: خلوا عنه!

فخرج إلى أصحابه، فقالوا: ما أطلقك إلا الله، ارجع إلى حربه معنا. قال: هيهات! غَلَّ يداً مطلقُها، واسترقَّ رقبةً معتقُها. ثم قال:

أأقاتل الحجاج عن سلطانه   بيدٍ تقرُّ بأنها مولاتُه
إني إذاً لأخو الدناءة والذي   عفت على عزماته جهلاته
ماذا أقولُ إذا وقفتُ موازياً   في الصفِّ واحتجَّتْ له فعلاته
وتحدَّث الأكْفاءُ أن صنائعاً   غُرستْ لديَّ فحنظلت نخلاته
تالله لا كدتُ الأميرَ بآلةٍ   وجوارحي وسلاحُها آلاته

● قال بعضهم:

تعوذ بالله من أناس   تشيَّخوا قبل أن يشيخوا
تقوَّسوا وانحنوا رياءً   فاحذرهم إنهم فخوخ

● وقال جحظة البرمكي:

أرى الأعياد تتركني وتمضي   وأوشك أنها تبقىٰ وأمضي

عـلامـةُ ذاك شـيـبٌ قـد عـلانـي وضـعـفٌ منه إبـرامـي ونـقـضـي
ومـا كـذب الـذي قـد قـال قـبـلـي إذا مـا مـرَّ يـومٌ مـرَّ بـعـضـي
أرى الأيـام قـد خـتـمـت كـتـابـي وأحـسـبـهـا سـتـتـبـعـه بـفـضّ

● ألغز ابن فرج في الإبرة فقال:

حـافـرهـا فـي رأسـهـا وعـيـنُـهـا فـي الـذَّنَـبِ

وفي الميزان:

رأيـتُ الـنـاسَ قـد قـبـلـوا قـضـاهُ ولا نـطـقٌ لـديـه ولا لـسـانُ!

وفي مصراعي الباب:

عجبتُ لمحرومين من كلِّ لذَّةٍ يـبـيـتـان طـولَ الـلـيـل يِـعـتـنـقـان
إذا أمسيا كانا على الناس مرصداً وعـنـد طـلـوع الـشـمـس يـفـتـرقـان

وقال الوزير ابن مسعدة:

يعلِّلني بالقولِ والفعلُ قاتلي كـمـا قـال بـسـم الله سـاعـةَ يـذبـحُ!

● وقال آخر:

تقلَّبتُ هذا الليلَ حتى تهوَّرت إنـاثُ الـنـجـوم كـلُّـهـا وذكـورهـا

إناث النجوم: صغارها، وذكورها كبارها.

● قال الخطيري في كتاب سماه «الإعجاز في الأحاجي والألغاز» ملغزاً في أيام الأسبوع:

مـا سـبـعـةٌ كـلُّـهـم إخـوانُ لا يـتـلاقـون وهـم جـيـرانُ

ونحوه:

مـا إخـوةٌ مـا اجـتـمـعـوا مـذ كـانـوا ومـا تـلاقـوا وهـم جـيـران

كـأنـمـا بـيـنـهـم أضـغـانُ فـليس يرجو صُلْحَهم إنسانُ

● في الحديث الشريف: «**حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطِّيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة**». ولبعض المشايخ رسالة في شرح هذا الحديث سماها: «النفحة الروحانية».. ثم أورد ملخصها..

قال أبو الحسين الجزار:

لا تـقـطـعـنَّ عـادةَ بـرٍّ ولا تـجـعـل عـقـابَ الـمـرءِ فـي رزقـهْ
واحـرص عـلـى الـعـفـو فإن الـذي نـرجـوهُ عـفـوَ الله عـن خـلـقـهْ

● قيل: الدعاءُ مفتاح، أسنانُه اللقمة الحلال.

● قال بعض الأدباء في جمعٍ من الجهلة لا يعرفون قيمة العلم:

قد ضيَّع الله ما جمعتُ من أدب بين الحميرِ وبين الشاء والبقر
لا يسمعون إلى شيءٍ أجيءُ به وكيف تستمع الأنعامُ للبشر
تقولُ ماسكتوا إنسٌ، فإن نطقوا قلت الضفادعُ بين الماء والشجر!

● وقال صالح بن عبد القدوس:

بـقـيـنـا فـي بـهـائـم راتـعـات تـجـول ولا إلـى عـقـل تـؤولُ
فـإن حـدَّثْـتَ عـن سـمـكٍ وبَـقْـلٍ فـأنـت لـديـهـم رجـلٌ نـبـيـلُ
وإن حـدَّثـتَ عـن أبـواب عـلـمٍ فـأنـت لـديـهـم فَـدْمٌ ثـقـيـلُ(١)

● قال السخاوي في «سفر السعادة»: الناموس: أصله من نمس الكلام، إذا أخفاه. ولذلك قيل لجبريل «الناموس الأكبر». والناموس أيضاً: بيت القانص، يخفي فيه نفسه. والناموس أيضاً: هذا الذي كالذَّر يؤذي الناس.

---

(١) الفدم: الأحمق.

● قال ابن منقذ ملغزاً في ضرسٍ قلعه:

وصاحبٍ لا تملُّ الدهرَ صحبتَهُ　　يشقىٰ لنفعي ويسعىٰ سعي مجتهدِ
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا　　لناظري افترقنا فرقة الأبد!

● من ديوان الطغرائي:

قد يحرمُ المرءُ نصراً من أقاربه　　حتى من السمع فيما نابَ والبصرِ
ويُرزقُ النصرَ ممن لا يناسبه　　كما يُؤَيِّدُ أزرُ القوس بالوتر
فلا يغرنك نورٌ راق منظرُه　　فكم تفتَّقَ عن مُرٍّ من الثَّمرِ
قد تُدركُ الغايةَ القصوى على مهلٍ　　مع الهوينا وقد ينبت ذوو الحضر
فاقنع بميسورِ ما جادَ الزمانُ به　　فطالما رضي المكفوفُ بالعَوَر

● وله أيضاً:

ولربما انتفع الفتى بعدوِّه　　والسمُّ أحياناً يكون شفاء

● وله كذلك:

وإذا الفتى عرف الرشاد لنفسه　　هانت عليه ملامة الجهّال

● ونقل المصنِّف من ديوان الصاحب بن عبَّاد:

فلا تجعلنِّي للقضاةِ فريسةً　　فإن قضاةَ العالمين لصوصُ
مجالسُهم فينا مجالسُ شرطةٍ　　وأيديهم دون الشيوص شيوص(١)

قال: فأجابه القاضي الجرجاني:

سوى عصبةٍ منهم تُخَصُّ بعفَّةٍ　　ولله في حكم العموم خصوصُ
خصوصُهم زانَ العمومَ وإنما　　تُزَيِّنُ الخواتيمَ الحسانَ فصوصُ

---

(١) شاص الشيء شوصاً: زعزعه من مكانه.

● وفي ديوان شرف الدين مستوفى إربل: قلت بديهةً في سنة ٦٠٤ هـ:

رأت قـمـر الـسـمـاء فـأذكـرتـنـي ... لـيـالـي وصـلـهـا بـالـرقـمـتـيـن
كـلانـا نـاظـرٌ قـمـراً ولـكـن ... رأيـتُ بـعـيـنـهـا ورأت بـعـيـنـي

قال المؤلف: اعتنى الناس بهذه القطعة حتى رأيت بعض الأدباء صنف في شرحها تأليفاً لطيفاً أتى فيها بما لم يخطر ببال قائلها فتدبَّر!

● ومن شعر شرف الدين المستوفى قوله:

تـجـلَّـدْ عـلـى ريـب الـزمـان فـإنـه ... وإن خـالـطـتـه سـكـرةٌ سـيـفـيـقُ
ولا تكثرِ الشكوى إلى كلِّ من ترى ... فـمـا كـلُّ مـن تـشـكـو إلـيـه شـفـيـقُ

● في الصحيحين، عن أبي ذر قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض فقال: «**المسجد الحرام**». قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**». قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون عاماً**». وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام!

وهذا من جهل هذا القائل؛ فإن سليمان عليه السلام إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق، بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار. كذا أفاده ابن القيم في الهدي النبوي.

● قال التاج ابن السبكي في كتاب «الخلاف بين الأشعريين والمعتزلة»: قوله: «لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً» هو مأثور عن علي رضي الله عنه. وقد استشكله الناس، وسئل عنه أحمد الغزالي ـ أخو حجة الإسلام ـ فقيل له: كيف يقول علي رضي الله عنه هذا،

وإبراهيم الخليل يقول: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾؟

وقال ابن العماد في كتابه«كشف الأسرار»: أمر الله تعالى إبراهيم بأخذ أربعة من الطير في قصته المشهورة، ليحصل له علم اليقين، وعين اليقين، وحقُّ اليقين.

فإن قيل: ما معنى قول علي: «لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً»؟ قيل: قال ابن عبد السلام: «ما ازددتُ يقيناً» في الإيمان بها، وإن كان إذا رآها البصر وتفاصيلها وهيآتها عرف ما لم [يعرفه] قبل ذلك. وكذلك إبراهيم لما رأى كيفية الإحياء لم يزدد يقيناً بالإيمان بقدرته على الإحياء، وإن وقف على ما لم يقف عليه قبل، كمن رأى بناءً عجيباً فعلمَ أن له صانعاً، وإن لم يعلم كيفية البناء والصنع، فطلب النظر إلى كيفية بنائه، فإنَّه لا يزداد يقيناً بأنه صدر من صانع قادر، فلم يرد بقوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ أنه يطمئن لأنه قادر على ذلك، وإنما المراد: ليسكن قلبي من شدة تطلّبه لهذه الكيفية..

● قال الإمام القرافي في قواعده الكبرى: التفضيل مبنيٌّ على وجوه:

ـ فمنها: التفضيل الذاتي، كتفضيل الواجب الوجود وصفاته، وتفضيل العلم على الجهل والظن.

ـ ومنها: التفضيل بصفة، كتفضيل العالم على الجاهل، والقادر على العاجز.

ـ ومنها: التفضيل بطاعة الله، كتفضيل المؤمن على الكافر، والولي على غيره من المؤمنين.

ـ ومنها: التفضيل بكثرة الثواب، كتفضيل الإيمان على غيره من الأعمال، وصلاة الجماعة على المنفرد، والصلاة في الحرمين على غيرها.

ـ ومنها: التفضيل بشرف الموصوف، كصفات النبي على غيرها.

ـ ومنها: التفضيل بشرف الصدور، كألفاظ القرآن الصادرة من الله على غيرها.

ـ ومنها: التفضيل بشرف المدلول، كتفضيل الآيات التي في صفات الله على غيرها.

ـ ومنها: التفضيل بشرف الدلالة، كشرف النقوش القرآنية على غيرها.

ـ ومنها: التفضيل بشرف التعلُّق، كتفضيل العلم على الحياة.

ـ ومنها: التفضيل بشرف المتعلِّق كتفضيل العلم المتعلق بذات الله تعالى على غيره من العلوم.

ـ ومنها: التفضيل بكثرة التعلُّق، كتفضيل علم الله على قدرته.

ـ ومنها: التفضيل بالمجاورة، كتفضيل جلد المصحف على سائر الجلود.

ـ ومنها: التفضيل بما حلَّ فيه، كتفضيل مزاره ﷺ على سائر البقاع، وفي «الشفاء» أنه بالإجماع.

ـ ومنها: التفضيل بالإضافة، كبيت الله، وحزب الله.

ـ ومنها: التفضيل بالأسباب والانتساب، كزوجات النبي ﷺ وذريته.

ـ ومنها: التفضيل بالثمرة والجدوى، كتفضيل الرسالة على النبوة، لأن الرسالة فيها هداية الأمة، والنبوةُ قاصرة عليه ﷺ. وفضَّلَ العز بن عبد السلام النبوة على الرسالة، لأنها خطاب الله لنبيِّه بما يتعلق به، والرسالة متعلقة بأمته، والرسولُ أفضل من الأمة، فكذا ما

يتعلق به؛ فهذا شرف من وجهٍ غير الأول.

- ومنها: التفضيل بتفاوت الثمرة، وكونها محققة، كما في العلوم المدونة.

- ومنها: التفضيل بالتأثير، كتفضيل قدرة الله على علمه.

- ومنها: التفضيل بالبنية والتركيب، كتفضيل الملائكة على الجن بنورانيتهم وحسنهم، وتسخير الأمور لهم بقوتهم..

● قال ابن منقذ:

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها مغالباً ثم بعد الجمع يرويها
كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها حتى إذا مات خلاَّها وما فيها

قال المؤلف: وفي قوله «مات» نكتة يعرفها أهل الشطرنج.

● قال النواجي:

وقالوا ركبتَ البحرَ شرقاً ومغرباً وقاسيتَ في الأسفار هولَ قيامةِ
فحدِّث بما لاقيته من عجائب وأغربِ من لاقيت قلتُ: سلامتي

● وقال ابن الصاحب:

قالوا اركب البحر تغنم خيراً لديه عجائب
فقلت إنيَ طينٌ والطينُ في الماء ذائب!

● قال شهاب الدين الظاهري:

رأت شيبتي قالت عجيبٌ مع الصِّبا مشيبُك هذا صفه لي بحياتي
فقلت لها ما ذاك شيبٌ وإنما سناك بقلبي لاح في وجناتي!

● وقال ابن الرومي:

لنا صديقٌ كلا صديق غيثٌ على أنه سمين

إذا بــدا وجــهــهُ لــقــومِ لاذت بـأجـفـانـهـا الـعـيـون
كـأنـه عـنـدهـم غـريـم حـلَّـت عـلـيـهـم لـه ديـون

• قال الإمام الغزالي: خلق الله العين طبقات لطيفة، وجعل الأجفان غطاءً ملاصقاً لها بأهداب طويلة، فبانفتاح الأجفان وانطباقها تنمسح الحدقة من دقيق الهباء الذي يخالط الهواء، ويخرج بشعاع البصر من بين الأهداب، وهو كالشبكة عليها بحكمة باهرة. ولما كان الذباب لا أجفان له تراه يمسحُ بيديه عينيه، ثم يحكمها لينزل ما تلبَّد بهما مما فضل مع الهواء. وهذه حكمة بالغة.

• قال بعضهم:

فـعـلُ الأريـبِ إذا خـلا بـهـمـومـه فـعـلُ الـذبـاب يـرنُّ عـنـد فـراغـه
فـتـراه يـفـرك راحـتـيـه نـدامـةً مـنـه ويـتـبـعـهـا بـلـطـم دمـاغـه

• قال في «الفهرست» في أخبار عبد الله بن المقفع: واسمه بالفارسية روزبه، ويكنى قبل إسلامه أبا عمرو، فلما أسلم كُني بأبي محمد. والمقفع ابن المبارك. قيل: إنما قيل له «المقفع» لأن الحجاج بن يوسف ضربه ضرباً مبرحاً بالبصرة في مال للسطان أخذه فتفقعت يده. وأصله من جور مدينة من فارس..

• قال أحمد بن إسماعيل: الكتابُ مسامرٌ لا يبتديك في حال شغلك، ولا يَدَعك في حال نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمُّل له، وهو جليسك الذي لا يطريك، وصديقك الذي لا يملُّك، وناصحٌ لا يستريبك.

• في أخبار الفراء أنه لم يؤثر له شعر غيرُ قوله:

يـا أمـيـراً عـلـى جـريـب مـن الأر ض لـه تـسـعـةٌ مـن الـحُـجّـاب
جـالـسـاً في الـخـراب يـحـجبُ عنه ما سـمـعـنـا بـحـاجـب فـي خـراب!

● عمرو بن شبة. وشبة اسمُه زيد، وإنما سُمِّي شبة لأن أمه كانت ترقصه وتقول:

يــا بــابــا وشــبّــا وعــاش حــتــى دبّــا
شــيــخــاً كــبــيــراً خــبّــا

● قُتِل للأحنف بن قيس ولدٌ، قتله أخو الأحنف، فأُتي به مكتوفاً، فلما رآه بكى وأنشد:

أقول للنفس تأسافاً وتعزيةً إحدى يديَّ أصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

● من كلام عمر رضي الله عنه: إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبه للناس، وإذا أبغضَ عبداً أبغضه للناس، فاعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس.

● قال أبو فراس:

ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً وإذا قنعتَ فكلُّ شيءٍ كافي

● «الأصمعي» منسوب لجده، لأنه ـ كما قاله المبرد ـ عبد الملك بن علي بن أصمع. وقال عبيد بن ناصح: سمعت الأصمعي يقول: إذا كانت أُذنا الرجل صغيرتين لاصقتين برأسه يقال له: رجلٌ أصمع، والمرأة صمعاء. وهو أصمع الفؤاد: إذا كان جريئاً ماضي العزيمة.

● أنشد الأصمعي لأعرابي:

لا تــكــذبــنَّ فــإنــنــي لــك نــاصــحٌ لا تــكــذبــنَّــهْ
وانــظــر لــنــفــســك مــا حــيــيــتَ فــإنــهــا نــارٌ وجــنَّــهْ
واعــلــم بــأنــك فــي زمــا ن مــشــبــهــات هــنَّ هــنَّــه

صـــار الـــتـــواضـــع بـــدعـــةً   فـيــه وصــار الــكِــبْــرُ سُــنَّــهْ!

● من رأى النبيَّ ﷺ في المنام يأمره بشيء، إن كان موافقاً للشرع ينبغي له العمل به، ولو خالفه لا يأثم. فإن أمره بما يخالف الشرع لا يعمل به. ولا ينافي هذا قوله ﷺ: «**من رآني فقد رآني حقاً لأن الشيطان لا يتمثل في صورتي**»، بل لأن الرأي لا يضبط ما رآه نوماً. وأيضاً فإنه يحتمل التأويل. قاله النووي في شرح مسلم.

كتاب العصا(*)
لأسامة بن منقذ

قول موسى عليه السلام في القرآن الكريم: ﴿هِىَ عَصَاىَ

(*) .. العصا/ تأليف أسامة بن منقذ؛ تحقيق حسن عباس؛ تقديم محمد مصطفى هدارة. ـ الإسكندرية: فرع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٨هـ، ٢٠، ٥٤١ ص.

ربما لا يُعرف في تاريخ الكتب كتاباً شغل مؤلِّفَه كما شغل كتاب العصا أسامة بن منقذ! فقد ظلَّ متعلقاً بموضوع كتابه هذا نحواً من ستين عاماً! وقد أشار في مقدمة كتابه إلى السبب الذي حدا به إلى تأليفه، فيذكر أنه سمع من والده وهو صغير أنه توجه إلى خدمة السلطان ملك شاه بأصبهان، فزار الشيخ العالم أبا يوسف القزويني عندما اجتاز ببغداد، وكان معه الشاعر النحوي الكاتب علي بن البوين، ويتناول الأخير كتاباً كان ضمن مجموعة من الكتب حول ذلك العالم، فنهره وقال له: «يدخل الجاهل على الإنسان فينبسط ويقرأ ما عنده من الكتب، أي أني من أهل العلم...» فيلقي ابن البوين الكتاب من يده، وكان الكتاب «كتاب العصا». فاشتدت عند أسامة الرغبة في اقتناء هذا الكتاب، فظل ستين عاماً من عمره يبحث عنه في كل مكان، ويسأل عنه الناس، فلم يوفق إلى الاهتداء إليه، ولم يقف على من وِقع بصره عليه، فدفعه اليأس إلى تأليفه، قال: «فكلما تعذَّر وجوده ازددت حرصاً على طلبه، إلى أن حداني اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب».

وقال في آخر المقدمة: «وكتابي هذا وإن كان خالياً من العلوم التي تتجمل التصانيف بها، ويرغب أولو الفضل في طلبها، فما يخلو من أخبار وأشعار تميل النفوس إليها، ويحسن موقعها ممن وقف عليها. وقد افتتحته بذكر عصا =

﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾(1).

أي: أضرب بها الشجر فتسقط الورق، فترعاه غنمي.

● قال ابن دريد: إنما سميت العصا عصا لصلابتها، مأخوذ من قولهم: عصَّ الشيء وعصا وعسا إذا صلب. واعتصَّت النواة: إذا اشتدت.

● قال أبو هلال العسكري: أول من خطب على العصا، وعلى الراحلة: قسُّ بن ساعدة الإيادي..

● تقول العرب: فلان ممن قُرعت له العصا: إذا كان يرجع إلى الصواب، وينقاد للحق، ويستقيم عن زيغه إذا نُبِّه.

● وكان عامر بن الظرب العدواني ـ ويقال له ذو الحِلْم ـ حكماً للعرب، يُرجع إلى حكمه ورأيه. فكبر وأفناه الكبر والدهر، وتغيَّرت أحواله. فأنكر عليه الثاني من ولده أمراً من حكمه فقال له:

= موسى عليه السلام، ثم ذكر عصا سليمان بن داود عليهما السلام، ثم أفضت في ذكر الأخبار والأشعار التي يأتي فيها ذكر العصا. ولا أدَّعي أنني أتيت على ذكر العصا فيما جمعته، وإنما أوردت منه ما حفظته وسمعته. وبالله عز وجل أعوذ واعتصم من أن تكتب يدي ما يُؤثم ويَصِم، ومن رحمته تعالى أطلب الصفح والغفران عن اشتغالي بالترَّهات عن تلاوة القرآن..».

والمؤلف هو أسامة بن مرشد، ابن منقذ الكناني الكلبي، مؤيد الدولة، أمير، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر بقرب حماة. وهو من العلماء الشجعان. له تصانيف في الأدب التاريخ. ولد في شيزر، وسكن دمشق، وانتقل إلى مصر سنة ٥٤٠هـ، وقاد عدة حملات على الصليبيين في فلسطين، وعاد إلى دمشق، ثم برحها إلى حصن كيفا، فأقام إلى أن ملك السلطان صلاح الدين دمشق، فدعاه السلطان إليه، فأجابه وقد تجاوز الثمانين، فمات في دمشق. وكان مقرباً من الملوك والسلاطين. كتب سيرته في جزء سماه «الاعتبار» ترجم إلى الفرنسية والألمانية. ت ٥٨٤هـ.

(١) سورة طه: الآية ١٨.

إنك ربما أخطأت في الحكم ويحمل عنك. فقال: اجعلوا لي أمارة أعرفها، فإذا أخطأتُ وقُرعت لي العصا رجعتُ إلى حكم الصواب!

فكان يجلس أمام بيته، ويجلس ابنه في البيت ومعه العصا، فإذا زلَّ وهفا قرع له الجفنة بالعصا.

وإياه عنى الملتمِّس بقوله:

لذي الحِلْم قبل اليوم ما تُقرع العصا ... وما عُلِّمَ الإنسان إلا ليَعْلَما

● وتقول: فلانٌ صُلْبُ العصا: إذا كان ذا نجدة وحزامة.

يقول هدبة بن الخشرم لما أخرج من السجن ليُقتل:

تَعجَّبُ حُبَّى من أسيرٍ مكبَّل ... صليب العصا باق على الرَّسَفان

فلا تعجبي مني حليلةَ مالكٍ ... كذلك يأتي الدهرُ بالحدثان

● تقول العرب: انشقَّت العصا، إذا تفرقت الخلطاء، واختلفت آراء العشيرة، ومرج الأمر.

وفلانٌ يشقُّ العصا: إذا كان لا يدخل تحت حكم ولا طاعة، مخالفاً لأمر الآمرين. ويستعمل «شقُّ العصا» فيمن يتفرَّق عنه أحبابه ويظعن عنه أصحابه، فيُظهر مكنون سرِّه، ويبوح بخفي أمره لضرورة البين الداعية إلى ذلك.

● لما دخلت حُرقة بنت النعمان بن المنذر على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال لها: أنت حرقة بنة النعمان؟ قالت: نعم، إنا كنا ملوك هذه البلاد، يجبى إلينا خراجها، ويدين لنا أهلها مدى الدهر، وزمن الدولة، حتى إذا انقضى بنا الأمر صاح بنا صائح الدهر، ففرَّق ملأنا، وشقَّ عصانا. وكذلك الدهر يا سعد، ما من قوم يكونون من خيرة إلا والدهر يعقبهم عبرة. ثم أنشدت:

فبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا ... إذا نحن فيهم سُوقةٌ تَتَنصَّفُ

فأفٍّ لدنيا لا يدومُ نعيمُها   تَقَلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرَّفُ

ثم قالت: إني أريد أن أحييك بتحية كان يُحيًا بها أملاكنا: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا زالت لك على كريم منَّة، ولا سلب عبداً صالحاً نعمة إلا جعلك السبب في ردِّها إليه. ثم انصرفت.

● يقال: فلان شقَّ عصا المسلمين، ولا يقال: شَقَّ ثوباً، ولا غير ذلك مما يقع عليه اسم الشَّق.

● ويقال: ألقى فلان عصا التَّسْيار: إذا أقام وترك السفر، وكأن العرب عنت بقولها «ألقى عصاه» أي وصل إلى بغيته ومراده، أو وطنه ومراده وراحته ومظنَّة استراحته.

قال راشد بن عبد الله السلمي:

فألقت عصاها واستقرت بها النوىٰ   كما قرَّ عيناً بالإياب المسافرُ

● روي أن قتيبة بن مسلم لما تسنَّم منبر خراسان سقط القضيب من يده، فتطيَّر له صديقُه وتشأَّم عدوُّه، فعرف ذلك قتيبة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال:

ليس كما سَرَّ العدوَّ وساءَ الصديقَ، بل كما قال الشاعر:

فألقت عصاها...

● قال الأغَر اليشكري ـ وكان برجله عرج ـ:

وشىٰ بيَ واشٍ عند نُعم سفاهةً   فقالت له نُعْمٌ مقالةَ ذي عقلِ
وخبَّرها أني عرجتُ ولم تكن   كوَرْهاءَ تستجدي الملامةَ للبعلِ
وما فيَّ من عيبِ الفتى غير أنني   جلعت العصا رجلاً أُقيم بها رِجلي

● كان الحكم بن عبدل أعرج لا تفارقه العصا، فترك الوقوف

بأبواب الملوك، وكان يكتب على عصاه حاجته، ويبعث بها مع رسوله، فلا يُحْبَس له رسول ولا تُؤخَّر له حاجة. فقال في ذلك يحيى بن نوفل ـ الشاعر الهجَّاء ـ:

عصا حَكَمٍ في الدار أولُ داخلٍ ونحن على الأبواب نُقْصىٰ ونُحْجَب
تُطاعُ فلا تُعصىٰ ويُحْذَرُ سُخْطُها ويُرْغَبُ في المرضاة منها وتُرْهَبُ

فشاعت هذه الأبيات في الكوفة، وضحك منها الناس، فكان الحكم بن عبدل بعد ذلك يقول ليحيى بن نوفل: ما أردت إلى عصاي، جعلتها ضحكة؟

واجتنب أن يكتب عليها كما كان يفعل، وكاتبَ الناسَ في حوائجه في الرقاع!

● وقال الحكم بن عبدل:

ألقِ العصا ودعِ التعارُجَ والتمسْ عملاً فهذي دولةُ العُرْجانِ
لأميرِنا وأميرِ شرطتنا معاً لكليهما يا قومنا رِجْلان
وإذا يكونُ أميرُنا ووزيرُنا وأنا، فإنَّ الرابعَ الشيطان

وسبب الأبيات أنه ولي الشرطة بالكوفة رجل أعرج، ثم ولي الإمارة رجل آخر أعرج، فخرج ابن عبدل ـ وكان أعرج ـ وقد تعرَّض للأمير، فقال تلك الأبيات: فبلغت الأمير، فبعث إليه مائة درهم وسأله أن يكفَّ عنه.

● وكان للحكم بن عبدل صديق أعمى يقال له أبو عُليَّة، وكان ابن عبدل قد أُقعد، فخرجا جميعاً إلى بعض مقاصدهما، والحكمُ يُحْمَل، وأبو عليَّة يُقاد. فلقيهما صاحب العسس بالكوفة، فأخذهما وحبسهما. فلما استقرَّا في الحبس، نظر ابن عبدل إلى عصا أبي علية موضوعة إلى جانب عصاه، فضحك وقال:

حبسي وحَبْسُ أبي عُليـ ـة من أعاجيب الزمان
أعمى يُقاد ومُقْعَدٌ لا الرِّجْلُ منه ولا اليدان
هذا بلا بصرٍ هُنا ك وبي يُحَثُّ القاعدان
يا من رأىٰ ضبَّ الفلاة ةِ قرين حوتٍ في مكان
طِرْفي وطِرْفُ أبي عُلَيَّـ ـةَ دهرَنا يتوافقان
من يفتخر بجواده فجوادنا عُكّازتانِ

وكان اسم أبي عُلَّية يحيى، فقال فيه الحكم بن عَبْدل:

أقول ليحيى ليلةَ السجن سادراً ونومي به نومُ الأسير المقيَّدِ
أعنّي على رعي النجوم ولَحْظِها أعِنْكَ على تحبير شعرٍ مقصَّد
ففي حالَتينا عبرةٌ وتفكُّر وأعجبُ منا حَبسُ أعمى ومُقْعد
كلانا إذا العُكّاز فارقَ كفَّه يخرُّ صريعاً أو على الوجهِ يَسْجُد
عكّازةٌ تهدي إلى السُّبْل أَكْمَهاً وأخرى مقامَ الرِّجْل قامت من اليد

● وذكر يزيد بن مفرِّغ الحميري العصا في قصيدة له فقال:

فالريحُ تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامهْ
والعبدُ يُقْرَعُ بالعصا والحُرُّ تكفيه الملامهْ
والسيف يركبه الفتى حذر المخازي والندامهْ

● وقال امرؤ القيس في نيله من بني أسد ما أراد من ثأره:

قولا لدُودانَ عبيدِ العصا ما غرَّكم بالأسد الباسلِ

وسُمِّي بنو أسد «عبيد العصا» لأن حجراً ـ أبا امرىء القيس ـ كان قد قتل سرواتهم بالعصيّ لأمرٍ أنكره عليهم في بعض غزواته إليهم.

● قال الراعي النميري: من لم يحفظ هذه القصيدة من ولدي فقد عقَّني. ومما ورد فيها:

قتلوا ابنَ عفَّان الخليفةَ مُحْرِماً ودعا، فلم أر مثله مخذولا
فتصدَّعت من بعد ذاك عصاهمُ شِقَقاً وأصبح سيفُهم مفلولا

محرماً: أي في حرمة الإسلام. تصدَّعت: تشققت. عصاهم: جماعتهم.

● وذكر المؤلف أنه حضر بدمشق «تظاهرة» لعميان ضد مسؤولهم «ابن البعلبكي»، وكان يتولى وقفهم، فندب لهم صاحبُ دمشق أحد الأمراء، فاجتمع العميان في نحو من ثلاثمائة رجل في إيوان كبير، وكل واحد يحمل عصاه إلى جنبه، ثم تحاوروا في الحديث مع مسؤولهم بحضور ذلك الأمير، وتنازعوا وتخاصموا ساعة، وعلت أصواتهم لكثرتهم فلم يتمكن من التدخل لحل منازعتهم، ثم تواثبوا، فارتفع في الإيوان نحو من ثلاثمائة عصا في أيدي عميان لا يدرون من يضربون، وعلا الضجيج والصياح.. ثم تلطف في الأمر حتى سكنت الفتنة بينهم، وحكم للعيمان، وما صدَّق أنهم سينصرفون!

● تقول العرب: إذا قام الخطيب والقناة بيده، فقد قام المقام الذي يخرج منه مذموماً أو محموداً. والقناة: العصا.

● قال الجاحظ: الدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم ومعدن شريف: اتخاذُ سليمان بن داود عليهما السلام العصا لخطبته، وموعظته، ومقاماته، وطول صلواته، وتلاوته، وانتصابه، فجعلها لتلك الخصال.

وقول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾[1]. والمنسأة هي العصا.

---

(١) سورة سبأ: الآية ١٤.

● وتقول العرب: قد أقبل فلان وعصاه: إذا أصابه السُّواف، وهو ذهاب المال وموته، فرجع وليس معه إلا العصا، فإنه لا يفارقها إن كان له إبل أو لا!

● وتقول أيضاً: «العصا من العصيَّة، والأفعى من الحيَّة». تريد أن الأمر الكبير يحدث عن الصغير.

● دخل أبو مِجْلَز على قتيبة بن مسلم بخراسان وهو يضرب رجالاً بالعِصيِّ، فقال: أيها الأمير، إن الله تعالى جعل لكلِّ شيء قدراً، ووقَّت فيها وقتاً، العصا للأنعام والهوام والبهائم العظام، والسَّوْط للحدِّ والتعزير، والدِّرَّة للأدب، والسيف لقتال العدو وللقَوْد.

● كان لغِنِيَّة الأعرابية ابنٌ شديد العرامة، كثير التفلُّت إلى الناس، مع ضعف خَلْق ورقة عظم، فواثب مرة فتى من الأعراب، فقطع الفتى أنفه! فأخذت أمه غنيَّة دية أنفه، فحسنت حالُها بعد فقر مدقع.

ثم واثب آخر فقطع أذنه! فأخذت أمه دية أذنه، فزادت في المال وحسن الحال.

ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته. فأخذت دية شفته!

فلما رأت ما قد صار عندها من المال ومن الإبل والغنم.. حَسُنَ رأيُها في ابنها، فذكرته في أرجوزة لها تقول فيه:

أُقسم بالمَرْوَةِ حقّاً والصَّفا   إنك خيرٌ من تفاريق العصا

وتفاريق العصا هو كثرة ما يستفاد منها... فالعصا تُقطع ساجوراً، وتقطع عصا الساجور فتصير أوتاراً، ويفرَّق الوتر فتصير كلُّ قطعة شظاظاً...

● طلب معاوية بن أبي سفيان سحبان وائل، فدخل عليه، فقال

له معاوية: تكلَّم. فقال: انظروا لي عصا تقيم من أودي. فقال له معاوية: «وما تصنع بها؟» فقال: «ما كان موسى عليه السلام يصنع بها وهو يخاطب ربه تعالى وعصاه بيده»؟

فجاؤوه بعصا، فلم يرضها. فقال: «جيؤوني بعصاي».

فأتوه بها، فأخذها، ثم قام يتكلم منذ صلاة الظهر إلى صلاة العصر، ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا تحبَّس، ولا ابتدأ في معنى فخرج منه إلي غيره وقد بقي عليه منه شيء، ولا سأل عن أَيِّ جنس من الكلام يخطب فيه، فما زالت تلك حاله وكل عين في السماط شاخصة نحوه، إلى أن أشار إليه معاوية بيده أن اسكت، فأشار سحبان بيده أن دعني، ولا تقطع عليّ كلامي، فقال له معاوية: «الصلاة» فقال: «هي أمامك، ونحن في صلاة يتبعها تحميد وتمجيد وعظة وتنبيه وتذكير ووعد ووعيد»، فقال له معاوية: «أنت أخطب العرب!»، فقال سحبان: «والعجم والإنس والجن»!

● ذُكر أنه مكتوب على عصا ساسان: الحركة بركة، والتواني هلكة، وكلبٌ طائف خيرٌ من أسد رابض، ومن لم يحترف لم يعتلف.

● حضر رجلٌ عند بعض القضاة يشكو امرأته، وأنها ضربته ضرباً مبرحاً، وكسرت عليه عصا، ومزقت ثيابه!

فأطرق القاضي مفكراً كالمهموم، فقال له الرجل: لا يغمك الله يا سيدنا القاضي، فهذا شيءٌ قد أَلِفْتُه من سوء عشرتها وقلة أدبها!

فقال له القاضي: والله لست مغتماً لضربها إياك ولو قتلتك، وإنما غمِّي أن تظنَّ أن الرجال كلَّهم مثلك!

● حُكي أن الحجاج لقي أعرابياً فقال: من أين أقبلت؟ قال: من البادية قال: ما في يدك؟ أقال: عصاي: أركزها لصلاتي،

وأعددتها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، واعتمد بها في مشيتي ليتسع بها خطوي، وأجوبُ بها النهر فتؤمنني، وأُلقي عليها كسائي فتسترني من الحر وتقيني من القر، وتدني ما بَعُدَ عني وتُبعد ما قرب مني، وهي محمل سُفْرَتي، وعلاقة إداوتي، ومشجب ثيابي، أعتصى بها عند الضِّرّاب، وأقرعُ بها الأبواب، وأتَّقي بها عقور الكلاب، وتنوب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي، وورثها بعدي ابني، وأهشُّ بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى كثيرة لا تحصى.

● عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحلُّ لامرىء أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس منه**». رواه ابن حبان والحاكم في صحيحهما.

● روي عن أبي بكر يموت بن المزرِّع قال: سمعتُ أبا حاتم السجستاني يقول: فيكم من يعرف رجلاً له أربعون سنة، ولابنه عشر ومائة، ولابن ابنه تسعون سنة؟

فقلت: تحتاج إلى شاهد إذن.

فقال: قال الله تبارك وتعالى، في كتابه الكريم: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾. القرية بيت المقدس، والمار فيها العزيز فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1] فأماته الله سبحانه وتعالى وسِنُّه أربعون سنة، وبعثه ولابنه عشر ومائة سنة، ولابن ابنه تسعون سنة.

وأنشد في ذلك:

وأَسْوَدَ رَأْسٍ شَابَ مِنْ قَبْلِهِ ابْنُهُ ... ومِنْ قَبْلِهِ ابْنُ ابْنِهِ وَهْوَ أَكْبَرُ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

يَرَى ابْنَه شَيْخاً يَدبُّ عَلَى العَصَا وَلِحْيَتُهُ بَيْضَاء، والرَّأسُ أزْعَرُ
فَلاَ لابْنِهِ عَقْلٌ وَلاَ فَضلُ قُوَّةٍ يدِبُّ كمَا يَمْشِي الصَّغِيرُ وَيَعْثُرُ
فَمَنْ هُوَ في المَغْقُول إنْ كُنْتَ دارِياً؟ وَإِنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَذْو الجَهْل يُعْذَرُ

● تقول العرب: ليس أدفأ من شجر، ولا أظلَّ من حجر.

● ذكر ابن إسحاق في سيرته أن سوادة بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ حضر بدراً، وكان النبي ﷺ يؤلِّف الصوف بمقرعة في يده، فخدش بها جوف سوادة خمشاً لم يتعمَّده وقال له: «**اعتدل في الصف**». فقال: أوجعتني يا رسول الله، فأقدني. فأعطاه ﷺ المقرعة، وكشف له عن جوفه وقال له: «**استقد**». فدنا منه وقبَّل جوفه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**» فقال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، وأحببت أن يكون آخر عملي من الدنيا أن يمسَّ جسمي جسمك؟ فدعا له ﷺ.

● حكى ابن الأعرابي قال: ساورتْ حيَّةٌ أعرابياً، فضربها بعصاه، فسلم منها وقال:

لولا الهِراوةُ والكفّانِ أنهلني حوضَ المنيَّةِ قَتَّالٌ لمن وَرَدا

● وقال محمد بن ذؤيب العماني:

عاتٍ يرى ضربَ الرجالِ مَغْنَما إذا رأى مصدِّقاً تجهَّما
وهزَّ في الكفِّ وأبدى المعصما هِراوةً نبعيَّة أو سَلَما
تتركُ ما رامَ رُفاتاً رِمَما

● قال أبو العتاهية:

عريتُ من الشباب وكنتُ غضّاً كما يَعْرَى من الورق القضيبُ
ألا ليت الشبابُ يعودُ يوماً فأُخبره بما صنعَ المشيبُ

ومن بديع ما جاء في عصا الكبر قول بشامة بن الغدير:

قالت أُمامة يومَ بُرقةِ واسطٍ ... يابْنَ الغديرِ لقد جعلتَ تَغيَّرُ
أصبحتَ بعد شبابك الغضِّ الذي ... نُقِضَتْ مريرتُه وغصنُك أخضرُ
شيخاً دِعامتُك العصا ومشيَّعاً ... لا يبتغي خبراً ولا يُستَخْبَرُ
فأجبتُها: أمَّنْ يُعَمَّرْ يعترفْ ... ما قد زعمتِ وينبُ عنه المنظرُ
ولقد رأيتُ شبيهَ ما عيَّرتِني ... يغدو الزمانُ به عليكِ وَيَبكُرُ
وجعلتُ يُحفظني الصغيرُ وملَّني ... أهلي، وكنتُ مكرَّماً لا أُقْهَر
وشربتُ بالقعبِ الصغير وقادني ... نحوَ المَقَامة من بنيَّ الأصغرُ

● وقال لبيد بن ربعية:

أليس ورائي إن تراخت منيَّتي ... لزومُ العصا تُحنىٰ عليها الأصابعُ
أُخَبِّر أخبارَ القرون التي مضت ... أَدِبُّ كأني كلَّما قمتُ راكعُ

● وقال المؤلف:

أسفي على عصر الشباب تصرَّمت ... أيّامه، لا بل على أيّامي
لم أبكهِ أسفاً على مرح الصِّبا ... ووصالِ غانيةٍ وشُرب مُدامِ
لكن على جَلَدي وخوضي مَعْرَكاً ... يرتَاعُ فيه الموتُ من إقدامي
بيدي حسامٌ كلّما جرَّدتُه ... يوم الوغىٰ أغمدتُه في الهام
ونزال فرسان الهياج وكلُّهم ... فَرِقٌ لهولِ تقحُّمي ومقامي
ولقتليَ الأُسْدَ الضواري يَخْطُها ... كالرعدِ قعقع في متونِ غمام
فحملتُ من بعد الثمانين العصا ... متيقِّناً إنذارها لِحمامي

● وقال أيضاً:

مع الثمانينَ عاش الضَّعفُ في جَلَدي ... وساءني ضعفُ رِجْلي واضطرابُ يدي
إذا كتبتُ فخطِّي جدُّ مضطربٍ ... كخطِّ مرتعشِ الكفَّيْنِ مرتعدِ

وإن مشيتُ وفي كفِّي العصا ثقلت رِجْلي، كأني أخوضُ الوحلَ في الجَلَد
فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً من بعد حَطْمِ القنا في لَبَّةِ الأسد
فقل لمن يتمنّى طولَ مدَّتهِ: هذي عواقبُ طولِ العمر والمُدَد

● كان عَمْرو بن مسعود السلمي يسكن الطائف، وكان لأبي سفيان بن حَرْبٍ، فأتى الدهر على بَنِيه أجمعِ وبقيت بناته، فلمّا اشتدَّ حاله خرج إلى معاوية، فأقام ببابه حولاً لا يصل إليه ولا يمكنه الدخول عليه، فمر به حاجب لمعاوية يوماً وهو يتحدث في بعض أفنية معاوية، فأعجبه حديثه، فسأله عن حاجته، فقال: حاجتي أن توصل لي رقعةً إلى أمير المؤمنين، فقال: هاتها. فكتب إليه:

يا أيها المَلِكُ المبدِي لَنَا ضَجْراً لَوْ كَانَ صَخْر لَنَا لَمْ يولِنَا ضَجَرا
مَا بَالُ شَيْخِكَ مَخْنُوقاً بِجَرَّتهِ طَالَ البَلاءُ بِهِ دَهْراً وقَدْ صَبَرا
قَدْ جَاء تُرْعَدُ كَفَّاهُ بِمحجَنَةٍ لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِن أولادِهِ ذَكَرا
وَقَنْسَرَتْهُ هُمُومٌ، فَاقْسَأَنَّ لَهَا وَقَدْ حَنَا ظَهْرَهُ دَهْرٌ، وقَدْ كَبُرا[1]
وَقَدْ مَرَّ حَوْلٌ وَنِصْفٌ لاَ يَرى سَبَباً يُدْني إلَيْكَ، وهَذَا المَوْتُ قَدْ حَضَرا
ثَاوٍ وَكَلْكَلُ هَذَا الدَّهْرِ يَعرُكُهُ تُرَاكَ يابْنَ أبي سُفْيَانَ مُعْتَصِرَا؟
فَاذْكُرْ أَبَاكَ أَبَا سُفْيَانَ إنَّ لَهُ حَقاً عَلَيْكَ، وَقَدْ ضَيَّعْتَهُ عُصُرا

فلمّا قرأ معاوية الشعر تلاحقت أصواته: أدخلْهُ، أدخله، فلما دخل قال له معاوية: مَنْ؟ ومِنْ أين؟ قال عمرو بن مسعود السلمي، جئت أطلبُ الإخاء الذي بيني وبين أبيك في الجاهلية! قال له معاوية: وما كان بينك وبينه؟ قال: كان ينزل عليّ إذا قدم أرض الطائف حتى يقضي حوائجه. فقال معاوية: كيف حالك يا ابن مسعود؟ قال: «يا أمير المؤمنين قلَّ منّي ما كنت أحبُّ أن يكثر،

(١) تقنسر الإنسان: شاخ وتقبّض. واقسأنَّ: كبر.

وكثر مني ما كنتُ أحب أن يقلَّ، واسودَّ مني ما كنت أحب أن يبيضَّ، وابيضَّ مني ما كنتُ أحب أن يسودَّ، وذلّ مني ما كنت أحبُّ أن يصعب، وصعبَ مني ما كنت أحب أن يذلَّ، وأسرعتِ الأيامُ في النقض، وثقلتُ على وجهِ الأرض، واحتميتُ النساءَ وكنَّ الشفاء، وفقدتُ المطعمَ وكان المنعم، وكثر سهوي وقصر خطوي، وقلَّ لهوي، فعقلي هُفَات، ويومي سُبات وسمعي تَارَات، وأنا القائل:

أَشْكُو إِلَيْكَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فَقَدْ
أَخْنَى عَلَيَّ الذَّي أَخْنَى عَلَى لُبَدِ
شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلِيلٌ هَامَةٌ لِغَد
يَزْقُو لَدَى جَدَثٍ، أَوْ لاَ فَبَعْد غَدِ
أَوْدَى حَلُوبَتَهُ واحْتِيجَ ما جَمَعَتْ
كَفَّاهُ مِنْ سَبَدِ الأَمْوَالِ واللَّبَدِ
ثُمَّت حَالَ عَلَى مَنْ كَانَ ذَا عَضُدِ
يَا لِلرِّجَالِ فَلَيْسَ اليومَ مِنْ عَضُد
حتَّى إذَا صِرْتُ في مَالِي وفي ولَدِي
مِثْلُ الخَلِيَّةِ سَبْرُوتاً بَلاَ عَدَدِ(١)
أمسَىٰ يَكُدُّ صَفَاتِي حَدُّ مِعْوَلِهِ
يَا دَهْرُ، قَدْكَ بِمَا أَوْلَيْتَنِيهِ قَدِ!

فأحسن معاوية صلته، ووطأ له ما بين الطائف إلى مكة، ووجه معه من يوصله إلى أهله وأمر بحفظ كلامه، فخرج وهو ينشد:

يَأَيُّهَا الرَّاكِبُ بُزْلَ الجِمَالِ   الرَّائِحُ الطَّالِبُ فَضْل النَّوالُ
لا تَحْسَبَنَّ الموتَ موتَ البِلَى   وإنَمَا المَوتُ سُؤالُ الرِّجَال

---

(١) الخلية من الإبل: المخلاة للحلب. والسبروت: القفر.

كِـلاهُـمَـا مَـوْتٌ، ولـكـنَّ ذَا أعـظَـمُ مـن ذَاكَ لِـذُلِّ الـسُّـؤَال
نـهـيـمُ بـالـدنـيـا ونـلـهـو بـهـا وإنـمـا الـدنـيـا كـفـيِّ الـظِّـلال
بـيـنـا تـرى الـفـيءَ عـلـى حـالـه مـعـتـدلاً إذ مـالَ بـعـد اعـتـدال
كـذلـك الـدنـيـا وتـصـريـفـهـا تـمـيـلُ بـالإنـسـان حـالاً فـحـال

فلما رجع الرسول إلى معاوية، أخبره بما سمع من عمرو بن مسعود، فبعث إليه بعهده على الطائف. فوصل الرسول بالعهد وقد مات!

● وقال بعضهم:

ما زلتُ أركبُ شاكلاتِ الرَّبْرَبِ حتى مشيتُ على العصا كالأحدب
وتزلُّ رِجلي كلما ثَبَّتُّها فكأنني أمشي الوجى في الطُّحْلُب
أأزيدُ ثالثةً وأَنقُصُ عن مدىً مَشيَ اثنتين؟ لقد أطلتُ تعجُّبي

● وقال أبو ضبَّة:

وقد جعلتُ إذا ما قمتُ يُوجعني ظهري وقمتُ قيامَ الشارفِ الظَّهِرِ
وكنتُ أمشي على رِجْلين معتدلاً فصرتُ أمشي على رِجلٍ من الشَّجَرِ

● وأنشد الخطيب مجد الدين موسى بن يحيى الحصكفي:

كبرتُ إلى أن صرتُ أمشي على العصا لتَجْبُرَ ما أعرى الزمانُ من الوهنِ
يقولون ما تشكي؟ وهل من شكايةٍ أشدَّ على الإنسان من كبرِ السِّنِّ!

● كما أنشد لبعضهم:

حملتُ العصا لا الضَّعْفُ أوجبَ حَمْلَها عليَّ ولا أني تحنَّيْتُ من كِبَرْ
ولكنني ألزمتُ نفسي حَمْلَها لأُعْلِمها أن المقيمَ على سَفَرْ!

● وقال آخر:

كلُّ امرىءٍ إذا تفكرتَ فيه وتأمَّلْتَهُ تراه طريفا

كنتُ أمشي على اثنتين قوياً صرتُ أمشي على ثلاث ضعيفا!

● ومما قاله أبو الهذيل العبدي:

يا هندُ قد رحلَ الشبا ... بُ وحَلَّ ما لا يرحلُ
فصددتِ عني إذ بدا ... لكِ أن رأسي أَشْعَلُ
ورأيتني عند القيا ... مِ على عصاي أَفْكَلُ[1]
رَعِشاً كأني إذ مشيـ ... تُ على القناة مُخَبَّلُ
لا تجزعي مِمّا رأيـ ... تِ فإن صبرك أجملُ
يا هندُ ليس براجعٍ ... ذاك الزمانُ الأوَّلُ
إن الزمانَ بأهلهِ ... في صرفهِ يتحوَّلُ
والموتُ فيما بين ذا ... ك لكلِّ نفسٍ مَنْهَلُ

● ومن شعر المؤلف:

ضَعُفَتْ قُواي وخانني الثِّقتان مِنْ ... بصري وسمعي حين شارفتُ المدىٰ
فإذا نهضتُ حسبتُ أني حاملٌ ... جبلاً، وأمشي إن مشيتُ مُقَيَّدا
وأَدِبُّ في كفِّي العصا وَعِهْدتُها ... في الحرب تحملُ أسمراً ومهنّدا
وأبيتُ في لين المِهاد مُسَهَّداً ... قلقاً، كأنني افترشتُ الجلمدا
والمرءُ يَنْكُسَ في الحياةِ وبينما ... بلغَ الكمالَ وتمَّ، عاد كما بدا!

---

(١) أي أرعد.

الفاضل(*)

للمبرَّد

قال المؤلف: أحسنُ ما روي في جبلَّة الإنسان التي جُبِلَ عليها كلامٌ يُروىٰ عن علي رضي الله عنه... قال رضي الله عنه: وأعجب

(*) الفاضل/ لأبي العباس محمد بن يزيد المبرِّد: تحقيق عبد العزيز الميمني - القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٧٥هـ، ١٦٥ص.

يقول المؤلف رحمه الله: «سنذكر في كتابنا هذا أبواباً من كلام العرب، وبعض ما روي عنها، ونثراً من أخبارها، ونفصِّل ذلك بأشعار وأخبار من قديمٍ وحديث وما بينهما، ونقدِّم العذر في تقصير إن وقع فيه أو خلل إن لزمه، فإنا ألَّفناه من غير خلوة به ولا تمييز لما تضمَّنه..».

ومن أبواب الكتاب: نوادر من غريب ولغة، في الجود والكرم، أخبار وأشعار، الأخبار المستحسنة، مراث بليغة وعظات موجزة وأبيات مستحسنة، بعض أخبار المعمَّرين وأشعار العرب المحدثين في ذمِّ الشيب وفقد الشباب، الإحالة بالذنب على غير المذنب، الحلم والأناة، الشكر للصنائع، في كتمان السر، في تفضيل الكبير، فضل في الفصاحة، فصل في الجمال.

وقد جرى فيه المؤلف على نحو ما جرى عليه في كتابه الكامل، من إيراد مصفَّى الشِّعر، ومنخول النثر، وروائع الخطب، وبليغ الرسائل، وطريف الأخبار، وغريب اللغة والنوادر.

والمؤلف إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار، مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. وقد سبق أن عرضنا كتابه «التعازي المراثي» أيضاً. ت ٢٨٦هـ.

ما في الإنسان قلبه!.. فإن سنَح له الرجاءُ أذلَّهُ الطمع، وإن هاجَ به الطمعُ أهلكه الحرص، وإن ملكه البأسُ قتله الأسف، وإن عرضَ له الغضبُ استبدَّ به الغيظ، وإن أُسعد بالرِّضا نسي التحفُّظ، وإن ناله الخوفُ شغله الحذر، وإن اتَّسع له الأمر استلبتْهُ الغِرَّة[1]، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عارضته فاقةٌ فضحه الجزع، وإن جهده الجوعُ قعد به الضعف، وإن أفرط في الشِّبع كظَّتْهُ البِطنة. فكلُّ تقصيرٍ به مضرّ، وكلُّ إفراط له مفسد!

● يروى أن عمر بن عبد العزيز رأى قوماً من الفرس ينظرون في النحو فقال: لئن أصلحتموه لأنتم أولُ مَنْ أفسده!

● قال الأصمعي: الدليل على أن حسّاناً لم يكن جباناً من الأصل أنه كان يهاجي خَلْقاً فلم يعيِّره أحدٌ منهم[2].

● قال رجلٌ من الأعراب لامرأته: عليك بهذا الطعام فأخبُريه ولا تَسْمُريه.

والخُبْرة: الدَّسَم، والسَّمار: اللبن الرقيق، يقول: اجعلي فيه دسَماً ولا تجعلي فيه سَماراً.

● قال بعضهم في المرأة:

ضعائفُ يَقْتُلْنَ الرجالَ بلا دمٍ فيا عجباً للقاتلاتِ الضعائف!

● يقول الصحابي الجليل حكيم بن حزام ـ وكان ثرياً ـ: ما أصبحتُ ذا صباح قط فرأيتُ ببابي طالبَ حاجة، أو مستعيناً بي على

---

(١) الغرَّة: الغفلة وعدم النظر في العواقب.

(٢) قلت: وقد صنَّف أحدهم كتاباً في ذلك، فنَّد فيه الروايات التاريخية وأقوال بعض الناس في شاعر الرسول ﷺ وأن ما قيل في ذلك كذب ودسّ، وأن عدم مشاركته في بعض الغزوات أو الحروب لجرح أصاب يده فأعاقه عن متابعة الجهاد.. وقد عرضت ذلك الكتاب في بعض كتبي.

أمر قد ضاق به ذرعاً إلا كان ذلك من النِّعم التي أحمدُ الله عليها، وإن أصبحتُ ذا صباحٍ ولم أر ذلك كان من المصائب التي أسألُ الله الأجرَ عليها!

● قال أبو زيد: وصفت امرأةٌ من سعد امرأةً فقالت: إنها لَلَيَّاءُ العُنق، مِمْذاق السِّقاء، مِنْهاء القِدْر.

ليّاء العنق: كثيرة الالتفات إلى الأضياف.

ممذاق السقاء، تقول: إذا قلَّ لبنُها مذقتْهُ بالماء ليتَّسع على أضيافها.

ومِنْهاء القِدْر: أي تعجِّل إنزالها إلى أضيافها، أو من نَهِيءَ اللحمُ إذا كان نيئاً.

● قال أعرابي ـ في ذمِّ البخل ـ: ما أبالي أَصَرَرْتُ على حجرٍ أم صَرَرْتُ على دنانير إذا كنتُ لا أنفقها.

● كان عمرو بن العاص جيد الفطنة، كثير الدهاء، سريع الجواب، بليغ الكلام، ويروى أنه جُعِلَ لرجل ألفُ درهم على أن يسألَ عَمراً عن أمِّه ـ وكان يُطْعَنُ عليها ـ، فأتاه وهو يومئذ أميرُ مصر، فقال: أصلح الله الأمير، أردتُ أن أعرفَ أمَّ الأمير.

فقال: نعم، امرأةٌ من عنَزَة، ثم من بني العنبر، ثم من جِلاّن، اسمها ليلى، وتعرف بالنابغة، اذهب فخذ جُعْلَك!

● اعترضَ رجلٌ من بني أمية يحيى بن خالد البرمكي، فقال: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن توصلني إلى أمير المؤمنين الرشيد ـ وعرَّفه نفسه ـ فقال له: إن أمير المؤمنين يكره أهل هذا البيت، فإن كانت لك حاجة كنتُ لك فيما تريده دون أمير المؤمنين. قال: ما بي حاجة إلى غيره، وهذه حاجتي إليك!

فدخل إليه يحيى، فصادفه طيِّب النفس، فقال: يا أمير المؤمنين

إن لي حاجة، فقال له: قل يا أبا علي. فأخبره بقصة الأموي. فقال: ما أكره ذلك. فأُتي به، فسلَّم عليه ودعا فأحسن، ثم أنشأ يقول:

يا أميــن الله إنــي قــائــل ... قــول ذي رأي وديــنٍ وحــسبْ
لكمُ الفضلُ علينا ولنا ... بكمُ الفضلُ على كلِّ العربْ
من يقل غير مقالي فلقد ... ضلَّ في الحكم ضلالاً وكَذَبْ
عبدُ شمسٍ كان يتلو هاشماً ... وهما بعدُ لأمٍّ ولأبْ
فَصِلِ الأرحام منا إنما ... عبدُ شمسٍ عمُّ عبد المطلبْ
فالقرباتُ شديدٌ عقدها ... عقدها أوثق من عَقد الكَرَبْ

قال الرشيد: إي والله. وأمر له بجائزة، فقبضها وخرج.

قال يحيى: فخرجتُ خلفه لأعطيه أنا أيضاً فلم ألحقه!

● رثت امرأة من بني أسد ابنها في قصيدة مؤثرة، من بينها هذا البيت:

أرادوا ليُخفوا قبره عن عدوِّه ... فطيبُ ترابِ القبر دلَّ على القبر

فيقال: إن هذا أرثى بيت قالته العرب!

● ويروى أن أبا الجهم العدوي[1] قال: لقد بِتُّ ليلة بأسرها قَلِقاً أفكر في حلم معاوية فيذهب عني وَسَني، قال: وغدوت عليه وأنا مُجْمِع لقاءه بما أرجو أن يطيِّشه، فدخلت عليه، وقد كان عنده رجل أغضبه بأشياءَ لقِيه بها، فقلت في نفسي: ظفرتُ به؛ فسلّمتُ عليه، فردّ عليّ جواباً ضعيفاً، فقلت: يا ابن هند، أَبَلغَ بك الأمرُ

(١) عالم بالنسب، معظم في قريش، مقدَّم فيهم، وكان فيه وفي بنيه شدة وعرامة. أسلم عام الفتح وتوفي في أيام ابن الزبير، وكان معمَّراً.

إلى أن أسلِّم عليك فتردّ عليّ مثل هذا الردّ! والله لقد رأيت أمّك وهي شابة ناهد، وأنا إذ ذاك أطلبُ الفجور، فعرضتْ عليّ نفسَها فأَبيتُها؛ فقال: يا أبا الجهم، أما إنك لو نكحتَها لنكحت حَصاناً كريمة، ولكنتَ أهلاً لها.

قال أبو الجهم: فوقعتُ على رجليه أقبلهما، وأقول:

نـقـلِّـبـه لـنَـخْـبُـرَ حـالـتـيـه ... فـيـكشِف عـنـهـما كـرماً ولـيـناً
نـمـيـل عـلـى جـوانـبـه كـأنّـا ... نـمـيـلُ إذا نـمـيـلُ عـلـى أبِـيـنـا

فقام معاوية فدخل إلى حُجرة له فدعا بأبي الجهم فقال له: يا أبا الجهم؛ إيّاك وإغضابَ الملوك، فإن لهم غضباً كغضب الصبيان، وبطشاً كبطش الأُسد. يا غلام، أعطه ثلاثين ألف درهم، وليحملها معه ثلاثة من العبيد.

فخرج من بين يديه ومعه تلك الصِّلة!

• نصح المنصورُ المهديَّ فقال: الخليفة لا يُصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يُصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقصُ الناس عقلاً من ظلم من هو دونه!

• وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ثلاثٌ من كنَّ فيه فقد كملَ: من إذا غضب لم يُخرجه غضبُه من الحق، وإذا رضي لم يُدخله رضاه في الباطل، وإذا قدر عفا وكفَّ.

• يروى أن معاوية قال للأحنف: يا أحنف: أأنت صاحبنا يوم صفِّين، والمخذولُ عن أمير المؤمنين؟

فقال الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها يومئذ لفي صدورنا، وإن سيوفنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن دنوتَ إلينا شبراً من خير لندنونَّ إليك ذراعاً من عُذر، ولئن شئتَ

ليصفونَّ لك ودُّنا بفضل حلمك عنا.

قال: قد شئتُ!

● ومن أقوال معاوية: من همَّ بالمعروف ثم عجز عنه فقد وجب شكره.

● يروى أن عبد الله بن العباس ـ رضي الله عنهما ـ وكان من الأجواد ـ أمر لسائل سأله بعشرة آلاف درهم، فُصبَّت في حجره، فتخرَّق ثوبُه! فبكى، فقال له: أعلى قميصك تبكي؟ فقال: لا والله، ولكن على ما يأكل الترابُ منك!

فقال: شكركَ أحسنُ من صنيعتنا، يا غلام أعطه مثلها!

● شكر أعرابي رجلاً فقال: الحمد لله على توفيقه إياك في إعطائي، وعلى توفيقه إياي في مسألة مثلك، أعاشك الله صالحاً.

● كان يقال: من علامات الحسود أن يتملَّق الرجلَ إذا حضر، ويغتابه إذا غاب، ويشمت بالمصيبة إذا نزلت.

● يروى أن عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان أسرَّ إليه معاوية سرّاً، فأتى أباه عنبسة فقال: إن معاوية أسرَّ إليَّ سرّاً فأحدِّثك به؟ قال: لا. قال: ولمَ؟ قال: لأن الرجل إذا كتم سرَّه كان الأمر إليه، وإذا أذاعه فالأمر عليه، ولا تجعلن نفسك مملوكاً بعد أن كنت حراً. قال: أفيدخلُ هذا بين الأب وابنه؟ قال: لا يا بني. ولكن أكره أن تذلِّل لسانك بإفشاء السرّ!

قال: فأتى معاويةَ فذكر ذلك له، فقال: أعتقك أخي من رقِّ الخطأ..

● يروى أن علي بن الحسين (زين العابدين) كان أبرَّ الناس وأتقاهم، وكان إذا سافر كتم نسبه وستر وجهه، فقيل له في ذلك فقال: أكره أن آخذ برسول الله لا أُعطىٰ مثله.

وكان يقول: ما أكلتُ بنسبي من رسول الله ﷺ درهماً قط!

● ومن أقواله: لقد ابيضَّت عينا يعقوب من أقلَّ مما نالني، وذلك أنه فقد واحداً من اثني عشر، وأنا رأيتُ ثلاثة عشر من لُحمتي قُتلوا بين يدي!

● قال علي بن القاسم: قلت لأعرابي فصيح: ما معنى قولهم في المثل: «كاد العروس أن تكون أميراً»؟ لِمَ كاد ذاك؟

قال: لأن الأكفاء يخدمونها في تلك الحال.

● قال يونس بن إسحاق: كان الجمال من أهل الكوفة في ثلاثة نفر: الأشعث بن قيس الكندي، وعدي بن حاتم الطائي، وجرير بن عبد الله البجلي. فدخلتُ مأدبة في السَّبيع (محلة بالكوفة) فرأيت هؤلاء الثلاثة، فما رأيتُ بيضَ نعام ولا طريدة ظبي ولا تمثالاً إلا وما رأيتُ أحسن من هؤلاء الثلاثة!

قال: وكلٌّ أعور! فأما الأشعث بن قيس فأصيبت عينه يوم اليرموك، وأما عدي بن حاتم فأصيبت عينه يوم الجمل، وأما جرير فأصيبت عينه بهمذان!

● قال بعض الأعراب: إني لأعشق الرزق وإنه ليُبغضني!

الفرائد والقلائد(*)
للثعالبي

● **العلم والعقل:**

- من لم يعلم لم يسلم.
- الجهلُ بالفضائل من أقبح الرذائل.
- من صاحبَ العلماءَ وُقِّر، ومن صاحبَ السفهاءَ حُقِّر.
- من ساء أدبه ضاع نسبُه.
- من آنسته قراءة القرآن، لم توحشه مفارقة الإخوان.

(*) الأمثال، المسمى بالفرائد والقلائد، ويسمى أيضاً بالعقد النفيس ونزهة الجليس/إنشاء أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي. ـ القاهرة: دار الكتب العربية الكبرى، ١٣٢٧هـ، ٨٧ص.

قال المؤلف في التعريف بكتابه هذا: جمعنا من إنشائنا في كتابنا هذا ألفاظاً وجيزة أجريناها مجرى الأمثال، وفصولاً قصيرة دَلَلْناها على مواقع الأعمال، وقَصَدنا فيما ألفناه من ذلك وجه الاختصار وكنه الإقتصار، ليقلَّ لفظه ويسهل حفظه، وجعلناه ألف فصل، ومُثِّل في ثمانية أبواب:

في فضيلة العلم والعقل، فيما يستعان به على الزهد، وعلى أدب اللسان، وأدب النفس، ومكارم الأخلاق، وحسن السيرة، وحسن السياسة، وحسن البلاغة. اهـ.

وقد أثبتُّ العنوان الذي ذكره المؤلف في مقدمته أنَّه سمى كتابه به.

والمؤلف أديب علاّمة، سبق التعريف به. ت ٤٢٩هـ.

- من أشدِّ الجهل مصاحبة ذوي الجهل.

- الجاهل يطلب المال، والعاقل يطلب الكمال.

- لا يستخفُّ بالعلم وأهله إلا رقِيعٌ جاهل أو وضيعٌ خامل.

- كم من عزيز أذلَّه جهلُه، وذليلٍ أعزه عقلُه.

- ليس للمرء أن يغتبط بمنزلة جليلةٍ نالها بغير عقل، أو محلَّةٍ رفيعةٍ حلَّها بغير فضل، فإن الجهل يزلُّه منها ويُزيله عنها ويحطُّه إلى رتبته فيردُّه إلى قيمته، بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه، ويصيَر مادحُه هاجياً، ويصبح وليُّه معادياً.

● **الزهد:**

- من رضي بالقضاء صبر على البلاء.

- ما انقضت ساعةٌ من دهرك إلا بقطعة من عمرك.

- قليلٌ يُغني خيرٌ من كثيرٍ يُطغي.

- درهمٌ ينفع خيرٌ من دينار يصرع.

- خيرُ العلم ما نفع، وخيرُ الوعظ ما ردع.

- من سرَّه الفساد ساءه المعاد.

- الربُّ لا يموت، والجزاء لا يفوت، فقل ما شئت وافعل ما هَوِيت.

- من آمن بالله التجأ إليه، ومن وثق به توكل عليه.

- ما أنصف نفسه من عرف الحشر والحساب وزهد في الأجر والثواب!

- من أرضىٰ سلطاناً جائراً أسخط ربّاً قادراً.

- من ذكر المنيَّة نسي الأُمنيَّة.

- الدين نور واليقين سور.

- البخيل حارس نعمته وخازنُ ورثته.

- لا تعتمد على النعمة فإنها ضيف راحل.

- كلُّ عزٍّ لا يوطِّده دينٌ مذلَّة.

- من جهل المرء أن يعصي ربَّه في طاعة هواه، ويهين نفسه في إكرام دنياه، وهو من هواه في ضلال، ومن دنياه في زوال.

- أفضل الأشياء العافية، وأفضل الدارين الباقية.

- لا تفنِ عمرك في الملاهي، ولا تصرف مالك في المعاصي، فتخرج من دنياك بلا عمل، وترِدَ على ربِّك بلا أمل.

- إذا أحسنت القول فأحسن الفعل.

● **أدب اللسان:**

- إياك وفضول الكلام، فإنها تُظهر من عيوبك ما بطن، وتحرك من عدوك ما سكن.

- كلام المرء بيان فضله، وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل.

- كلٌّ يُعرف بقوله ويوصف بفعله، فقل سديداً وافعل حميداً.

- من أكثر مقاله سُئم، ومن أكثر سؤاله حُرم، ومن استخفَّ بإخوانه خُذل.

- إياك وما يُستقبح من الكلام، فإنه ينفر عنك الكرام، ويجسِّر عليك اللئام.

- إياك والهذر، فإنه يُكثر الزلل ويورث الملل.

- من أفرط في المقال زلّ، ومن استخفَّ بالرجال ذلّ.

- كم من دم سفكه فم، وإنسانٍ أهلكه لسان.

- من قال بلا احترام أجيب بلا احتشام.

ـ احبس لسانك قبل أن يُطيل حبسك ويتلف نفسك.

● **أدب النفس:**

ـ لا تستخفنَّ بشريف، ولا تميلنَّ إلى سخيف.

ـ لُمْ نفسك على قبح مقالك ولؤم أفعالك، وازجرها عنهما وعيِّرها بهما، قبل أن يزجرك صديق ناصح أو يعيرك عدوٌّ كاشح.

● **مكارم الأخلاق:**

ـ قضاء اللوازم من أفضل المكارم.

ـ البِشْر أول البِرّ.

ـ رأس الرذائل صحبة الأراذل.

ـ ما عزَّ من أذلَّ جيرانه، ولا سعد من أشقىٰ إخوانه.

ـ إذا شَرُفَ الخُلق لطف النطق.

ـ من مَنع العطاء مُنع الثناء.

ـ من كفر شمول النِّعم استوجب حلول النِّقم.

ـ من أغلق عن ضيفه بابه ذمَّ إليه خلقه وآدابه.

ـ من رقي في درجات الهمم عظم في عيون الأمم.

ـ من كبرت همَّته كبرت قيمته.

ـ أحسن الصدق ما كان عند الغضب.

ـ شرُّ الأموال ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام.

ـ من تمام الكرم أن تذكر الخدمة القديمة لك، وتنسى النعمة الحديثة منك.

ـ أحسن الآداب ما كفَّك عن المحارم، وأحسن الأخلاق ما حثَّك على المكارم.

ـ إذا أذنبت فاعتذر، وإذا أذنب إليك فاغتفر، فالمعذرة بيان العقل، والمغفرة برهان الفضل.

ـ ما أحسن الجود مع الإعسار، وأحسن العفو مع الاقتدار.

ـ من الكرم حسن العفو عن سهو الذنوب، وتركُ البحث عن سوء العيوب.

ـ إن من الشريعة أن تُجِلَّ أهل الشريعة.

● **حسن السيرة:**

ـ الظلم مسلبة للنِّعم، والبغي مجلبة للنِّقم.

ـ أقرب الأشياء صرعة الظَّلوم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم.

ـ من مال إلى الحق مال إليه الخلق.

ـ من ظلم يتيماً ظلم أولاده، ومن أفسد أمر دينه أفسد معاده.

ـ أقبح الأشياء سخفُ الولاة، وقهرُ القضاة، وغفلة الساسة، وخسَّة السادة.

ـ من جانبَ الأخيار أساء الاختيار.

ـ العدل أقوى جيش، والأمن أهنأ عيش.

ـ اعتبر بمن مضى قبلك، ولا تكن عبرةً لمن يأتي بعدك.

ـ أقبل على الخاصة واقضِ بهم حوائج العامة، فإن في حفظ المودَّات ورعاية الحرمات حسنَ الوفاء وطيبَ الثناء.

ـ من لبس ثياب الكبر أحبَّ الناسُ ذلتَّه، ومن ركب مطية الظلم كرهوا أيامه ودولته.

ـ حاجة السلطان إلى إصلاح نفسه أشدُّ من حاجته إلى إصلاح رعيته.

ـ من أمضى يومه في غير حقٍّ قضاه، أو فرضٍ أدّاه، أو مجدٍ أثَّله، أو حمد حصَّله، أو خيرٍ أسَّسه، أو علمٍ اقتبسه؛ فقد عقَّ يومه، وظلم نفسه.

ـ لا تُمضِ يومك في غير منفعة، ولا تصرف مالك في غير صنعة، فالعمر أقصر من أن ينفد في غير المنافع، والمال أقلُّ من أن يُصرف في غير الصنائع، والعاقل أجلُّ من أن يفني عمره في غير ما لا يعود عليه نفعه وخيره، وينفق ماله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره.

● **حسن السياسة:**

ـ آفة الأمراء سوء السيرة، وآفة الوزراء خبث السريرة، وآفة القضاة شدة الطمع، وآفة القوي استصعاب الخصم، وآفة النِّعم قبح المَنِّ.

ـ من دام كسلُه خاب أمله.

ـ العجول يخطىء وإن ملك، والمتأني يصيب وإن هلك.

ـ من طلب السلامة لزم الاستقامة.

ـ من أسرع في الجواب أخطأ في الصواب.

ـ من فعل ما شاء لقي ما ساء.

ـ من عري عن حسن التجارب عمي عن سوء العواقب.

ـ من حفظ ماله ضيَّع رجاله.

ـ عزيمة الصبر تطفىء نار الشر.

ـ إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل.

ـ من أقبل على النصح أعرض عن القبح.

ـ من ساء تدبيره كذب تقديرُه.

ـ من ضيَّع أمره ضيَّع كل أمر، ومن جهل قدره جهل كلَّ قدر.

ـ استصلاح العدوِّ بحسن المقال أصلح من استئصاله بطول القتال.

ـ من حق العاقل أن يضمَّ إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، ويديم الاسترشاد ويترك الاستبداد، فالرأي الفذّ ربما زلّ، والعقل الفرد ربما ضلّ.

ـ من نصحك فلا تستبدل به، ومن وعظك فلا تستوحش منه، فمن نصحك فقد أحسن إليك، ومن وعظك فقد أشفق عليك.

ـ من لم يَصْلُح لنفسه لم يَصْلحُ لك، ومن لم يَذُبَّ عن أهله لم يذبَّ عنك.

ـ من استعان بصغار رجاله على كبار أعماله ضيَّع العمل، وأوقع الخلل.

ـ اعلم أن سبب هلاك الملوك وفساد الممالك اطِّراحُ ذوي الفضائل، واصطناعُ ذوي الرذائل، والاستخفاف بعظة الناصح، والاغترار بتزكية المادح.

ـ أجهل الناس من يمنع البرّ ويطلب الشكر، ويفعل الشر ويتوقَّع الخير، ويغترُّ بقول متملِّقٍ يحسِّنُ إليه القبيح ويبغِّضُ إليه النصيح.

ـ اعلم أن السعاية نار وقولُها عار، والعملُ بها دناءة والثقة بأهلها غباوة، لأن الذي يحمل الساعي على سعايته قلة ورع أو شدَّةُ طمع، أو لؤم طبع أو طلب نفع، فأعرض عن السُّعاة وعدهم من جملة العُداة، لأنهم يفسدون دينك ويُزيلون يقينك، ويقضون عقدك ونيتك، ويحملونك على اكتساب الآثام، ويعرِّضونك لاجتلاب المذام، لبرٍّ ينالهم أو حُرٍّ يخافُهم.

ـ اعتمد في أعمالك على أهل المروءة، وفي قتالك على أهل الحميَّة، لأن المروءة تمنع من الخيانة، والحميَّة تمنع من الهزيمة والضُّر.

ـ أربعة لا يخلو منها جاهل: قولٌ بلا معنى، وفعلٌ بلا جدوى، وخصومة بلا طائل، ومناظرة بلا حاصل.

ـ أربعة لا ردَّ لها: القول المحكي، والسهم المرمي، والقدر الجاري، والزمن الماضي.

ـ أربعة تولد المحبة: حسنُ البِشْر، وبذلُ البِرّ، وقصدُ الوفاق، وترك النفاق.

ـ أربعة من علامات النفاق: قلة الديانة، وكثرة الخيانة، وغشُّ الصديق، ونقضُ المواثيق.

ـ أربعة تُعرف بأربعة: الكاتب بكتابه، والعالم بجوابه، والحكيم بأفعاله، والحليم باحتماله.

ـ أربعة تدلُّ على صحة الرأي: طول الفكر، وحفظ السر، وفرط الاجتهاد، وترك الاستبداد.

● **حسن البلاغة:**

ـ الهوىٰ شرٌّ كمين، والعُجب أضرُّ قرين.

ـ من زرع الإحن حصد المحن.

ـ كل محنة إلى زوال، وكل نعمة إلى انتقال.

ـ لا يخلو المرء من ودود يمدح، أو حسود يقدح.

ـ احتمال الأذيَّة من كرم السجيَّة.

ـ الصمت بغير فكر خرس.

ـ من رمى أخاه بما ارتكبه، رماه أخوه بما اجتنبه.

ـ إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل.

ـ إذا ارتفع الوضيع اتَّضع الرفيع.

ـ من رضي بالهوان هان على الإخوان.

ـ من أحسن الفضائل الإحسانُ إلى الأفاضل.

ـ أبلغ الكلام ما يدلُّ أوله على آخره، ويُعرف باطنُه بظاهره.

ـ خيرُ الأحداث من أعرض عن الفضول ولبس وقار الكهول، وشرُّ الشيوخ من خلا من الأدب وصبا إلى الطرب.

ـ البذل يولِّد الصفاء، والبخل يولِّد البغضاء.

ـ كم من عالم معرض عنه، وجاهل مستمع منه!

ـ كم من أمين يُنسب إلى الخيانة، وخائن يُنسب إلى الأمانة!

ـ كم من غني يستغنى عنه، وفقيرٍ يُفتقر إليه!

ـ كم من مشغول بما يضرُّه، ومعرضٍ عمّا يسرُّه.

ـ من كان أكثر همِّه الطعام، كان أكثر كسبه الحرام.

ـ أمرُّ ما يُذاق البؤس والفقر، وأنفع ما يتجرَّع الغيظ والصبر.

ـ خيرُ الأعمال ما قضى فرضك، وخيرُ الأموال ما وقى عرضك.

ـ أحقُّ من تُطيعه من يأمرك بالتقى وينهاك عن الهوى.

ـ حقٌّ يضرُّ خيرٌ من باطل يَسرُّ.

ـ من أعان على أخيه زاد في قوة أعاديه.

الفوائد والأخبار(*)

لابن دريد

سأل أعرابي شيخاً من بني مروان، فقال له: أصابتنا سنون، ولي بضع عشرة بنتاً. فقطع الشيخُ عليه كلامه فقال: أما الشتاء فوددتُ أن الله عزَّ وجلَّ ضرب بينكم وبين السماء صفائح حديد، وجعل مسيلها إلى البحر فلا يقطرُ عندكم قطرة. وأما البنان فليت الله أضعفهنَّ لك أضعافاً، وجعلك بينهنَّ أعمى مقطوع اليدين والرجلين، ليس لهنَّ كاسبٌ غيرُك.

فقال الأعرابي: والله ما أدري ما أقول لك، لكني أراك قبيح المنظر، سيِّء الخلق، وإخالك لئيم الأصل.. ثم شتمه وانصرف عنه!

(*) الفوائد والأخبار/ لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي؛ تحقيق إبراهيم صالح. ـ ط ٢. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ (ضمن عنوان عام: نوادر الرسائل ص ٥ ـ ٤٠). والفوائد والأخبار هي الرسالة الأولى، والتاليتان هما: الأمالي ليموت بن مزرّع، وهواتف الجنان للخرائطي.

ويبدو أن الرسالة المعروضة هنا قطعة، أو جزء من مؤلَّف كبير لابن دريد. وهي مثل غيرها.. فوائد من الأدب، والشعر خاصة، وأخبار من التاريخ.. وتجارب وحكم، انتقينا منها ما لم نذكره في كتب مشابهة، وأضفنا إليه ـ في الأخير ـ ثلاث فقرات من أمالي يموت بن مزرّع.

والمؤلف سبق التعريف به.. فهو من أئمة اللغة والأدب، وكانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء.. وهو صاحب كتب لغوية ونحوية عديدة. ت ٣٢١هـ.

● مرَّ المهدي على الجسر على برذونٍ له والناسُ حوله وأعرابي واقف فقال:

عجبتُ لبحرٍ يحملُ البحرَ فوقه ... على ظهرِ برذونٍ حواليه فَيْلَق[1]
ترى تحته بحراً تغشّيه ظُلْمةٌ ... ومن فوقه بحرٌ به الأرض تُشرق
غشيتَ به أمواجَ دجلةَ غدوةً ... فكادت به أمواج دجلة تغرق!

● قال بعض الحكماء: ما شيءٌ أحسن من عقلٍ زانه علم، ومن علم زانه حِلْم، ومن حِلْمٍ زانه صدق، ومن صدقٍ زانه عمل، ومن عملٍ زانه رفق، ومن رفقٍ زانه تقوى.

● قال الإمام الحسن البصري: أربعٌ قواصم الظهر: إمامٌ تطيعه ويُضِلُّك، وزوجةٌ تأمنها وتخونك، وجارٌ إن علمَ خيراً ستره، وإن علم شراً نشره، وفقرٌ حاضرٌ لا يجدُ صاحبُه عنه ملتوَّماً[2].

● قال زياد بن أبيه: ما غلبني معاوية في السياسة إلا في أمر واحد. استعلمتُ رجلاً من بني تميم، فكسر الخراج ولحق بمعاوية! فكتبتُ إلىٰ معاوية: إن هذا أدبُ سوء فابعث به إلي. فكتب إليَّ: لا يصلح أن نسوسَ الناسَ أنا وأنت سياسةً واحدة، فإنا إن نشتدَّ نهلكِ الناس جميعاً ونخرجهم إلى سوء أخلاقهم، وإن لِنَّا جميعاً أبطرهم ذلك، ولكن أَلِيْنُ وتشتدُّ، وتلينُ وأشتدُّ، فإذا خاف خائفٌ وجد باباً يدخله!

● عن العتبي قال: سمعتُ أبي يقول: أسوأ ما في الكريم أن يكفَّ عنك خيرَه، وخيرُ ما في اللئيم أن يكفَّ عنك شرَّه!

● حدَّث رجل فقال: حَجَجْتُ مرّةً، فبينا أَنا أَطوفُ، إذا أَعرابيٌّ يدعو، فشغلني عن دُعائي، فإذا هو يقول: اللّهم إِنِّي أَسأَلكَ

(١) الفيلق: الجيش.
(٢) التلوم: الانتظار والتمكث.

قليلاً من كثير، مع فقري إليه القديم، وغِناكَ عنهُ العظيم. اللّهُمّ إنّ عفوكَ عن ذَنبي، وصَفحكَ عن جرمي، وستركَ على قبيح عملي، عندما كانَ من خطئي وزللي، أطمعني في أنْ أَسأَلَكَ ما لا أَستوجبُهُ منكَ. اللهم أذقْتني من رحمتكَ، وأَريتني من قدرتك، وعَرَّفتَني من إجابتكَ؛ ما صرتُ أَدعوكَ آمناً، وأَسأَلُكَ مستأْنساً، لا خائِفاً ولا وجِلاً، بل مُدِلاًّ عليكَ بما قصَّرتُ فيه إليكَ، فإِنْ أَبطأَ عني ألححتُ بجهلي عليكِ؛ ولعلَّ إبطاءَهُ عني خيرٌ لي لِعلْمِكَ بعاقبةِ الأمورِ. فلم أَرَ مولى كريماً أَصبرَ على عبدٍ لئيم منكَ عَلَيَّ، لأَنَّكَ تدعوني فأُوَلِّي، وتتحبَّبُ إليّ فأُبغضُ إليكَ نفسي، وَتُقَدِّمُ إليَّ فلا أَقبلُ منكَ كأَنّ لي الطَّوْلَ عليكَ، فلا يمنعُكَ ذلكَ من الرحمةِ والإِحسانِ إليَّ بجودِكَ وكرمِكَ، فارحمْني بتفضُّلِكَ وفَضْلِ إحسانِكَ.

قال: فخرجتُ من الطوافِ، فالتمستُ صحيفةً ودواةً فكتبتُ الدعاءَ.

● حدَّث يموت بن المزرِّع أن امرأة من العرب كانت أمُّها فارسية، وكان بنو عمِّها كثيراً ما يعيبونها بأمِّها. فلما كثُر ذلك عليها أنشأت تقول:

مِن آلِ فارسَ أخوالي أساورةٌ ... هم الملوكُ، وقومي سادةُ العربِ
وجدَّتي تلبس الديباجَ مِلْحَفةً ... من الفِرَنْدِ، ولم تقعد على قَتَبِ
ولم تكبَّ على الأبراد تنسجُها ... - معاذ ربِّي - ولم تشرب من العُلَبِ

فقيل لها: أوجعتِ قومك!

فقالت: هم والله أشدُّ إيجاعاً، وما قصدتُ إلا دفعَ شرِّهم.

● وسمع خالَهُ الجاحظ يقول:

رأيتُ بالبصرة رجلاً يروح ويغدو في حوائج الناس، فقلت له: قد أتعبتَ بذلك بدنك، وأخلقتَ ثيابك، وأعجفت برذونك، وقتلت غلامك، فما لك راحةٌ ولا قرار، فلو اقتصدت بعض الاقتصاد؟

فقال: قد سمعتُ تغريدَ الأطيار في الأسحار في أعالي الأشجار، وسمعتُ محسناتِ القيانِ على الأوتار، فما طربتُ طربي لنغمةِ شاكرٍ أوليتُه معروفاً، أو سعيتُ له في حاجة!

● وذكر عن أبي حاتم السجستاني قوله:

كان رجلٌ يحبُّ الكلام، ويختلف إلى حسين النجار. وكان ثقيلاً متشادقاً، لا يدري ما يقول. فآذى حسين النجار، ثم فطن له، فكان يعدُّ له الجواب من جنس السؤال، فينقطع ويسكت.

فقال له يوماً: ما تقول - أسعدك الله - في جَدٍّ يُلاشي التوهيمات في عنفوان القُرب من دَرْك المطالب؟

فقال له حسين: هذا من وجود فوتِ الكيفوفية على غير طريق الحسُّوبية، وبمثله يقع إلينا في المجانسة على غير تلاقٍ ولا افتراق.

فقال الرجل: هذا محتاجٌ إلى فكر واستخراج.

فقال حسين: افتكر، فإنا قد استرحنا!

المقتطف من أزاهر الطُّرَف(*)
لابن سعيد الأندلسي

قال نوح عليه السلام: الصبر سجن المسرَّة!

● وقال داود عليه السلام: من بلغ السبعين اشتكى من غير علة!

(*) المقتطف من أزاهر الطرف/ لابن سعيد الأندلسي؛ تقديم وتحقيق ودراسة سيد حنفي حسنين. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٣هـ، ٣١٠ص.

مختارات من نصوص وتراجم، ونماذج من الموشحات والأزجال، وفنون الشعر الأخرى، واختار ترجماته ونماذج أدبائه وشعرائه من المتأخرين منهم. وذكر في مقدمته أن ما جمعه من مواد كان يقرب من عشرين سفراً، وكان عنوانها «بواسم الخمائل ونواسم الأصائل» لكنه سمع نصيحة الملك الناصر صلاح الدين ابن الملك عبد العزيز الأيوبي ـ الذي كان يحضر مجلسه ويؤنسه ـ حيث طلب منه أن ينتقي منه الحسن، ويطرح ما فيه من تجريح وما إليه.. فكان أن غربله، وأصدره في سفر، هو هذا الكتاب، الذي جعله في اثنتي عشرة خميلة، كلٌّ خميلة منها تُقسَّم إلى أربع طبقات، وهذه الخمائل هي: الكلمات القصيرة، النثر المتوسط، النثر الممتع، الأبيات المفردة والمزدوجة والمثلثة والمربعة، الأبيات المخمسة والمسدسة والمسبعة والمثمنة، الأبيات المتسعة والمعشرة والإحدى عشرية والاثنتا عشرية، الحكايات القصيرة، الحكايات المتوسطة وهي المخصوصة بأرباب المناصب، الحكايات الممتعة وهي المخصوصة بالزهاد والعلماء والأدباء وسائر أصناف الناس ما بين جد وهزل، الدوبيتات والمربعات والمخمسات، مُلح كان وكان وموالياً =

● وقال عبد الله بن الحسن: من أعظم الخطأ العجلة قبل الإمكان، والأناة بعد الفرصة.

● وعن زيد بن زين العابدين قوله: المروءة إنصافُ مَنْ دونك، والسموُّ إلى من فوقك.

● من أقوال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: التقيُّ مُلجم.

● ويقول المطيع لله: طول العمر في المُلك فوق كلِّ لذَّة.

● ويقول المقتفي: المبغض المجاهر عندي خير من المحب المداهن.

● وللقائم بأمر الله: كنت لا أحفل بشكوى الغريب لأني لا أتوقع ذلك، حتى بُليت بالغربة، فصرت لا أرحم إلا الغريب!

● وللراشد: أحقُّ الناس بالذم الملوك، لأنهم أقدر الناس على اكتساب المكارم واجتناب الرذائل.

● ويقول أمير مكة المكرمة أبو فليتة (من ولد عبد الله بن الحسن بن المثنى): إني وجدتُ الرقاب ثلاثاً: رقبة ملكتها بالمنن، ورقبة ملكتها بالصفع، ورقبة لم تنفع فيها إلا السيف!

● قال أبو مسلم الخراساني: كان أقوى الأسباب في خروج

= المخصوص بأهل العراق، ملح الموشحات والأزجال.

ومؤلفه علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد، من ذرية عمار بن ياسر، مؤرخ أندلسي، سبق التعريف به. ولد بقلعة يحصب قرب غرناطة، وقام برحلة طويلة زار فيها مصر والعراق والشام، وتوفي بتونس سنة ٦٨٥هـ. وهو صاحب مؤلفات عديدة مشهورة، مثل: المشرق في حلى المغرب، والمغرب في حلي المغرب، والغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، وريحانة الأدب، ورايات المبرزين....

دولة بني أمية عنهم كونهم أبعدوا أولياءهم ثقةً بهم، وأدنوا أعداءهم تألُّفاً لهم، فلم يصرِ العدوُّ بالدنوِّ صديقاً، وصار الصديق بالبعد عدواً!

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما قاله: لا يزهدنك في المعروف كفر من كَفَره، فإنَّه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه، وإني والله ما رأيت أحداً أسعفتُه في حاجةٍ إلا أضاء ما بيني وبينه، ولا رأيتُ أحداً رددته عن حاجة إلا أظلم ما بيني وبينه.

● وقال سبكتكين صاحب غزنة: أنا أبني أمري على ستة: تجنب الكسل، وكتمان السر، وجمع المال من وجهه، وبذله في حقه، ورفع الوضيع الذي لا يعرف بعد الله أحداً غيري، وبثِّ الجواسيس في تعرف أوليائي وأعدائي!

● قيل لنوح عليه السلام: لقد بالغت في الدعاء على قومك! فقال: على قدر ابتلائي بهم.

● قال عمر بن الخطاب لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما: استخلف غيري. قال: ما حبوناك بها، وإنما حبوناها بك.

● اشتدت الإراقة بمروان الجعدي ـ آخر الخلفاء الأمويين ـ فنزل، وكان ذلك سبباً لانهزام العسكر، فقال: ضيَّعنا الدولة ببولة!

● عاملَ أحد أقارب المعتز بما أوجب الاعتذار فقال: أما علمتَ أن أول الغضب جنون وآخره ندم؟

● قيل لصالح الحسني الجوّال: كم تجول؟ قال: حتى يدركني طالبي، أو أدرك مطلوبي!

● قال البربر لسلمان الحسني المغرِّب: من يشهد لك بنسبك؟ فقال: إن لم يأتِ من يعرفني فأخلاقي تشهد لي.

● عوتب محمد الجواد في الجود فقال: إني سُمِّيتُ بهذا

الاسم، وأستحي أن أكون مكذِّباً له.

● قال بنو تميم لشاعرهم الجاهلي سلامة بن جندل: مَجِّدْنا بشعرك. فقال: افعلوا حتى أقول.

● رأت بغدادية رجلاً قد اشترى نعلاً جديداً، وتصدق بالبالية، فقالت: المؤمن تحت ظلِّ صدقته يوم القيامة!

● كان لنوح عليه السلام بيت من قصب، فقيل له: يا نبيَّ الله، لو اتخذت بيتاً كما يتخذ الناس؟ فقال: هذا كثير لمن يموت!

● نزل فارس، فعدا بين يدي المأمون، فأشار بيده أن حَسْبُك. فقال له بعض من يقرب منه: اركب. فقال المأمون: لا يُقال لمثل هذا اركب، إنما يُقال له: انصرف!

● أعطىٰ عاملٌ كبير مالاً جليلاً على أن يُلقَّب بمهذَّب الدولة. فوقَّع الناصر على الورقة: يؤخذ مالُه، ويُصفع قُذاله[١]، وتبقى على الفتح ذالُه!

● قيل لأبي سفيان: بم سدتَ قومك؟ فقال: إني لم أخاصم أحداً قط إلا عند الضرورة، فإن كان لا بدَّ من خصامة تركتُ للصلح موضعاً!

● قيل لآدم عليه السلام لمّا أُخرج من الجنة: ما هذا الشَّره، بعتَ الجنة بشجرة؟ فقال: من اغترَّ بعدو، وقَبِل إشارة امرأة، واتَّبع هوى؛ فلا يعدم أن يقع في مثل ما وقعتُ فيه!

● خاض جلساء عبد الملك بن مروان في مقتل عثمان رضي الله عنه، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، في أي سنٍّ كنتَ

---

(١) القذال: مؤخر الرأس.

يومئذ؟ فقال: دون المحتلم. قال: فما بلغ من حزنك عليه؟ قال: شغلني الغضبُ له عن الحزن عليه!

● وجرى حديث مقتل عثمان والجمل وصفين وما كان في تلك الفتن المظلمة في مجلس عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال: من حسنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وهذا مما لا يعنينا، وإنها لدماء كفَّ الله أيدينا عنها، فيجب أن نكفَّ عنها ألسنتنا!

● كان معن بن زائدة يفضل ابن أخيه يزيد بن مزيد ـ الذي ولي اليمن وغيرها للرشيد ـ على ابنه زائدة، فلامته أمه على ذلك، فقال: أنا أريكِ الفرق بينهما. ثم استدعى في هُدْءٍ من الليل ابنه، فجاءه في غلالة ورداء، مظهراً الكسل لإزعاجه من نومه، فضربه. ثم دعا ابن أخيه يزيد، فجاءه مبادراً بدرعه وسائر سلاحه ورجاله، فقال معن: ليس إلا خير. فقال يزيد: لمّا دعاني الأمير في هذا الوقت قلت لعله لحدثٍ لا ألحقُ معه أن أرجع إلى الاستعداد!

● قال الثعالبي: دعاني أبو علي الصاغاني ـ والي خراسان ـ إلى مؤاكلته، فقلت: أيَّد الله الأمير، أنا سوقيٌّ لا أحسن مؤاكلة الأمراء. فقال: لتكن أظفارك مقلمة، وكمُّك نظيفاً، ولقمتك صغيرة، وأكلُك مما يليك، واعتمد ألا تُدسم الملح والخل، وكل مع من شئت!

● وقال أيضاً: سمعت خوارزمشاه ـ والي خوارزم لملوك بني ساسان ـ يقول: همَّتي كتاب أنظر فيه، وحبيبٌ أنظر إليه، وكريم أنظر له. فقلت له: والله الذي لا يُحلف بأجلَّ منه، ما سمعت قط بأحسن من هذا الكلام في معناه. فقال: أخشى أن تحنث، لأنك تنظر إلينا بعين الرضا.

● كان أبو جعفر الكرخي، الوزير العباسي، كثيراً ما يقول: العامل في أول سنة أعمى، وفي الثانية أعور، وفي الثالثة بصير.

● إياس بن معاوية ـ الذي يُضربِ به المثل في الذكاء ـ أخذه الحكم بن أيوب في ظنَّة الخوارج، وأسمعه كلاماً قبيحاً، قال له فيه: إنك خارجي منافق. ثم طلب منه أن يأتيه بمن يكفله. فقال إياس: ما أحد أعرف منك بي فاكفلني. قال: وما علمي بك، وأنا من أهل الشام وأنت من أهل العراق؟ قال له إياس: يا سبحان الله! ففيمَ هذه الشهادة منذ اليوم؟!

فاستطرفه الحكم وجعل يضحك، ثم خلَّى سبيله!

● عزل المهديُّ شريكاً النخعي ـ القاضي ـ فقام إليه رجل فقال: الحمد لله الذي عزلك، فقد كنتَ تطيل النشوة، وتقبل الرشوة، وتوطىء العشوة! فقام إليه رجل فخنقه، فجعل يصيح: قتلني يا أبا عبد الله! فقال: لقد ذلَّ من ليس له سفيه!

● قيل إن ابن أبي ليلى كان أول من ولي القضاء ببغداد، وأن المنصور أحضره ليوليه ذلك فامتنع، إلى أن أكل عنده من طعام يليق بالملوك. فلما خرج قال المنصور لحاجبه الربيع: لقد أكل الشيخ عندنا أكلة ما أراه يفلح بعدها أبداً. فلما كان عشيَّ ذلك اليوم، راح ابن أبي ليلى إلى المنصور فقال: يا أمير المؤمنين، إني فكرت فيما عرضته علي من الحكم بين المسلمين، فرأيت أنه لا يسعني خلافك! فقال المنصور: خار الله لنا ولك. وولاه القضاء. ثم قال للربيع: كيف رأيت حدسي في الشيخ؟!

● من مآسي المسلمين في الأندلس انشغال بعض ولاتهم باللهو، وانغماسهم في الشراب. وقد ذكر عن أبي بكر بن إبراهيم بن تيفلويت، الذي ولاه علي بن يوسف بن تاشفين على شرقي الأندلس. أن أبا بكر بن باجه ـ وكان فيلسوفاً وشاعراً وشاحاً ـ ألقى على إحدى قينات ابن تيفلويت موشحة فيها:

جـــرِّر الــــذي أيَّـــمــــا جَـــرِّ وصِلِ الـسُّكْـر مـنـك بـالـسُّكْـرِ!

فطرب الممدوح. ولما اختتمها بقوله، وطرق سمعه في التلحين:

عقد الله راية النصر لأمير العُلا أبي بكر

صاح: واطرباه، وشقَّ ثيابه وقال: ما أحسن ما بدأت به وما ختمت. وحلف بالأيمان المغلظة أن لا يمشي في طريق داره إلا على الذهب! فخاف الفيلسوف سوء العاقبة، فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه!

المقلق(*)
لابن الجوزي

قال معروف الكرخي: رجاؤك لرحمةِ مَنْ لا تُطيعه خذلان وحمق.

● عن عرف أن إبراهيم خليل الرحمن يسألُ يوم القيامة في أبيه فلا يُجاب، وأن رسول الله ﷺ سأل في أمِّه فلم يقبل، فينبغي أن يكون على قلق. وإلى هذا المعنى أشار الحسن بقوله لما قيل له: نراك طويل البكاء؟ فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي!

(*) المقلق/ تأليف أبي الفرج بن الجوزي؛ حققه وعلق عليه مجدي فتحي السيد. ـ طنطا: دار الصحابة للتراث، ١٤١١هـ، ١٣٠ص.
في هذا الكتاب حث على الخوف من الله تعالى، والتحذير الشديد من عقابه.
يقول المؤلف: معلوم أن الواعظ طبيب لأمراض الذنوب، ومصلح لأمزجة القلوب، فإذا رأى يائساً منّاه، أو آمناً خوَّفه، فهو يقاوم الأمراض بأضدادها. وإني رأيت الأمن وقلة الخوف ومساكنة الطمع أمراضاً قد استولت على النفوس، فعلمت أنه ما ركب من الأدوية التخويف، لأنه إذا حُدِّث الساكنُ بما يوجب السكونَ كان كمبرودٍ أُعطي برودة. فجمعتُ في هذا الكتاب من الأحاديث المخوِّفات، والمحذِّرات من السيئات، والواصفات للعقوبات، والحكايات المزعجات، ما يقلق المطمئن، ويقلقل الساكن، ويلين القلب القاسي، ويُجري الدمع الجامد، وينهض المتكاسل المتقاعد. والله الموفق.
والمؤلف عالم علامة، مشهور بعمله وتصانيفه الغزيرة، وعلوٍّ كعبه في الوعظ والإرشاد.. ت٥٩٧هـ.

● سأل المغيرة بن مخادش الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يحدثوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟

فقال: أيها الشيخ، والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً، خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك حتى تلحقك المخاوف.

● عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيتُ عمر بن الخطاب أخذ تبنةً من الأرض فقال: ليتني كنت هذه التبنة، ليتني لم أُخلق، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أكن شيئاً، ليتني كنت نسياً منسياً.

● قال العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه: كنت جاراً لعمر بن الخطاب، فما رأيت أحداً من الناس كان أفضل من عمر، إن ليله صلاة، وإن نهاره صيام، وفي حاجات الناس. فلما توفي عمر سألتُ الله عز وجل أن يرينيه في النوم، فرأيته مقبلاً متشحاً من سوق المدينة، فسلمت عليه، وسلَّم عليّ، ثم قلت له: كيف أنت؟ قال: بخير. فقلت له: ما وجدت؟ قال: الآن حين فرغت من الحساب، ولقد كاد عرشي يهوي بي لولا أن وجدتُ رباً رحيماً.

● قال عبد الرحمن بن مهدي: مات سفيان عندي، فلما اشتدَّ به جعل يبكي. فقال له رجل: يا أبا عبد الله، أراك كثير الذنوب؟ فرفع شيئاً من الأرض وقال: والله لذنوبي أهونُ عندي من ذا، إني أخالف أن أُسلب الإيمانَ قبل أن أموت.

● وقال إبراهيم بن عيسى اليشكري: ما رأيتُ أحداً أطول حزناً من الحسن البصري، وما رأيته قط إلا حسبته حديثَ عهد بمصيبة!

● وقال يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تُخلق إلا لهما!

● روى إبراهيم الحربي عن مصعب قال: سمعت أبي يقول:

حضرتِ الوفاةُ رجلاً من أهل المدينة خيِّراً فاضلاً، فجزع جزعاً شديداً، فقيل له: أتجزع من الموت هذا الجزع الشديد مع ما لك من الأعمال الصالحة؟

فقال: كيف لا أجزع؟ والله إن أمير المدينة يأتيني رسولُه فأجزع، فكيف برسول رب العالمين؟!

● قال محمد بن صبيح: بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذّب أو أصابه بعض ما يكره، ناداه جيرانه من الموتى: أيها المخلَّفُ في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه، أما كان لك فينا معتبر؟ أما كان لك في تقدمنا إياك فكرة؟ أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة؟ فهلاّ استدركت ما فات إخوانك؟

● قال عليه الصلاة والسلام: «**من تَعظَّم في نفسه، أو اختال في مشيته، لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان**». رواه الإمام أحمد بإسناد حسن.

● عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسولُ الله ﷺ بعض جسدي فقال: «**يا عبد الله، كنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، واعدد نفسك في الموتى**». رواه البخاري وغيره.

● وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شرب من الخمر شربة لم تُقبل له صلاةٌ أربعين صباحاً، فإن تاب، تاب الله عليه**». قال: ولا أدري في الثالثة، أو الرابعة قال: «**فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة**». رواه أحمد وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح.

وردغة الخبال هي عصارة أهل النار.

● وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ

قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب**[1]**، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهلكنه**». رواه الإمام أحمد بإسناد حسن.

• وعن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: «**إن أهونَ أهل النار عذاباً رجلٌ على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل والقمقم**». رواه الشيخان وغيرهما.

[وأخمص القدمين ما لا يصل إلى الأرض من باطنهما عند المشي. والمرجل: قِدْرٌ من نحاس، والقمقم: إناء ضيق الرأس يسخن فيه الماء يكون من نحاس].

• وقال عليه الصلاة والسلام: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها**». رواه مسلم.

• قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن من الناس من يُقتل يوم القيامة ألف قتلة، ويُقطع يقتص.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من الناس من يُقتل يوم القيامة ويُقطع، ويُقتص منه.

• وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: .... رحم الله عبداً اقترف فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وعُمِّر فاعتبر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، وتأهب للمعاد... وكفى بالجنة ثواباً، وكفى بالنار عقاباً، وكفى بكتاب الله حجيجاً.

• قال أبو بكر التيمي: بينا سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام، إذ أُتي بحجر منقوش، فطلب من يقرأه، فأُتي بوهب بن منبه، فقرأه، فإذا فيه:

ابن آدم، إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في

---

(١) محقرات الذنوب: صغارها.

طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلَّت بك قدمك، وأسلمك أهلُك وحشمك، فبان منك الولد الغريب، ورفضك الوالد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة.

نزهة الجلساء في أشعار النساء(*) للسيوطي

حفصة بنت الركوني أديبة شاعرة جميلة، مشهورة بالحسب والمال، من أهل غرناطة. قالت للملك الأعظم عبد المؤمن بن علي ارتجالاً بين يديه:

(*) نزهة الجلساء في أشعار النساء/ جلال الدين السيوطي؛ دراسة وتحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور. ـ القاهرة: مكتبة القرآن، ١٤٠٦هـ، ١٠٠ص.
ترجم فيه المؤلف لأربعين شاعرة من شواعر العرب «المولَّدات»، وعرض لهنَّ نماذج من أشعارهن، مع ذكر طائفة مستملحة من أخبارهن، إلى جانب نوادر بعض الجواري. وفي هذه المجموعة ألوان وفنون شعرية، كالمدح، والهجاء، والغزل، والشعر الغنائي بصفة عامة.
ويذكر المؤلف أن «هذا جزء لطيف في النساء الشاعرات «المُحْدَثات» دون المتقدِّمات من العرب العرباء، من الجاهليات والصحابيات والمخضرمات، فإن أولئك لا يُحصَيْن كثرة، بحيث أن ابن الطراح جمع كتاباً في أخبار النساء الشواعر العربيات اللاتي يستشهد بشعرهن في العربية فجاءت في عدة مجلدات، رأيت منه المجلد السادس ليس بآخره»!
قلت: وقد عرضت نماذج قليلة منه مما يتوافق وديدن هذه السلسلة.
وقد لا يرى القارىء «ندرة» هذا الكتاب! لكنه كذلك، فإن السيوطي؛ بحر التصنيف والتأليف الذي تربع على مكتبة ضخمة ينقل منها ويصنف.. لم يستطع أن يجمع سوى هذا «الجزء اللطيف» للشاعرات المتقدمات، الذي لم يتجاوز الـ (٨٠) ص بدون مقدمة التحقيق. ولو حذفت الهوامش، ولم يضخم من حجم الحرف، لما بلغ نصف عدد تلك الصفحات!

يا سيد الناس يا من ... يؤمِّل الناسُ رِفْدَهْ
امنُنْ عليَّ بصكٍّ ... يكونُ للدهر عُدَّهْ
تخطُّ يمناك فيه ... والحمد لله وحدهْ

● وحفصة بنت حمدون من وادي الحجارة، بالأندلس، من أهل المائة الرابعة، قالت تذمُّ عبيدها:

يا ربِّ، إني مِنْ عبيدي على ... جمرِ الغضا ما فيهمُ مِنْ نجيبْ
إما جهولٌ أبلهٌ متعبٌ ... أو فَطِنٌ، مِنْ كيدِ لا يُجيبْ!

● صفية بنت عبد الرحمن بن محمد بن علي بن يعيش، قال ابن النجار: كانت واعظة أديبة فاضلة، أنشدتني لنفسها مجيزة لهذا البيت:

إذا ما خلت أرضٌ من أحبَّتي ... فلا سال واديها ولا اخضرَّ عودُها

فقالت:

ولا نطقت في الرَّبعِ بعدك جارةٌ ... يَلَذُّ بسمعي شَدْوُها ونشيدُها
وإني لأبكي الرَّبْعَ مُذْ بان أهلُه ... وأنشدُ ليلاتٍ قضت من يُعيدها؟

● عائشة بنت أحمد القرطبية كانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، ماتت عذراء سنة ٤٠٠هـ، قال أبو حيان في «المقتبس»: لم يكن في زماننا في حرائر الأندلس من يَعْدُلُها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة، تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة.

ومما مدحت به المظفر به منصور أبا عامر وبين يديه وله مرتجلة:

أراك الله فيه ما تريدُ ... ولا برحت معاليه تزيدُ

فقد دلَّت مخايلُه على ما   تؤمِّله وطالعهُ السعيدُ
وليدُكم له رأيُ كشيخٍ   وشيخكم لدى حربٍ وليدُ

● عائشة الإسكندرانية المعروفة بزهرة الأدب، كان مجلسها يعرف بالروض. قالت تخاطب من بعث إليها بشعر ذكر فيه أن قلبه من الحب يتقلَّب في جمر الغضا:

إذا كان قلبك ذا صاحب   فلا تبعثنَّ بأسراره
فإني لأُشفق من ناره   على الروضِ أو بعضِ أزهاره

● ومريم بنت أبي يعقوب القبضولي الشلبي أديبة شاعرة جزلة مشهورة، كانت تعلم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها، وعُمِّرت عمراً طويلاً. سكنت إشبيلية واشتهرت بها بعد ٤٠٠هـ.

ومن شعرها وقد كبرت:

وما يُرتجىٰ من بنتِ سبعين حجَّةً   وسبعٍ كنسج العنكبوت المهلهل
تدبُّ دبيبَ الطفل تسعى إلى العصا   وتمشي بها مشي الأسد المكبَّل

● نزهون بنت القلاعي الغرناطية من أهل المائة الخامسة، ذكرها الحجّاري في «المسهب» ووصفها بخفَّة الروح، وانطباع النادرة، والحلاوة، وحفظ الشعر، والمعرفة بتصريف الأمثال، مع جمال فائق، وحسن رائق!

نظرت إلى رجل عليه غضارة صفراء وهو أشقر أزرق كبير البطن، فقالت: يا أستاذ، أصبحتَ اليوم مثل بقرة بني إسرائيل، ولكن لا تسرُّ الناظرين!

نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن(*) للشرواني

قال الأصمعي: دخلت البادية، وإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة، وإلى جانبها جرو ذئب، فقالت: أتدري ما هذا؟ فقلت: لا. قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر

(*) نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن/ تأليف أحمد بن محمد الأنصاري اليمني الشرواني. ـ القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦هـ، ١٢٣ص.

يعرف المؤلف بكتابه في مقدمته فيقول: هذا المجموع اشتمل على ما تستلذ به الأسماع، وتميل إليه الطباع، من حكايات أنيقة معجبة، وأشعار رائقة مطربة، وغرائب حكم جواهرها غالية الأثمان، وأمثال عقود لآلئها مزرية بقلائد العقيان، انتخبتها من كتب لا يظفر بمخدَّرات مضامينها السنية إلا من عرف السبيل إليها وكان بارعاً في الفنون الأدبية، ودواوين قد احتوت على من تُسَرُّ به الخواطر، وتقرُّ برؤيته النواظر. فلو عاين ابن الوردي ما تضمنه هذا الكتاب لاحمرَّ خجلاً وقال هذا هو العجب العجاب! ولو ذاق البهائي ثمرةً من ثمرات أوراقه لودَّ أن يملأ كشكوله منها ويتحف بها الأجلاء من رفاقه. ولعمري إن ما فيه من اللؤلؤ المنظوم والدر المنثور، حريٌّ بأن يهزأ بشذور الإبريز وقلائد النحور.

وقد سبق التعريف بالمؤلف عند عرض كتابه «حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح». وهو أديب يماني، سكن الحديدة وزبيد وغيرهما من جهات تهامة باليمن، ونزل كلكته... ت ١٢٥٣هـ.

وقد جعل المؤلف كتابه هذا في خمسة أبواب: =

فعل بشاتي ما ترى! وأنشدت تقول:

قتلتَ شويهتي وفجعتَ قومي وأنتَ لشاتنا ابنٌ ربيبُ
غُذيت بدرِّها وغدرت فيها فمن أنباك أن أباك ذيبُ
إذا كان الطباعُ طباعَ سوءٍ فلا أدبَ يفيدُ ولا أديبُ!

● حكى الأصمعي قال: بينما أنا أطوف حول الكعبة، إذا برجل يحمل امرأة على قفاه وهو يطوف، فقال: هذه والدتي التي حملتني في بطنها تسعة أشهر أريد أن أؤدي حقها. فقلت له: ألا أدلك على ما تؤدي بها حقها؟ فقال لي: وما هو؟ قلت: تزوِّجها! فقال: يا عدوَّ الله، تستقبلني في أمي بمثل هذا؟ قال: فرفعت يدها فصفعت قفا ابنها وقالت: لِمَ إذا قيل لك الحقُّ تغضب؟!

● مرَّ أبو علقمة ببعض طرق البصرة، وهاجت به دابته مرة، فسقط، فظن من رآه أنه مجنون، فأقبل رجل يعصر أصل أذنه ويؤذن فيها، فأفاق، فنظر إلى الجماعة حوله فقال: ما لكم تكأكأتم عليَّ

= الباب الأول في الحكايات.

البال الثاني: مناظرة النرجس والورد المسماة بالجوهر الفرد لأبي الحسن علي بن محمد المارديني، ومناظرة المنجم الطبيب المسماة «منية اللبيب» لمحمد مؤمن ابن الحاج محمد قاسم الجزائري.

الباب الثالث: يشتمل على مقاطيع جيدة وقصائد رائقة انتخبها من الدواوين التي عثر عليها ـ كما يقول ـ ومال لمحاسن أبياتها الآخذة بمجامع القلوب إليها...

الباب الرابع: ذكر فيه لامية الشيخ إسماعيل بن أبي بكر المقري الزبيدي، ولامية الصفدي، ولامية الطغرائي المشهورة بلامية العجم، ولامية ابن الوردي.

الباب الخامس: ذكر فيه تغريد الصادح لابن حجة الحموي، وضروباً من الحكم والأمثال نظماً ونثراً.

كتكأكئكم على ذي جِنَّة؟ افرنقعوا عني!

قال: فقال بعضهم لبعض: دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية!

● قيل: إن ملك الصين بلغه عن نقّاش ماهر في النقش والتصوير في بلاد الروم، فأرسل إليه وأشخصه، وأمره بعمل شيء مما يقدر عليه من النقش والتصوير ليعلقه بباب القصر على العادة. فنقش له في رقعة صورة سنبلة حنطة خضراء قائمة وعليها عصفور، وأتقن نقشه وهيأته، حتى إذا نظره أحد لا يشك في أنه عصفور على سنبلة خضراء، ولا ينكر شيئاً من ذلك غير النطق والحركة. فأعجب الملك ذلك، وأمره بتعليقه. وبادر بإدرار الرزق عليه إلى انقضاء مدة التعليق.

فمضت سنة إلا بعض أيام ولم يقدر أحد على إظهار عيب أو خلل فيه، فحضر شيخ حسن ونظر إلى المثال وقال: هذا فيه عيب. فأحضر إلى الملك، وأحضر النقّاش والمثّال وقال: ما الذي فيه من العيب؟ فقال: الخلل في استقامة السنبلة، لأن في العرف أن العصفور إذا حطَّ على سنبلةٍ أمالها، لثقل العصفور وضعف ساق السنبلة، ولو كانت السنبلة معوجَّة مائلة لكان ذلك نهاية في الوضع والحكمة. فوافق الملك على ذلك وسلّم.

● قال المؤلف: رأيت في بعض التواريخ أن بعض الأعراب في البادية أصابته حمّى في أيام القيظ، فأتى الأبطح وقت الظهيرة، فتعرَّىٰ في شديد الحر، وطلى بدنه بزيت، وجعل يتقلَّب في الشمس على الحصى وقال: سوف تعلمين يا حمَّى ما نزل بك وبمن ابتليت! عدلتِ عن الأمراء وأهل الثراء ونزلتِ بي؟ وما زال يتمرَّغ حتى عرق وذهبت حُمّاه وقام. وسمع في اليوم الثاني قائلاً يقول: قد حُمَّ الأمير بالأمس. فقال الأعرابي: أنا والله بعثتُها إليه! ثم ولَّى هارباً!!

● قيل: إن بعض العلماء تخاصم مع زوجته، فعزم على

طلاقها، فقالت له: اذكر طول الصحبة. فقال: والله ما لكِ عندي ذنب سوى ذلك!

● قيل: دخل حسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب حسن أن يتكلم فزجره الخليفة وقال: أصبيٌّ يتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنتُ صبياً فلستُ بأصغر من هدهد سليمان، ولا أنت أكبر من سليمان عليه السلام، إذ قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[1]. ثم قال: ألا ترى أن الله تعالى فهَّم الحكَم لسليمان، ولو كان الأمر بالأكبر لكان داود أولى!

● نزل رجل من الأكّالين بصومعة راهب، فقدم له أربعة أرغفة، وذهب ليحضر له عدساً، فحمله وجاء به فوجده أكل الخبز، فذهب وأتى أليه بالخبز فوجده أكل العدس. ففعل ذلك معه عشر مرات! فسأله الراهبُ: أين مقصدك؟ فقال: إلى الري. فقال له: لماذا قصدت؟ قال: بلغني أنَّ بها طبيباً حاذقاً أسأله عما يصلح معدتي فإني قليل الاشتهاء للطعام! فقال له الراهب: إن لي إليك حاجة! قال: وما هي؟ قال: إذا ذهبتَ وصلحتَ معدتك فلا تجعل رجوعك إليَّ ثانياً!

● كان رجل له غلام فباعه، وقال للمشتري: إني أبرأ إليك من كل عيب به إلا عيباً واحداً. قال: وما هو؟ قال: النميمة. قال: أنت بريء منه، فإني لا أقبل قوله في النميمة.

فما لبث إلا قليلاً حتى أتى السيد وقال: إن امرأتك تريد أن تقتلك وتتزوج غيرك! قال: وما يدريك؟ قال: قد عرفتُ ذلك، فتناوم عليها فإنه سيظهر لك صدقُ ما أقول.

ثم أتى إلى المرأة وقال: إن زوجك يريد أن يخلعك ويتزوج

---

(١) سورة النمل: الآية ٢٢.

غيرك فهل لكِ أن أرقيك فيرجع إليكِ حبُّه؟ قالت: نعم، ولك كذا وكذا. قال: ائتيني بثلاث شعرات من تحت حنكه.

فلما دنت منه لتتناول الشعر قام إليها بالسيف، ولم يشكَّ فيما قاله الغلام، فقتلها. وجاء إخوةُ المرأة فقتلوا الزوج، فذهب كلاهما بسوءِ صنيع عبدهما وقبولهما نميمته. فنعوذ بالله من النميمة، ونسأله الحماية منها ومن ذويها.

• دخل لصٌّ دار مالك بن دينار في الليل، فطاف بها فلم يجد فيها شيئاً. فلّما همَّ بالخروج رفع مالك رأسه وقال: يا هذا، طلبتَ الدنيا فما وجدتها عندنا، فهل لك أن تقبل على الآخرة؟ فقال اللص: نعم.

ثم تقدم إلى مالك فتاب على يديه. فلما طلع الفجر أخذه مالك ومضى به إلى المسجد، فلما رآه التلاميذ قالوا للشيخ: ما هذا الرجل؟ فقال: هذا لصٌّ جاء ليصيدنا فصدناه!

• اصطحب أسد وثعلب وذئب، فخرجوا يصيدون، فصادوا حماراً وظبياً وأرنباً. فقال الأسد للذئب: اقسم بيننا صيدنا. فقال: الحمارُ لك، والأرنب للثعلب، والظبي لي! فخلبه الأسد فأخرج عينه! فقال الثعلب: قاتله الله ما أجهله بالقسمة! فقال الأسد: هات أنت يا أبا معاوية فاقسم. فقال: يا أبا الحارث الأمرُ أوضحُ من ذلك! الحمار لغدائك، والظبيُ لعشائك، وتخلَّل بالأرنب بين ذلك!

فقال الأسد: قاتلك الله ما أقضاك! من أين تعلمت هذا؟ قال: من عين الذئب!

• قيل: إن ملكاً من ملوك الفرس كان سميناً مثقلاً، حتى إنه لا ينتفع بنفسه. فجمع الأطباء على أن يعالجوه من ذلك، فصار كلما عالجوه لا يزداد إلا شحماً! فجيء إليه ببعض الحذّاق من الأطباء فقال له: أنا أعالجك أيها الملك، ولكن أمهلني ثلاثة أيام حتى أتأمل

وأنظر إلى طالعك وما يوافقك من الأدوية.

فلما مضت ثلاثة أيام قال: أيها الملك، إني نظرتُ في طالعك، فظهر لي أنه ما بقي من عمرك إلا أربعون يوماً، فإن لم تصدقني فاحبسني عندك لتقتصَّ مني.

فأمر الملك بحبسه، وأخذ في التأهب للموت، ورفع جميع الملاهي، وركبه الهم والغم، واحتجب عن الناس، وصار كلما مضى يوم يزداد هماً ويتناقص حاله. فلما مضت الأيام المذكورة طلب الحكيم وكلمه في ذلك، فقال له: إنما فعلتُ ذلك حيلةً على ذهاب شحمك، وما رأيتُ لك دواء يفيدك إلا هذا الدواء. فخلع عليه خلعةً سنيَّةً، وأمر له بمال جزيل!

● قال بعض الحكماء: من قلَّ صدقُه قلَّ صديقُه.

● اجتاز ثلاثة من المغفلين بمنارة، فقال أحدهم: ما كان أطول البنّائين في الزمن الأول حتى وصلوا إلى رأس هذه المنارة!

فقال الثاني: يا أبله كل أحد يبنيها، ولكن يعملونها على وجه الأرض ثم يقيمونها!

فقال الثالث: يا جُهَّال كانت هذه بئراً فانقلبت منارة!

● قال المؤلف: تقابلت برجلٍ من العرب في بلدة كلكته عام **١٢٢٢**هـ اسمه جواد ساباط اللطفي بن إبراهيم ساباط الساباطي، ثم اشتهر بعد ارتداده عن الملة المحمدية وعدوله عنها إلى الملة المسيحية بناء نائيل ساباط، فوجدته ظريفاً يتحدث بالنوادر والغرائب، ويروي المضحكات والعجائب.. وله مصنفات في فنون شتى. وقد أخبرني بأسماء كتب منها: القواعد الفركزية في الصرف والنحو (بالفارسية)، وربط الحمار في ردِّ الاستعذار، ومقدمة العلوم في المنطق، والأنموذج الساباطي، والتحفة الباقشيرية في الصنائع والبدائع

وشراب الصوفية، والسهام الساباطية، والوظائف الساباطية فيما أنشأه من الأدعية لنفسه، وضرغامة الرمل، والدهماكة الساباطية في الصرف والنحو (بالهندية).. وله رسائل كثيرة.. وكتاب أنشأه بالعربية والفارسية يعجز عن حل مشكلاتهما أقرانه.. والعجب العجاب من شعره ونظمه.. من ذلك قوله.

إليك فعيشي في وصالك أبذخ   وعين الحميّا في الكؤوس تطخطخ
هجرت ولمّا تعلمي أيَّ مُهجةٍ   سلوت فإن الرأي عنك مشندخ
وصاليتُ نيران الفراق وغرَّبوا   ودرهمت في حوز المعالى ونوَّخوا
فدونك يا وطفا خليلاً مناصحاً   إذا أكهلوا شباب معنٍ وشيَّخوا

وله أيضاً:

أيا من أصابت كلَّ قلب سهامه   وصادت عقولَ العاقلين فخاخُه
وأزعج أربابَ الوداد وحيلُه   وضاق بأفكار القلوب مناخه

وله أيضاً:

دلس الديجور والأقرار طرش   ولنارِ الهجر في الأحشاء برش
بهشوا لخرباش عنه برخشوا   طسعوا عن دار ميًّا حين تشوا
وعبلوا الأحشاء لما عقلوا   وبدا للقلب بالتوطيش وطش
وغزال صادني لما سطا   ولنبل الوجد في الأحشاد طش
حبرش الطبع حبرقش له   جلجان الفيلسوفين حكش!

● قال أفلاطون: لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده، فإن الناس لا يسألون في كم فرغ؟ وإنما ينظرون إلى إتقانه وجودة صنعته.

● كان الإمام الحسن البصري يقول: اللهم إن أنزلتَ بلاءً فأنزل صبراً، ووهبتَ عافيةً فهب شكراً.

● قال خالد بن صفوان: لا تغترَّ بمن يميل إليك حتى تعرف علة ميله، فإن كان لشيء من صفاتك الذاتية فارجُ ثباتَهُ، وإن كان لشيء من أحوالك العارضة فلا تحفل به، فإنه يقيم معك بما قام ذلك الشيء، وينصرف عنك بانصرافه!

● قيل لأبقراط: ما أهم الأشياء نفعاً؟ قال: فقد الأشرار!

● في كتاب للفرس: إذا أردتَ أن تسأل فاسأل من كان في غنى ثم افتقر، فإن عزَّ الغنى يبقى في قلبه أربعين سنة، ولا تسأل من كان في فقر ثم استغنى، فإن ذلَّ الفقر يبقى في قلبه أربعين سنة.

● قال ابن المقفَّع: إذا حاججت فلا تغضب، فإن الغضب يقطع عنك الحجة ويُظهر عليك الخصم.

● وُجد في كتاب لجعفر بن يحيى أربعة أسطر مكتوبة بالذهب: الرزق مقسوم. الحريص محروم. البخيل مذموم. الحسود مغموم.

● قال لقمان لابنه: يا بني، ليكن أول شيء تكسبه بعد الإيمان خليلاً صالحاً، فإنما مثل الخليل الصالح كمثل النخلة، إن قعدت في ظلِّها أظلَّتك، وإن احتطبت من حطبها نفعك، وإن أكلت من ثمرها وجدته طيباً.

● قال علي رضي الله عنه: الأدب حلي في الغنى، كنز عند الحاجة، عون على المروءة، صاحب في المجلس، مؤنس في الوحدة.

● ليس في ثلاثة حيلة: فقر يخالطه كسل، وعداوة يداخلها حسد، ومرض يمازجه هرم.

● وقال آخر: ثلاثة أشياء قليلها كثير. المرض، والنار، والعداوة.

• قال بعض الحكماء: اجتنب سبع خصال يسترح جسمك وقلبك، ويسلم دينك وعرضك: لا تحزن على ما فاتك، ولا تحمل على قلبك همَّ ما لم ينزل بك، ولا تلم الناس على ما فيك مثله، ولا تطلب الجزاء على ما لم تعمل، ولا تنظر بالشهوة إلى ما لا تملك، ولا تغضب على من لا يضرُّه غضبك، ولا تمدح من يعلم من نفسه خلاف ذلك.

• المنيَّةُ تضحك من الأمنية.

• قصص الأولين مواعظ الآخِرين.

• استغنِ عن الناس يحتاجوا إليك.

• خفِّف طعامك تأمن أسقامك.

• كن ذنباً في الخير ولا تكن رأساً في الشر.

• من ضاق خُلقه ملَّهُ أهله.

• لا تقل إلا بما يطيب عنك نشرُه، ولا تفعل إلا ما يسطر لك أجره.

• لا تفنِ عمرك في المعاصي، وخذ حذرك من مالك النواصي.

• كاد العتاب يوجب البغضاء.

• لكل قادم دهشة.

• سلطان غشوم خير من فتنة تدوم.

• لو كان في البوم خير ما فات الصياد.

• إذا غاب عنك أصله كان دلائله فعله.

• تراب العمل ولا زعفران البطالة.

● كثرة الخلوة بالنساء فساد للطباع والعقول.

● إذا كثرت الآراء خفي الصواب.

● من ساءت أخلاقه طاب فراقه.

● لا تركن إلى عدوٍّ إن شكر.

● قال لقمان لابنه: يا بني، إن القلوب مزارع فازرع فيها طيب الكلام، فإن لم ينبت كلُّه نبت بعضُه.

● قال بعض الفضلاء: إذا جهلت فاسأل، وإذا زللت فارجع، وإذا أسأت فاندم، وإذا غضبت فاحلم.

● وقال حكيم: الدنيا عسل مشوب بسمّ، وفرح موصول بغم، فلا تغرَّنك زهرتها، ولا تفتننك زينتها، فإنها سلاَّبة للنعم، أكالة للأمم.

● قال بعض الفضلاء: من لم تؤدِّبه الكرامة قوَّمته الإهانة.

● قيل: إن رجلاً أتى إلى بعض الحكماء، فشكا إليه صديقه، وعزم على قطعة والانتقام منه. فقال له الحكيم: أتفهم ما أقول لك فأكلمك أم يكفيك ما عندك في فورة الغضب التي تشغلك عني؟ فقال: إني لما تقول لواعٍ. فقال: أسرورك بمودته كان أطول أم غمُّك بذنبه؟ قال: بل سروري. قال: أفحسناته عندك أكثر أم سيئاته؟ قال: بل حسناته. قال: فاصفح بصالح أيامك معه عن ذنبه، وهب لسرورك به جرمه، واطرح مؤنة الغضب والانتقامِ للودِّ الذي كان بينكما من سالف الأيام...

● طوبى لمن كان بصره في قلبه، والويل لمن كان قلبه في بصره.

● قيل لبعض العباد: ما أصبرك على الوحدة؟ فقال: أنا جليس

الرب، إن شئت أن يناجيني قرأتُ كتابه، وإن شئت أن أناجيه صليت له.

● قال حكيم: من أكثر النوم لم يجد في عمره بركة، ومن أكثر الأكل لم يجد لذة العبادة.

● ليس العجب من جاهل يصحب جاهلاً، إنما العجب من عاقل جفا عاقلاً!

● لله دَرُّ القائل:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدراً ... فالظلمُ آخره يأتيك بالندمِ
نامت عيونك والمظلومُ منتبه ... يدعو عليك وعينُ الله لم تنمِ

● قال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز: كيف ترى ما نحن فيه؟

قال: سرور لولا أنه غرور، ومُلْك لولا أنه هُلْك، ونعيم لولا أنه عديم، ومحمود لولا أنه مفقود.

● إذا كانت الأشياء غير دائمة ففيمَ السرور بها؟

● قال المنصور لبعض أولاده: خذ عني اثنين: لا تقل بغير فكر، ولا تعمل بغير تدبير (أي تخطيط).

● قال بعضهم:

إن كنتَ منبسطاً سميتَ مسخرةً ... أو كنتَ منقبضاً قالوا به ثقلُ
وإن تواصلهم قالوا به طمعٌ ... وإن تفارقهم قالوا به مللُ!

● وقال آخر:

عرضتُ على الخبّاز نحوَ المبرِّدِ ... وكُتُباً حِساناً للخليل بن أحمد
ورؤيا ابنِ سيرين وخطَّ ابن مقلةٍ ... وتوحيد جهمان وفقه محمدِ

وناشدتُه شعرَ الكميتِ وجرولٍ   بغُنَّةِ لحن للقريض بن معبدِ
فلم يُغنِ عني كلُّ ما قد ذكرتُه   سوى درهمٍ ناولتُه كان في يدي!

● وقال القائل:

رأيتُ الناسَ قد مالوا   إلى من عنده مالُ
ومَنْ لا عنده مالُ   فعنه الناسُ قد مالوا

ولبعضهم في المعنى:

رأيتُ الناسَ منفضَّهْ   إلى مَنْ عنده فِضَّهْ
ومَنْ لا عنده فِضَّهْ   فعنه الناسُ مُنْفَضَّهْ

ولآخر مثله:

رأيتُ الناسَ قد ذهبوا   إلى من عنده ذهبُ
ومن لا عنده ذهبُ   فعنه الناسُ قد ذهبوا

● وقال غيره:

أكرم طبيبَك إن أردت دواءه   وكذا المعلِّمَ إن أردتَ تعلُّما
إن المعلِّمَ والطبيبَ كلاهما   لا ينصحان إذا هما لم يُكرما

● وقال نشوان بن سعيد:

قال الطبيبُ لقومي حين جسَّ يدي   هذا فتاكم وربِّ البيتِ مسحورُ
فقلتُ ويحك! قد قاربتَ في صفتي   عينَ الصواب، فهلاّ قلتَ مهجور؟

● ولله دَرُّ القائل:

ثلاث من الدنيا إذا ما تحصَّلت   لشخصٍ فلا يخشىٰ من الضرِّ والضَّير
غِنى عن بنيها والسلامةُ منهم   وصحةُ جسمٍ ثم خاتمة الخيرِ

نُوْر الطَّرْف ونَوْر الظَّرف(*)

للحصري

قال الجاحظ يصف كلام النبي ﷺ: استعملَ التوَسُّطَ وهَجَر الغريب، ورغب عن الهجين[1]، فلم ينطق إلا عن حكمة، ولم يأت

(*) نُور الطَّرْف وَنُور الظرف: كتاب النورين/ لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني؛ تحقيق ودراسة لينة عبد القدوس أبو صالح. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ، ٤٥٥ص.

يتمم هذا الكتاب في مادته الأدبية كتاب «زهر الآداب وثمر الآداب» للمؤلف ـ الذي سبق عرضه وذيله ـ فيشكلان معاً تراثاً أدبيًّا جمًّا لمشاهير أدباء المشرق في القرنين الثالث والرابع الهجريين، كما تقول المحققة. وتذكر أنهما يضاهيان في الأهمية وغزارة المادة المشرقية الكتابين المشهورين في المغرب والأندلس، وهما: العقد الفريد لابن عبد ربه، والأمالي لأبي علي القالي.

ويصف المؤلف كتابه بأن فيه غرائب العجائب، وطرائف اللطائف، وجواهر النوادر، قال: «وقرنتُ الفصول بالأصول، وضممتُ الأشعار إلى الأخبار، ووشَّحتها بالمستندر والمختار من كلام ملوك النظم والنثر، من أفراد أهل العصر، الذين قهروا السابقين، وبهروا اللاحقين، بكريم عنصر البلاغة، وصميم جواهر البراعة، والتهاب الإبريز في إغراب التطريز... والنفوسُ قد طُبعت على استطراف ما سمعت، مما لم يتكرَّر فيتكدَّر، ويتوالى على الأسماع فتمجُّه الطباع، وتكثر روايته فتملُّ حكايته..».

وسبق التعريف بالمؤلف عند عرض كتابه المذكور. ووفاته في القرن الخامس الهجري (٤٥٣هـ).

(١) الهجنة من الكلام: ما يعيبه. ويريد: غير فصيح.

إلا بكلام حُفَّ بالعصمة، وسُدِّد بالتأييد. وهو الكلام الذي ألقى الله عزَّ وجلَّ عليه المحبَّة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والجلالة والإفهام، وقلَّة عدد الحروف، مع قلَّة حاجة السامع إلى معاودته، فلم تسقط له كلمة، ولا بارت له حُجَّة[1]، ولم يقم له خصم إلا أفحمه.

خطيبٌ بذَّ الناطقين[2]، وحاز قصب السابقين، لم يلتمس إسكات الخصم بما لا يعرفه الخصم، ولم يحتجَّ إلا بالصدق، ولم يطلب الفَلَج[3] إلا بالحق، لا يلمز ولا يهمز[4] ولا يُبطىء ولا يَعْجِل، ولا يُسهب ولا يُحصر[5]، فلا يسمع الناسُ كلاماً أعمَّ نفعاً، ولا أقصدَ لفظاً[6]، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرمَ مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ.

● قال ابن الرومي:

دهرٌ علا قَدْرُ الوضيع به ... وغدا الرفيعُ يُهينه شَرَفُهْ
كالبحر يرسبُ فيه لؤلؤهُ ... سُفْلاً وتطفو فوقه جِيَفُهْ

● وقال:

قالت علا الناسُ إلا أنتَ قلت لها ... كذاك يَسْفُلُ في الميزان ما رَجَحا

● قال مالك بن طوق ـ أمير دمشق للمتوكل ـ لكلثوم بن عمرو

---

(١) بارت: بطلت لضعفها.
(٢) بذَّ: غلب وسبق.
(٣) الفَلَج: الغلبة والظفر.
(٤) اللمز: العيب، والهمز. الغمز والغيبة.
(٥) يحصر: من الحصر، وهو العِيّ.
(٦) أقصد لفظاً: أي أوجز وأقل.

العتّابي[1]: يا أبا عمرو رأيتك كلَّمتَ فلاناً فأقللتَ كلامك؟

قال: نعم، كانت معي حيرة الداخل، وفكره صاحب الحاجة، وذُلُّ المسألة، وخوف الرَّدِّ، وشدَّة الطمع.

● وقال يحيى بن خالد البرمكي ـ وزير الرشيد ـ للعتّابي ـ وكان لا يُبالي أيَّ ثوبيه لبس، وقد رأى عليه بزَّة دنيئة ـ: يا أبا عمرو، ما لك لا تجيد الملبوس؟

فقال: إنما يرفعُ المرءَ أدبُه وعقلُه، لا حَلْيُه وحُلَله، لحىٰ اللَّهُ امرءاً يرضى أن يرفعه هيئتاه: جمالُه ومالُه، لا واللَّهِ حتى يشرِّفَهُ أصغراه: لسانه وقلبه، ويعلو به أكبراه: همَّتُه وُلبُّه.

● قال الأصمعي: قال لي الرشيد: هل تعرفُ كلماتٍ جامعات لمكارم الأخلاق، يقلُّ لفظها، ويسهلُ حفظُها، تكون لأغراضها لِفْقاً[2] لمقاصدها وِفْقاً، تشرح المستبهم، وتوضح المستعجم؟

قلت: نعم يا أمير المؤمنين. دخل أكثم بن صيفي ـ حكيم العرب ـ على بعض ملوكها فقال: إني سائلك عن أشياء ما تزالُ بصدري معتلجة، وما تزال الشكوك عليها والجة، فأنبئني عنها بما عندك منها.

فقال أكثم: أبيتَ اللعن، سألت خبيراً، واستنبأتَ بصيراً، والجوابُ يشفعه الصواب، فسلح عما بدا لك.

قال: ما السُّؤْدَد؟

قال: اصطناع العشيرة، واحتمالُ الجريرة[3].

قال: فما الشرف؟

---

(١) كاتب حسن الترسل، وشاعر مشهور مجيد. انقطع للبرامكة، ت ٢٢٠هـ.
(٢) لفقاً: ملائمة.
(٣) الجريرة: ما يجرُّه الذنب.

قال: كفُّ الأذى، وبذلُ النَّدىٰ.

قال: فما المجد؟

قال: حملُ المغارم، وابتناءُ المكارم.

قال: فما الكرم؟

قال: صدقُ الإخاء، في الشدَّة والرَّخاء.

قال: فما العزُّ؟

قال: شدَّة العَضُد، وكثرة العدد.

قال: فما السماحة؟

قال: بذلُ النائل، وإجابة السائل.

قال: فما الغنى؟

قال: الرضا بما يكفي، وقلَّةُ التمنِّي.

قال: فما الرأي؟

قال: لُبٌّ تُعينه تجربة.

قال له الملك: أوريتَ زناد بصيرتي، وأذكيتَ نار خبرتي، فاحتكم.

قال: بكلِّ كلمة هجمة من الإبل[١].

قال: هي لك.

قال الأصمعي: فقال لي الرشيد: ولك عندنا بكلِّ كلمة بَدْرة[٢].

(١) هي ما بين السبعين إلى المائة.

(٢) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم.

قال: فانصرفتُ بثمانين ألف درهم!

● قال بعضهم:

لا يُؤْيِسَنَّكَ من عثمانَ حِدَّتُه ... وإن تطايرَ من أنيابه الشَّرَرُ
فإن حدَّتَهُ ـ واللَّهُ يَكْلَؤُهُ ـ ... كالبرق والرعد يأتي بعده المطرُ

● وقال ابن وكيع، أبو محمد الحسن بن علي (ت٣٩٣هـ):

امزحْ بمقدار الطلاقة واجتنبْ ... مَزحاً تُضافُ به إلى سوءِ الأدبْ
لا تُغْضِبنَّ أخاكَ إن مازحتَهُ ... إن المزاحَ على مُقَدِّمةِ الغَضَبْ!

● قالوا فيما لا يُعجبهم من المغنِّين:

يُغَنِّي فيُتعب ولا يُطرب، إذا غنَّىٰ عَنَّىٰ، وإن أدَّىٰ آذىٰ، يُميت الطَّرَب، ويُحيي الكَرَب[1]، ضَرْبُهُ يوجبُ ضَرْبَهُ، من عجائب غنائه أنه يوْردُ الشتاء في الصيف، ولا يَقْدِرُ على سماعه الضَّيْف!

● قل الشاعر أبو الفتح علي بن محمد البُستي (ت ٤٠٠هـ).

وقد يَلْبَسُ المرءُ خَزَّ الثياب ... ومن تحتها حالةٌ مُضْنِيَهْ
كمن يكتسي خَدُّه حُمْرَةً ... وعِلَّتُها وَرَمٌ في الرِّيَهْ!

● قال أعرابي: دخلتُ بغداد، فرأيتُ بها عيوناً دُعْجاً، وحواجب زُجّاً، يَسْحَبْنَ الثياب، ويَسْلُبْنَ الألباب.

● قال أعرابي في امرأةٍ ودَّعها: والله ما رأيتُ دمعةً ترقرقُ من عينٍ بإثمد على ديباجةِ خدٍّ أحسنَ من عَبْرةٍ أمطرَتْها عينُها، فأعشبَ لها قلبي!

● قال محمد بن مخلد الكاتب: لزمتُ أبا الحسن علي بن

---

(١) الكَرَب: الحزنُ يأخذ بالنفس.

محمد بن الفرات ـ وزير المقتدر ـ أغدو وأروحُ إلى بابه لا أحظىٰ بطائل، ولا أصلُ إلى تصريفٍ ولا نائل، حتى برمتْ نفسي. فرأيتُ هاتفاً في المنام يقولُ لي:

يا أيُّها المكثرُ في المطالبْ　　اهْجُرْ تصاريفَ المُنىٰ الكواذبْ
إذا أتىٰ وقتُ القضاء الغالبِ　　بادرتِ الحاجاتُ كفَّ الطالبْ

فتركتُ المصيرَ إليه، فلم يمضِ إلا أسبوع حتى تقلَّد أبو محمد حامد بن العباس الوزارة، فتابت نفسي، وثابتْ حالي!

● أنشد القاضي إسماعيل بن إسحاق لسعيد بن حميد الكاتب:

لا تَغْتَبَنَّ على النوائب　　فالدهرُ يُرْغِمُ كلَّ عاتبْ
واصبرْ على حَدَثانهِ　　إن الأمورَ لها عواقبْ
ولكلِّ صافيةٍ قذىً　　ولكلِّ خالصةٍ شوائبْ
والدهرُ أولىٰ ما صبر　　تَ له على رَنْق المشارب[1]
كم فرحةٍ مطويةٍ　　لك بين أثناء النوائب
ومسرَّةٍ قد أقبلتْ　　من حيث تنتظرُ المصائب!

قال القاضي: ما عرضَ لي همٌّ فادح، فذكرتُ هذه الأبيات، إلا رجوتُ من رَوْح الله عزَّ وجلَّ من الفرج ما يفكُّ عِقالي، ويُنعم بالي، ثم تزولُ عاقبَةُ ما أَحْذَرُه إلى فاتحة ما أُوثره!

● قصد أعرابيٌّ من بني كلاب رجلاً منهم يُكنى أبا معاذ، فسُئل عنه بعد انصرافه فقال: لقد رأيتُ أبا معاذ خير ملاذ، ولذتُ منه بأكرم معاذ، وأحمدتُ بلقائه عاقبة الإغذاذ[2].

(١) الرنق: الكدر.
(٢) الإغذاذ: السير السريع.

الفهرس

الموضوع	الصفحة